القائمة الطويلة لجائزة البوكر 2017

كاملة شمسي

مكتبة ٥٣٨

Women's Prize for Fiction 2018

جائزة الرواية للنساء

نار الدار

ترجمة الحارث النبهان

التنوير

القائمة القصيرة لجائزة كوستا للرواية 2017

«قوية» The Guardian «مؤثّرة» The Observer «لا تُنسى» The New York Times

كاملة شمسي

نار الدّار

t.me/t_pdf

مكتبة | 538

مكتبة
t.me/t_pdf

٣ ١٢ ٢٠١٩

الكتاب: نار الدّار (رواية)
تأليف: كاملة شمسي
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 304 صفحة
رقم الناشر: 123-377/18
الترقيم الدولي: 3-17-941-9938-978
الطبعة الأولى: 2018

هذه ترجمة مرخصة لرواية
HOME FIRE by Kamila Shamsie
First published in Great Britain 2017
© Kamila Shamsie, 2017
All rights reserved

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2018

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الترقيم الدولي: 3-036-472-614-978

كاملة شمسي

نارُ الدّار

ترجمة

الحارث النبهان

مكتبة | 538

إلى

جيليان سلوفو[1]

(1) جيليان سلوفو كاتبة من جنوب أفريقيا لها أعمال في المسرح والمذكرات.

أولئك الذين نحبهم... أعداء للدولة.

«**أنتيغون**»، سوفوكليس

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

عصمة

مكتبة
t.me/t_pdf

1

سوف تتأخر عصمة عن طائرتها. ولن تدفعَ الشركة تعويضًا عن ثمن البطاقة لأنها غير مسؤولة عن المسافرين الذين يصلون إلى المطار قبل موعد الرحلة بثلاث ساعات، ثم يُساقون مخفورين إلى غرفة الاستجواب. لقد توقعَتْ هذا الاستجواب، لكنها لم تتوقع أن تشعر بهذه المهانة كلها عندما فتشوا محتويات حقيبتها. لقد حرصت على ألّا تضعَ فيها أي شيء يمكن أن يستدعي أسئلة أو تعليقات... لا مصحف، ولا صور عائلية، ولا كتب ضمن مجالات اهتمامها الأكاديمي. لكن الشرطيةَ، على الرغم من هذا كله، كانت تمسك بكل قطعة من ملابس عصمة وتمررها بين أصابعها وإبهامها وكأنها لا تفتش عن جيوب خفية فيها بقدر ما تحاول تقديرَ جودة القماش. وأخيرًا، تناولت السترةَ المحشوّة بزغب البط التي تحمل اسمَ مصمّم معروف، تلك السترة التي طوتها عصمة ووضعتها على ظهر الكرسي عندما دخلت الغرفة. رفعت الشرطية السترةَ بيديها الاثنتين ممسكةً بها من جهة الكتفين.

قالت: «هذه ليست لك». فكانت عصمة واثقة من أنها لم تكن تقصد القول: لأنها أكبر من مقاسك، بل أرادت أن تقول: إنها أفخم من أن تكون لشخص مثلك.

«كنت أعمل في محل لتنظيف الملابس. وقد قالت المرأة التي أتتنا

بهذه السترة إنها لا تريدها إذا لم نستطع إزالة البقعة عنها»، قالت عصمة هذا وهي تشير إلى أثر بقعة دهنية على جيب السترة.

«وهل عرف مديرك أنك أخذت السترة؟»

«أنا كنت المديرة».

«كنت مديرةَ محل تنظيف الملابس، وأنت في طريقك الآن للالتحاق ببرنامج الدكتوراه في جامعة أمهرست في ولاية ماساشوستس».

«صحيح».

«وكيف حصل هذا؟».

«تيتمت مع أختي وأخي قبل أن أنهي الجامعة بوقت قصير. كانا في الثانيةَ عشرة من العمر... توأمان. وهكذا، عملت في أول وظيفة عثرت عليها. وقد كبرا الآن وصرت قادرةً على العودة إلى حياتي».

«أنت عائدةٌ إلى حياتك... في أمهرست، ماساشوستس».

«كنت أعني العودة إلى حياتي الأكاديمية. مدرّستي السابقة في مدرسة لندن للاقتصاد تُدرّس الآن في أمهرست، في جامعة أمهرست، اسمها هيرا شاه. يمكنك الاتصال بها. سوف أُقيم معها عند وصولي إلى أن أجدَ لنفسي مكانًا أعيش فيه».

«في أمهرست؟»

«لا! لست أدري. عفوًا... هل تسألينَ عن مكان إقامتها أو عن المكان الذي سأُقيم فيه؟ إنها تقيم في نورثهامتون، وهي قريبةٌ من أمهرست. سأبحث في كل المنطقة حتى أجد ما يناسبني. قد أعثر على شقة في أمهرست، لكن من الممكن ألّا أجد شقةً فيها. هنالك بعض الإعلانات العقارية في هاتفي. إنه لديكِ». أرغمت عصمة نفسَها على الكف عن الكلام. كانت الشرطية تفعل ذلك الشيء الذي رأت عصمة أفرادَ شرطة يفعلونَه من قبل: يظلون صامتين عندما تجيب عن سؤالهم إجابةً واضحة مباشرة. وهذا ما يجعلك تظن أن عليك أن تقول المزيد. كلما قلت المزيد، كلما بدوتَ مذنبًا أكثر.

أسقطت المرأة السترةَ فوق كومة الملابس والأحذية، ثم قالت لعصمة أن تنتظر.

كان هذا منذ فترة ليست قصيرة. لا بد أن الركاب يصعدون إلى الطائرة الآن. نظرت عصمة إلى حقيبتها. لقد أعادت حوائجَها إليها بعد خروج المرأة من الغرفة، ثم أمضت الوقتَ بعد ذلك قلقة من احتمال أن يكون في فعلها ذلك من غير إذن مخالفة من نوع ما. هل عليها أن تُفرغَ الملابس في كومة عشوائية على الأرض، أم أن ذلك يمكن أن يجعل الأمر أكثرَ سوءًا. وقفت، ثم فتحت الحقيبة بحيث صارت محتوياتها ظاهرة.

دخل الغرفةَ رجلٌ يحمل جواز سفر عصمة وكمبيوترها المحمول وهاتفَها. سمحت لنفسها بشيء من الأمل، لكنه جلسَ وأشار لها بالجلوس، ثم وضع آلةَ تسجيل بينهما. سألَها الرجل: «هل تعتبرين نفسك بريطانية؟»

«أنا بريطانية».

«لكن، هل تعتبرين نفسَك بريطانية؟»

«لقد عشت هنا طيلة حياتي». أرادت بهذه الكلمات القول إنه ما من بلد آخر يمكنها أن تعتبرَ نفسَها جزءًا منه؛ إلا أن كلماتها بدت كأنها تحاول التهرّبَ من السؤال.

استمر الاستجواب قرابةَ الساعتين. أرادَ أن يعرفَ آراءَها في الشيعة، والمثليين، والملكة، والديمقراطية، و«مسابقة الخبّازين البريطانيين الكبرى»، وغزو العراق، وإسرائيل، ومن ينفّذون تفجيرات انتحارية، ومواقعَ المواعدة على الإنترنت. بعد تلك الزلّة المبكرة في ما يتعلق بمدى بريطانيتها، استقرت إجاباتها ضمنَ الحالة التي تمرّنت عليها مع أنيقة التي لعبت دورَ الشرطي الذي يقوم بالاستجواب فراحت عصمة تُجيب عن أسئلة شقيقتها وكأنها عميلٌ تجاريٌ له آراءٌ سياسية مريبة لكنها

لا تريد أن تخسرَ العملَ معه من خلال التعبير عن آراء مخالفة تمامًا مع بقائها بعيدة أيضًا عن الشعور بالحاجة إلى الكذب عليه. («عندما يتحدث الناس عن العداوة بين الشيعة والسنة، فهذا ما يرتكز عادة على بعض حالات عدم التوازن في السلطة السياسية، كما هو الحال في العراق أو سورية... وبما أنني بريطانية، فأنا لا أستطيع التمييز بين مسلم وآخر». «عادةً ما يسبب احتلال بلد آخر مشكلات أكثر من المشكلات التي يحلها»... هذا ما يصحّ على العراق وعلى إسرائيل. «قتل المدنيين أمر خاطئ... ويصح هذا بالتساوي على قتل المدنيين في تفجير انتحاري، كما على قتلهم في القصف الجوي، أو بطائرات من غير طيار»). كانت هنالك فترات صمت طويلة بين كل إجابة والسؤال الذي يليها عكف الرجل خلالها على النقر على لوحة المفاتيح في كمبيوترها وتفتيش سجل تاريخ التصفح على الإنترنت. عرف أنها كانت مهتمة بقصة زواج ممثل في مسلسل تلفزيوني شهير. وعرف أن ارتداءَها الحجاب لا يمنعها من شراء منتجات غالية لترويض شعرها المجعّد؛ وعرف أيضًا أنها بحثت عن إجابة لـ«كيف تُجري محادثةً صغيرة مع أميركيين».

قالت لها أنيقة خلال ذلك التدريب: «تعرفين أنك لست مضطرةً إلى أن تكوني شديدةَ الانصياع في كل شيء». إنها شقيقتها التي لم تبلغ التاسعة عشرة بعد، أختها صاحبة دماغ طالبة القانون التي تعرف كلَ شيء عن حقوقها ولا تعرف شيئًا عن هشاشة مكانها في العالم. «مثلًا، إذا سألوك عن الملكة، فعليك أن تكتفي بالقول لهم: 'بما أنني آسيوية، فلا بد لي من الإعجاب بالألوان التي تختارها'. من المهم أن تبيّني لهم، على الأقل، قدرًا قليلًا من ازدرائك لتلك العملية كلها». لكن عصمة أجابت على هذا السؤال: «إنني معجبة كثيرًا بالالتزام الذي تبديه جلالتها تجاه دورها». إلّا أنها وجدت راحةً لسماع إجابات أختها البديلة في رأسها، ولسماع أصوات التعجب التي راحت تُطلقها. ارتاحت لإحساس أختها بالنصر

(ذلك الإحساس الذي توقعته) عندما سألها الشرطي السؤالَ الذي لم تهتم به عصمة، السؤال عن «مسابقة الخبّازين البريطانيين الكبرى». لا بأس، إذا لم يتركوها تلحق بهذه الطائرة، أو أيّ طائرة بعدها، فسوف تعود إلى البيت، إلى أختها؛ وهو الأمر الذي كان نصف قلبها راغبًا فيه على أية حال. وأما كم كان قلب أنيقة راغبًا في ذلك فهذا سؤالٌ تَصعب الإجابة عليه... لقد كانت شديدة الإصرار على ألّا تغيّر عصمة خططَها بخصوص الذهاب إلى أميركا. وسواء كان هذا السلوك بسبب غيرَّتها عليها أو رغبةً منها في أن تظل وحدّها، فهو شيء لا يبدو حتى أن أنيقة نفسها تُدركه. لمعت شرارةٌ صغيرةٌ في ذهن عصمة أنبأتها بأن فكرةً عن برويز كانت تحاول النفاذَ إلى السطح قبل أن تَغرقَ من جديد بفعل شدّة رفضها حتى مجرَّدَ التفكير فيه من جديد.

وأخيرًا، انفتحَ باب الغرفة من جديد ودخلت الشرطية نفسها. لعلها الشخص الذي يطرح الأسئلةَ المتعلقة بالأمور العائلية... الأسئلة التي تَصعب الإجابة عليها أكثرَ من أيّ أسئلة أخرى، الأسئلة التي كانت مشحونةٌ أكثرَ من غيرها عندما جلست تتمرّن مع أختها.

قالت الشرطية بنبرة غير مُقنعة: «آسفة لما حدث. كان علينا أن ننتظرَ استيقاظَ أميركا حتى نستطيع التأكد من بعض التفاصيل المتعلقة بتأشيرتك الدراسية. لقد تحققنا من كل شيء. تفضّلي». وبنفحة من الشهامة، أعطت عصمة ورقةً مستطيلة قاسية. إنها بطاقة ركوب الطائرة... من أجل الرحلة التي فاتت عصمة.

نهضت عصمة واقفة غير مستقرة على قدميها لإحساسها بوخز الإبر والدبابيس فيهما، لكنها خشيت من أن تنفضهما لتزيلَ هذا الإحساس حتى لا تصيب قدمها الرجلَ الجالسَ إلى الناحية الأخرى من الطاولة. وعندما سحبت حقيبتَها خارجَ الغرفة، شكرت المرأة التي لا تزال

بصمات أصابعها مطبوعة على ملابسها الداخلية، ولم تسمح حتى لظل من التهكم بأن يشوبَ نبرةَ صوتها.

* * *

كان البرد يعضُّ بأنيابه كل بقعة مكشوفة من الجلد قبل أن يخترقَ طبقات الملابس كلها. فتحت عصمة فمَها ومالت برأسها إلى الخلف وتنفست ذلك الهواء الذي يُخدّر الشفتين ويؤلم الأسنان. شذراتٌ من ثلج متجمّد تحيط بها من كل الجهات وتلمع في أضواء صالة المطار. لقد تركت حقيبتَها مع الدكتورة هيرا شاه التي قادت سيارتَها ساعتين عبر ولاية ماساشوستس، حتى تلاقيها في مطار لوغان. سارت عصمة حتى كومة من الثلج عند حافة وقوف السيارات، ثم خلعت قفازَيْها وضغطت بيديها على الثلج حتى دخلت أصابعها فيه. قاوم الثلج ضغطَ يديّها أول الأمر، لكنه لم يلبث أن استسلمَ فتغلغلت أصابعَها في الطبقات الأكثر هشاشة تحت القشرة المتجمدة الصلبة. لعقت الثلجَ الذي علق براحة يدها حتى تخفّف جفاف حلقها. كانت المرأة العاملة في مطار هيثرو امرأة مسلمة قد عثرت لها على مكان في الرحلة التالية من غير أن تضطر إلى دفع أي مبلغ إضافي. لكن عصمة ظلت قلقة طيلة الرحلة تفكّر في الاستجواب الذي ينتظرها في بوسطن؛ فمن المؤكد أنهم سيحتجزونها، أو سيعيدونَها في أول طائرة متجهة إلى لندن. لكن موظفَ الهجرة لم يسألها إلا عن المكان الذي ستدرس فيه، ثم قال لها شيئًا لم تفهمه تمامًا، لكنها حاولت أن تبدو مهتمة في ما يتعلق بفريق كرة السلة في الجامعة. ثم لوّح لها الموظف بيده مودّعًا. وبعد ذلك، عندما كانت تسير خارجةً من بوابة الوصول، رأت الدكتورة شاه، مشرفتَها المنقذة، ورأت أنها لم تتغير منذ أيام دراسة عصمة الجامعية باستثناء بضع خصل شعر بيضاء ظاهرة في شعرها الداكن القصير. عندما رأت عصمة يد الدكتورة شاه مرفوعةً ترحّب بها، فهمت كيف كان إحساس الناس في زمن آخر عندما

يخرجون إلى سطح السفينة فيرون ذراعَ تمثال الحرية ممتدة إلى الأعلى ويَعرفون أنهم وصلوا أخيرًا وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

استفادت من بقاء شيء من الإحساس في كفَّيْها العاريَيْن فكتبت رسالةً نصية على هاتفها: وصلت بسلام. اجتزت التفتيشَ الأمني. لا مشاكل. د. شاه هنا. كيف الأحوال عندك.

أجابتها أختها بما يلي: عظيم. والآن، بعد أن عرفت أنهم سمحوا لك بالدخول، لم تعد العمة نسيم مضطرة إلى الدعاء لك، ولم أعد مضطرة إلى السير في الغرفة طيلة الوقت.

أهو شيءٌ عظيمٌ حقًا؟

كفاكِ قلقًا عليّ. عيشي حياتك الآن. حقًا، أريدك أن تعيشي حياتك.

ساحة الوقوف بسياراتها الضخمة الواثقة، والشوارع العريضة من خلفها، وأضواء متألقة في كل مكان يضاعف ألقَها انعكاس ضوئها على سطوح من زجاج وثلج. ثمة بهجة واختيال هنا، وثمة ثقة... وفي يوم رأس السنة هذا، سنة 2015، ثمة وعدٌ ببدايات جديدة.

* * *

استيقظت عصمة في الضوء فرأت شخصين يخرجان من السماء ويسقطان في اتجاهها. لونٌ مشرقٌ يرفرف فوق رأسَيْهما، ممتلئًا بالهواء.

عندما أتت بها هيرا شاه لترى هذه الشقة الصغيرة، هذا الاستوديو، في الصباح الذي تلا وصولها إلى أميركا، لفت مالك الشقة انتباهَها إلى النافذة السماوية باعتبارها عنصرًا جذابًا في البيت يعوّض بشاعةَ خزانة الجدار المشبعة رطوبة. وعدها بأنها سترى شُهُبًا من تلك النافذة وبأنها سترى خسوفَ القمر. لكن ذكرى استجواب مطار هيثرو كانت لا تزال حية تُرهق أعصابَها، فلم تستطع التفكير في شيء غير أقمار المراقبة الاصطناعية تجتاز السماء من فوقها، فرفضت ذلك الاستوديو. لكنهم

رأوا عدةَ شقق في ذلك اليوم فصار من الواضح لها أنها لن تتمكنَ من تحمل تكلفة إيجار أي شقة أحسن منه إن أرادت العيش من غير عبء وجود شريك في السكن. والآن، بعد نحو عشرة أسابيع من ذلك، صارت عصمة قادرة على التمطط في فراشها وهي تعرف أنها قادرة على أن تَرى من غير أن تُرى. كم بدت حركة أولئك المظليين بطيئةً ومن فوقهم ألوان مظلاتهم الحمراء والذهبية. طيلة تاريخ البشر كله تقريبًا، كانت الشخوص الهابطة من السماء ملائكة أو آلهة أو شياطين... أو إيكاروس هاويًا صوبَ الأرض، ومن خلفه والده دايدالوس يلحق به، لكن بحركة أبطأ من أن تُمكّنه من الإمساك بذلك الصبي الطائش المغرور. كيف يكون ذلك الإحساس بأن يسكنَ المرء تجربة مشتركة بين البشر جميعًا... العيون كلها في اتجاه السماء تراقب هبوطَ شيء أسطوري؟ التقطت صورة للمظليين فأرسلتها إلى أختها وكتبت لها: هل جرّبت هذا ذات يوم؟ ثم خرجت من السرير متسائلة إن كان الربيع قد حل مبكرًا أو أن هذه فترة هدوء فحسب.

خلال الليل، ارتفعت درجة الحرارة ارتفاعًا سريعًا فذابَ الثلج وانسابَ إلى النهر. عندما استيقظت أول مرة من أجل صلاة الفجر، سمعت كيف انزلقَ الثلج مسرعًا في الشارع المنحدر قليلًا. لقد كان شتاءً كله عواصف ثلجية، أكثر من المعتاد، هكذا قالوا لها. وبينما كانت ترتدي ملابسَها، راحت تتخيل الناسَ يخرجون من بيوتهم ويجدون أشياءَ مفقودة على بقع الأرض التي تعرّت من الثلج لأول مرة منذ شهور: قفازٌ، ومفاتيح، وأقلام، ونقود معدنية. اعتصر ثقل الثلج الإلفةَ من تلك الأشياء فصار القفّاز المستقر إلى جانب رفيقه يبدو مجرد واحد من أقاربه الأباعد، لا أكثر! فماذا يفعل المرء عند ذلك؟ هل يرمي القفازَيْن؟ أم يرتدي قفازين يبدوان مختلفين لكي يؤكد على أعجوبة اجتماعهما من جديد؟

طوت بيجامتها، ثم وضعتها تحت الوسادة، وسوّت اللحاف فوق السرير. نظرت إلى المحتويات القليلة في شقتها النظيفة: سرير فردي، وطاولة مكتب، وكرسي له مسند للكتابة، وصندوق دروج. ومثلما تحس أكثر الصباحات، أحست بمسرّة عميقة في تلك الحياة اليومية المقتصرة على الأساسيات: كتب، وممرات، ومساحات يمكنها فيها أن تفكر وتعمل.

عندما دفعت الباب الثقيل في ذلك البيت المكوَّن من طابقين، المكسو بالحجر، وجدت هواء الصباح مجردًا من أنصال سكاكينه للمرة الأولى. وكان ذوبان الثلج قد زاد مساحة الشوارع والأرصفة فأحست بـ... ما هي تلك الكلمة؟... بانعدام الحدود! أحست بهذا عندما خرجت سائرة بخطوات غير قلقة من احتمال الانزلاق على الجليد. مرت ببيوت من طابقين على طراز الحقبة بعد الاستعمارية، ومرت بسيارات تعرض مختلف أنواع الآراء السياسية عبر ملصقات عليها، ومرت بأشخاص في ملابس عتيقة الزي، ومرت بمتاجر الأنتيكات وصالات اليوغا. انعطفت في ماين ستريت حيث تقع صالة المدينة بأبراجها النورماندية التي لا تفسير لها وقد أُقحِمت عليها نوافذ على شكل شقوق ضيقة أضفت على المشهد نكهة مرحة.

يمّمت وجهها شطر مقهاها المفضل، ثم حملت فنجانها ونزلت تلك الدرجات المفضية إلى صالة القبو ذات الجدران التي اصطفت عليها الكتب: ملاذ من ضوء المصابيح الدافئ والكراسي العتيقة والقهوة القوية. نقرت على لوحة المفاتيح حتى توقظ كمبيوترها المحمول، ثم سجلت دخولها إليه من غير أن تحس بذلك تقريبًا لشدة الاعتياد، فظهرت صورة أمها عندما كانت شابة في عقد الثمانينيات بشعرها الطويل وقرطيْها الكبيرَيْن المتدلّيَيْن وهي تطبع قبلةً على رأس عصمة الرضيعة. وكنوع من الروتين الصباحي، فتحت نافذة سكايب لترى إن

كانت أختها على الخط. لم تكن هناك، لكنها رأت اسمًا جديدًا يظهر في قائمة أسماء من هم على الخط. برويز باشا.

رفعت عصمة يديها عن لوحة المفاتيح ووضعتهما على جانبَيْ الجهاز. ثم نظرت إلى اسم أخيها. لم ترَ هذا الاسم هنا منذ ذلك اليوم في كانون الأول عندما اتصل بهما ليخبرهما بقراره الذي اتخذه من غير أي اعتبار بما سيعنيه ذلك القرار لأختيه. لا بد أنه ينظر إلى اسمها الآن لأن العلامة الخضراء الظاهرة إلى جانبه تخبره بأنها على الخط وبأن الحديث معها ممكن. كانت نافذة سكايب الظاهرة على الشاشة في وضع جعل شفتي أمها تلامسانها. وكانت قسمات وجه زينب باشا الرشيقة الجميلة قد تخطت عصمة ووصلت إلى التوأمين اللذين يضحكان بفمَيْن مثل فم أمهما ويبتسمان بعينين مثل عينيها. كبّرت عصمة نافذة سكايب حتى ملأت الشاشة كلها، ثم طوقت عنقها بكفيّها وأحست ردةَ فعل قلبها على رؤية اسمه، أحستها عبر اندفاع الدم سريعًا في شرايينها كلها. مرت الثواني، ولم يأت منه شيء. ظلت تنظر إلى الشاشة عارفةً أنه ينظر إلى شاشته أيضًا... كلاهما ينظر إلى الشاشة للسبب نفسه، وينتظران أختَهما أنيقة.

في شقة هيرا شاه الصغيرة، قبل أسابيع قليلة، قاطعت موسيقى غريبة صوتَ سكين هيرا وهي تُقطّع حبات البطاطا إلى شرائح: صوت صفير جميل مرتفع النغمة. تحققت عصمة وهيرا من هاتفيْهما ومن مكبرات الصوت، ووضعت كل منهما أذنَها على الجدران وعلى ألواح الأرضية، ثم خرجتا إلى الممر واستكشفتا الخزائن ودخلتا الغرف الفارغة، لكن الصوت ظل مستمرًا... صوتٌ حلو غريب يستحيل ربطه بأية أداة موسيقية معروفة، ولا يمكن أن يكون صوت طائر أو بشر. خرج واحدٌ من الجيران باحثًا عن مصدر الصوت. قال وهو يغمز بعينه قبل أن يذهب: «أشباح!»

ضحكت عصمة، لكن كتفَيْ هيرا توَتَّرتا، ثم مدت يدها لتلمس العين الشريرة المعلقة على جدران بيت شقتها، تلك العين التي كانت عصمة تفترض دائمًا أنها معلقة كنوع من الزينة فحسب.

استمرت الموسيقى آتية من كل مكان ومن لا مكان. كانت تتبعهما كيفما تحركتا في الشقة. التقطت هيرا سكينها وهي تتمتم بشيء ما، شيء اتضح أنه أدعية... لقد تلقت تعليمها في مدرسة من المدارس الدينية في كشمير. أخيرًا، قالت الدكتورة هيرا شاه، العقلانية إلى حد فائق، ذات الذهن الحاد كنصل سكين، إن عليهما أن تذهبا لتناول العشاء في الخارج على الرغم من البَرَد المزعج. لعل الصوت يكون قد توقف عندما تعودان إلى البيت. صعدت عصمة إلى الحمام في الطابق الثاني حتى تغسل غبار الزوايا المخفية عن يديها. وبينما كانت واقفة عند المغسلة، نظرت إلى الخارج عبر النافذة التي إلى جانبها فرأت مصدر تلك الموسيقى.

جرت نازلة إلى الأسفل وأمسكت بذراع هيرا، ثم شدتها إلى الخارج عبر الباب الخلفي. خرجت خافضةً رأسها تحت وابل البَرَد. على امتداد البناء ذي القرميد الأحمر، من أوله إلى آخره، تدلت أصابع الجليد من الأفاريز. كان طول الواحد منها قَدمًا، أو أكثر. وعلى هذه السيوف، كانت حبات البرد تتساقط عازفةً تلك الموسيقى. إنه صوت الجليد على الجليد... شيءٌ لا يمكن للمرء أن يتخيله إلى أن يعيشه.

داهمها الألم عند ذلك؛ ألمٌ جسديٌ جعلها تَسقط على ركبتيها. أتت هيرا في اتجاهها، لكن عصمة رفعت يدَها لتُوقفها، ثم استلقت على ظهرها في الثلج تاركةً الألمَ يسري فيها بينما واصلت حبات البرد وأصابع الجليد عزفَ سيمفونيتها المركبة. لو كان برويز هنا، لو كان هنا ذلك الصبي الذي لا يراه أحد أبدًا من غير المايكروفون ومن غير السماعات على أذنيه، لاستلقى على الثلج طالما ظلت هذه الأغنية مستمرة، ولتسللت رطوبة الثلج في ثيابه، ولظلت حبات البرد المنهمر

تصفعه، ولبقيَ غير مهتم بأي شيء غير التقاط ذلك الصوت الذي لم يسمعه من قبل، ولظلت عيناه متقدتين فرحًا.

كانت تلك المرة الأولى التي تشعر فيها باشتياق حقيقي لأخيها من غير تلك الصفات التي تتسلل فتخترق ألمَ فقدانَه... «عاقّ» و«أناني». أما الآن، فهي تنظر إلى اسمه الظاهر على الشاشة وتلك الصفات متجمعة صقيلة في عقلها وفمها ينطق بأدعيةً تتضرع حتى لا تدخل أنيقة سكايب في تلك اللحظة. على أنيقة أن تتعلم كيف تفكر فيه باعتباره ضاع إلى الأبد. من الممكن أن يفعلَ المرء هذا تجاه شخص يحبه... لقد تعلمت عصمة هذا الدرس في وقت مبكر عندما ماتت أمها. لكن الإنسان لا يستطيع تعلمه إلا إذا صار هنالك فراغٌ تام حيث كان ذلك الشخص الذي رحل.

اختفى اسمه من الشاشة. تلمست كتفيها، تلمست العضلات المتقلصة تحت جلدها. أطرقت برأسها وعرفت كيف يكون المرء من غير أسرته، كيف يكون من غير يد تواسي ألمه، غير يده. «سوف نكون على تواصل طيلة الوقت»؛ هكذا كانت كل منهما، هي وأنيقة، تقول للأخرى في الأسابيع التي سبقت سفرَها. لكن «التواصل» ليس بالشيء الذي تتيحه التكنولوجيا الحديثة. ومن غير تواصل، فقدت عصمة وأختها شيئًا شديد الأهمية بالنسبة لطريقتهما في أن تكونا معًا. لقد بدأ التواصلُ بينهما عن طريق اللمس: عندما كانت طفلة رضيعة، اعتادت أنيقة أن تحممها جدتَها وتطعمها وتغير حفاضاتها وتهدهدها حتى تنام، تساعدها في ذلك أختها ذات السنوات التسع، بينما يرضع برويز، توأمها الأضعف جسدًا، الأكثر اعتلالًا، ثدي أمه (لم يكن لديها حليب كافٍ لأكثر واحد منهما). كان يبكي إذا حاول أحد غير أمه الاهتمام به.

وعندما كبر التوأمان وشكلا كونَهما الخاص المنغلق على نفسه، صار ما تحتاجه أنيقة من عصمة أقل، ثم أقل؛ إلا أن علاقةَ التقارب الجسدي ظلت قائمة بينهما. كان برويز الشخص الذي تحدثه أنيقة

عن كل أحزانها ومخاوفها، لكنها تأتي إلى عصمة عندما تريد أن تعانق أحدًا، أو عندما تكون في حاجة إلى يدٍ تحكّ لها ظهرها أو جسد تتكوَّر على الأريكة إلى جانبه. وعندما كان عبء الكون يبدو لعصمة أعظمَ مما تستطيع احتماله، خاصة بعد وفاة جدتهما ثم أمهما خلال فترة لم تتجاوز سنة واحدة فتركتا عصمة مسؤولة عن رعاية طفلين في الثانية عشر من عمرهما، وعن إعالتهما، صارت أنيقة هي من تضع يديها على كتفي أختها وتدلكهما حتى يزول الألم.

تأففت عصمة محتجّةً على رثائها لنفسها، ثم أخرجت المقالة التي كانت تكتبها وعادت لتلجأ إلى العمل.

* * *

بحلول منتصف فترة بعد الظهر، ارتفعت الحرارة حتى صارت خمسين درجة فهرنهايت. يبدو لك هذا عندما تسمعه، وعندما تحسه، أكثر دفئًا بكثير من إحدى عشرة درجة مئوية. كانت نوبة جنون ربيعي قد أصابت الناس فأفرغت قبو المقهى تقريبًا. أمالت عصمة فنجان قهوة ما بعد الغداء في اتجاهها ومسّت سطح السائل بطرف إصبعها وفكرت في احتمال أن يكون من غير الجائز تسخين قهوتها في المايكروويف. كانت قد قررت المخاطرة بتحمّل هذا الحرَج عندما انفتحَ الباب فتسللت نفحةٌ من رائحة السجائر نازلة من منطقة التدخين في الخارج، ثم تبعها شاب فاجأها مظهره.

لم يكن مظهره مفاجئًا لأنه استثنائي: شعرٌ داكنٌ كثيف، وجلدٌ بلون الشاي مع الحليب، وقسمات وجهٍ حسنة الاتساق، وطولٌ معقول، وكتفان جميلان. قفوا فترة كافية عند زاوية أي شارع في ويمبلي، وسوف ترون نسخة من هذا كله، لكن من المستبعد أن يكون لتلك النسخة مظهرَ التميّز هذا. لا، ما كان مفاجئًا هو ملامح الشاب المألوفة إلى حد يثير في النفس إحساسًا غريبًا يشبه الغثيان.

في بيت عمها (ليس عمّها بالدم، ولا حتى بالمعنى العاطفي، بل نتيجة وجوده الطبيعي المعتاد في حياة أسرتها)، كانت هنالك صورة من السبعينيات يظهر فيها فريق الكريكيت في الحي متخذًا وضعيةَ التصوير مع كأس. كانت عصمة في صغرها تتوقف عند تلك الصورة أحيانًا لتنظر إليها مستغربةً ذلك التضاد بين أولئك الفتيان الواثقين المتألقين والرجال متوسطي العمر الذين تحولوا إليهم عندما كبروا، رجالٌ لا تجد فيهم العين شيئًا جذابًا أو مثيرًا. لكن أكثر انتباهها كان متجهًا إلى صور الشباب الذين عرفتهم في أواسط العمر، ولم تكن تُولي أيّ اهتمام خاص لذلك الشاب غير المبتسم صاحب الملابس الرياضية ذات المقاس الكبير عليه إلى أن جاء يومٌ وقفت فيه جدَّتها أمام الصورة وقالت «عديم الحياء!» وهي تشير بإصبعها إلى صورة الشاب نفسه.

أتى العم ليرى ما استدعى عبارةً مسمومة إلى هذا الحد: «أوه، نعم. إنه عضو البرلمان الجديد. كان الفريق في حاجة إلى لاعب في يوم المباراة النهائية. وكان 'السيد الجِدّيُّ' هنا في زيارة لابن عمه الذي هو حارس مرمانا. وهكذا قلنا له: لا بأس، العب معنا؛ ثم أعطيناهُ ملابسَ رياضية قديمة بالية. لم يفعل طيلةَ المباراة غير تضييع الكرات، ثم انتهى الأمر بأن وقفَ حاملًا الكأس في هذه الصورة الرسمية التي نشرتها الصحف المحلية. أردنا فقط أن نكون مهذّبين فعرضنا عليه حمل الكأس، ولأننا لم نتوقع منه إلا أن يكون لديه قدر من الأدب يجعله يقول لنا: شكرًا، لكن الكابتن أنا من كان كابتن الفريق هو من يجب أن يحملَ الكأس. كان علينا أن نعرف منذ ذلك الوقت أنه سيكبر وسيصير سياسيًا. من المؤكد أنه وضع هذه الصورة ضمن إطار وعلّقها على الجدار لكي يقول لكل الناس إنه كان بطل المباراة!»

في وقت لاحق من ذلك اليوم، سمعت عصمة جدّتَها تتحدث مع جارتها التي كانت أعزَّ صديقاتها، العمة نسيم، فعرفت السببَ الحقيقي

لعبارة «عديم الحياء!» التي قالتها. لم يكن ذلك بسبب اختيار ذلك الشاب غير المبتسم أن يعمل في المجال السياسي، لكن السببَ كان القسوة التي أظهرَها تجاه أسرتهم في الآونة الأخيرة حين كان من السهل عليه أن يتصرفَ بطريقة مختلفة. ظلت منتبهة إليه في السنوات التي تلت ذلك: الشخص الوحيد في الصورة الذي كبر وظل نحيلًا، حادًا، وظلت عيناه متعلقتين بكؤوس أكبر وأشد تألقًا. والآن، ها هو أمامها، يسير في المقهى... ليس الشخص موضع الكره/ الإعجاب الذي كبر فصاره، بل نسخة أكبرَ في السن قليلًا من ذلك الصبي الذي كانه عندما تصوَّر مع فريق الكريكيت... باستثناء شعره الذي صار الآن أكثرَ طراوةً وتعابير وجهه التي صارت أكثر انفتاحًا. لا بد أن هذا، بل يجب أن يكون هذا، هو الابن. لقد سبقت لها رؤية صورة تشتمل عليه أيضًا. لكنه كان خافضًا رأسَه بحيث انسدلَ شعره فشوَّش ملامحَه. وقد تساءلت، آنذاك، إن كان قد قصدَ إخفاءَ ملامحه. كان اسمه إيمون. وكم ضحكوا في ويمبلي عندما قرأوا هذا في المقالة الصحفية التي رافقت الصورة: اسمٌ يوحي بأنه إيرلندي... لتمويه اسمه المسلم. لقد تحول «أيمن» إلى «إيمون» حتى يرى الناس أن أباه قد اندمج في المجتمع (وكان يُنظَر إلى زوجته الإيرلندية/ الأميركية على أنها مؤشرٌ آخر على ذلك الموقف الاندماجي بدلًا من أن يكون أصلها تفسيرًا مقبولًا لاسم إيمون).

كان الابن واقفًا عند طاولة البيع في قبو المقهى. مرتديًا بنطلون جينز أزرق اللون وسترةً مبطنّة خضراء زيتونية. وقف هناك منتظرًا.

نهضت حاملةً فنجانَها في يدها، ثم سارت إليه: «إنهم لا يقدمون الطلبات على طاولة البيع هذه إلا عندما يكون المقهى مزدحمًا».

«أشكركِ. لطفٌ منكِ أن تقولي لي هذا. وأين يقدمونَها...» كانت مقاطع كلماته ناطقة بطبقته الاجتماعية من غير خجل في حين توقّعت

عصمة أن يستخدم لهجةَ لندن الأكثر تمويهًا من الناحية الطبقية، اللهجة التي يستخدمها والده!

«في الأعلى. سوف أريك أين. أعني... إنني واثقة من أنك تفهم معنى 'في الأعلى'. كان عليَّ القول إنني ذاهبة إلى الأعلى أيضًا. قهوتي باردة. أف... لماذا هذه الكلمات كلها؟

أخذ الفنجانَ من يدها بإلفَة غير متوقعة وقال لها: «اسمحي لي. بما أنك أنقذتني من أن أكون الإنكليزي الذي يقف عند طاولة البيع إلى الأبد. أي الشخص الذي لن تكوني مخطئة إذا خلطت بينه وبين الإنكليزي الذي يُضلّ سبيلَه في طريقه إلى الأعلى!»

«أريد أن أسخّنها فحسب».

«فليكن هذا». تشمّم محتويات الفنجان... حركةٌ أخرى شديدة الإلفة... «رائحتها مذهلة. ما هي؟ أنا لا أستطيع التمييز بين القهوة الأثيوبية والكولومبية ولو...» توقف عن الكلام، ثم قال: «لا تعرف هذه الجملة كيف ستنهي نفسَها بعد هذه النقطة».

«قد يكون الأمران سواء. إنها الخلطة الخاصة بالمقهى».

ظلت لحظةً واقفة مكانَها تنظر إليه صاعدًا درجات السلم الذي تتابعت على أحد جانبَيْ درجاته أصص زرع فيها نباتات السرخس، ومن الناحية الأخرى جدارٌ رسمت عليه نباتات السرخس أيضًا. عندما التفت إلى الأسفل، في اتجاهها، قائلًا «لم أضِعْ بعد»، تظاهرت أنها غارقة في أفكارها فحسب وعادت إلى الطاولة الصغيرة في التجويف الذي عند الجدار وجلست مائلةً بجسدها حتى يحجب ظلها أشعة الشمس عن شاشة كمبيوترها. مرت بأصابعها على سطح الطاولة الخشبي، على عُقَد الخشب وحروقه. بدأت تكتب في هاتفها: احزري من... ثم توقفت وحذفت ما كتبته. إنها قادرة على تخيل نبرة رد أختها: أوف! ستقول هذا، أو ستقول: لماذا تتكلمين معه أصلًا؟

لم يعد الشاب. تخيلَتْ أنه رأى صفًا قصيرًا من الناس المنتظرين عند طاولة البيع فرفع كتفيه ووضعَ فنجانها على الطاولة، ثم سار خارجًا عبر الباب الذي في الأعلى. جعلها هذا مرتاحة لأنها تخلصت منه، وجعلَها أيضًا خائبةً بعض الشيء. صعدت لتشتري فنجان قهوة آخر فوجدت أن آلةَ القهوة قد تعطلت. وهكذا كان عليها أن تكتفي بفنجان من الماء الحار مع كيس من الشاي يتسرب لونه إلى ذلك الماء. عادت إلى الأسفل فرأت على طاولتها فنجانًا جديدًا من القهوة ورجلًا ملتفًا على نفسه في الكرسي الذي إلى جانبها. كان محتضنًا ساقيه بذراعيه وهو يقرأ في كتاب كأنه جالسٌ في كهف تحت رف الكتب الذي فوق رأسه.

قال لها وهو ينظر إلى فنجان الشاي الذي وضعته على الطاولة الفارغة: «ما هو؟» نظرَ إلى قطعة الورق المقوّى الصغيرة التي في نهاية كيس الشاي... «روبي رِد! لا يبدو حتى أنَّ له نكهة ما».

أمسكت بالفنجان كأنها تشكره. لم تكن القهوة حارّةً بقدر ما توقّعت؛ لكن من المؤكد أنه جاء بها من مكان في الشارع بعيدٍ بعض الشيء... «بكم أنا مدينة لك؟»

«بخمس دقائق من الحديث. إنه الوقت الذي أمضيته في صف الانتظار. لكن... بعد أن تنتهي مما تفعلينه الآن».

«سوف يستغرق هذا زمنًا».

«جيد. هذا يتيح لي وقتًا من أجل التقدم قليلًا في قراءة هذه المادة الهامة عن...» أغلق الكتاب الذي في يده ثم نظر إلى غلافه... «الكتاب المقدس لأسرار النساء. في مجلد واحد متكامل. الساحرات النسويات، وطقوس الربّات، وإلقاء السحر، وبقية الفنون النسائية».

رفع أحد طلاب الجامعة رأسَه عن طاولته وحدّق فيهما.

وضعت عصمة كمبيوترها المحمول في حقيبة الظهر، وشربت ما بقي في فنجانها. قالت له: «يمكنك أن تسير معي إلى السوبر ماركت».

عرفت منه خلال مسيرتهما القصيرة إلى السوبر ماركت أنه ترك عمله في شركة للاستشارات إدارية، وأنه قرر قضاء بعض الوقت في عيش حياته خارج جدران المكاتب. وهذا يشتمل على قيامه بزيارة جده وجدته لأمه في أمهرست، المدينة التي يحبها لارتباطها بذكريات العطلات الصيفية عندما كان طفلًا.

وبينما كانت تحاول الاختيارَ بين نوع من الطماطم التي لم تقنعها ونوعٌ آخر من أجل صلصة الباستا لتلك الليلة، تجوّل إيمون في المكان ثم عاد حاملًا علبةً من الطماطم البَلَحية وعبوةً من أوراق خضراء للسلطة التي لم تكن تعتزم إعدادَها.

قال لها مشدّدًا بفخامة على حرف الراء: «إنها آرّوغولا... شيءٌ في منتصف المسافة بين رقصة أميركية لاتينية ومرهم لثآليل القدمين». لم تستطع تقرير إن كان يحاول إثارةَ إعجابها أو أنه من ذلك النوع من الرجال الواقعين في حب سحر شخصيتهم. عندما انتهت من وضع مشترياتها في حقيبتها الظهرية، رفعها عن طاولة المحاسبة وعلقها على كتفه قائلًا إن هذا يعجبه لأنه يذكره بالمدرسة، فهل تمانع في حمله إياها بعض الوقت؟

ظنت أنه يستعرض تلك الكياسة المهذبة التي يعتبرها الناس من أمثاله نوعًا من الفضيلة. إلا أنه أجابها عندما قالت إن ما من حاجة إلى تلك الفروسية كلها بأن ليس من الفروسية في شيء أن يُثقل بصحبته على امرأة لمجرد أنه يحسّ نفسَه وحيدًا ولمجرد أن سماعَ اللهجة اللندنية أفضلَ ترياق ممكن لوحدته تلك. وهكذا تابعا السير معًا متجهَيْن صوبَ الغابة القريبة لأن طقس ذلك اليوم كان بهيجًا جدًا. وأثناء سَيرهما، سألها إن كان من الممكن أن ينعطفا في ماينستريت[1] (قال ذلك الاسم بنوع من

---

(1) (Main street) أي «الشارع الرئيسي»، لكنه اسم ذلك الشارع في بلدة أمهرست الصغيرة.

الانتقاص والاستهجان اللذين يمكن أن يحسَّهما شخصٌ وصل حديثًا من إحدى العواصم الكبرى)، وذلك حتى يتوقفا عند متجر للملابس الرياضية. وخلال فترة لا تتجاوز إلا قليلًا ما احتاجته من زمن حتى تجتاز الشارع وتسحب عشرين دولارًا من آلة الصرافة كان قد خرج من ذلك المحل مرتديًا حذاء مشي غالي الثمن؛ وبدت لها حقيبتها الآن أكثر وزنًا مما كانت.

كانت طرق الغابة مغطاة بثلج هش. لكن الضوء الذي يخترق غصون الأشجار كان متعة حقيقية، وكذلك النهر المزمجر الذي فاض بالثلج الذائب. رفع كل منهما ياقته حتى يتقي القطرات المتساقطة من تلك الأغصان؛ ولم يبدُ عليه أي حرج في الصراخ بصوت كالعواء كلما سقطت على رأسه قطرة ماء باردة ثقيلة. علّق إيمون بمرح على الحماية الأنيقة التي يوفّرها غطاء رأسها الصوف، ودعاها باسم غريتا غاربو.[1] ومن وقت لآخر، كانا يسمعان صوت هووب... سقوط كتلة ثلج على الأرض، لكن مواصلة السير بدت آمنة تمامًا. كانا يتحدثان عن أشياء عادية لا أهمية لها: الطقس، والود الزائد الذي يبديه الأشخاص الغرباء في أميركا، وخطوط باصات لندن المفضلة لدى كل منهما (لم يكشف هذا لأي منهما عن شيء أكثر من المنطقة الجغرافية في ما يخصّ حياتيهما). رغم هذا، كان الطابع الإنجليزي لفكاهاته، وما فيها من إشارات منتمية إلى الثقافة الإنجليزية، هدية جميلة أكثر مما توقعت. كانت هذه الأحاديث الصغيرة تجري على لسانه بطريقة طبيعية أكثر من جريانها على لسانها، لكنه كان حريصًا على عدم الهيمنة على الحديث كله: كان يصغي مهتمًا إلى كل ما تقوله، ثم يطرح أسئلة كنوع من المتابعة من غير أن يستخدم عباراتها منطلقًا إلى مونولوجاته الخاصة به مثلما

(1) (1905 – 1990) ممثلة سينمائية أميركية سويدية الأصل.

يفعل أكثر الرجال الذين تعرفهم. لقد ربّاه أحد ما مثلما حاولت أن أُربّي برويز؛ لم تستطع منع نفسها من التفكير هكذا.

فوق رقعة هادئة من المياه، استلقت شجرة وقعت ممتدة لأكثر من عشرين قدمًا من الضفة. سارت عصمة على جذعها فاتحة ذراعيها لكي تحفظ توازنها، بينما ظل واقفًا يطلق صيحات صغيرة فيها شيء من القلق وشيء من الإعجاب... صيحات سَرَّها أن تسمعها. كانت زرقة السماء غنية، وكان خرير الماء الجاري أشبه بدم متدفق من قلب... وشاب رشيق آت من عالم شديد الاختلاف عن عالمها واقف يراقبها منتظرًا عودتها إليه. تنفست بعمق في تلك اللحظة وحاولت أن ترى انعكاس صورتها على صفحة الماء، لكن الماء كان يجري سريعًا، ماء مختلف تمامًا عن مياه القنوات اللندنية بطيئة الحركة التي ألفت رؤيتها.

إنها من مدينة تتخللها قنوات ماء كثيرة: كان ذلك متعتها خلال مراهقتها عندما كان كل واحد وكل واحدة من زملائها في المدرسة منطلقًا في أنواع أخرى من الاكتشافات التي كانت تنفر منها ولا تجد فيها أي متعة. وفي ألبرتون، على مسافة ميلين من بيتها القديم، كانت قادرة على النزول إلى حواف تلك الطرق المائية الهادئة الخالية من الناس إذا ما قورنت بالشوارع المزدحمة الضاجة التي كانت تجتازها حتى تصل إلى هذه الأماكن. وكانت تعرف أن أمها وجدتها ستقولان إنها أماكن خطرة... فتاة تسير وحدها مارة بمنشآت صناعية، تعبر مناطق صامتة لا رفيق لها فيها غير أوراق الأشجار، كما لو أنها في الريف (ما كان هنالك، في نظر أسرتها، شيء أكثر خطرًا من الريف حيث يمكن للمرء أن يصرخ طالبًا النجدة من غير أن يسمعه أحد). وهكذا لم تكن تقول لهما أي شيء أكثر تحديدًا من: «إنني خارجة لأسير قليلًا»... عبارة كانت المرأتان تجدانها ظريفة وغير موحية بأي خطر.

انزلقت قدمها على سطح الجذع الصقيل فاضطرت إلى النزول على

ركبتيها حتى لا تسقط في الماء. تناثر رشاش الماء البارد على يديها وكمَّيْها. سارت بحذر عائدة وقد لاحظت القلق الظاهر في تعابير وجه إيمون.

وبعد ذلك، صار يطرح أسئلة أكثر مباشرة عن حياتها وكأن رؤيتها تسير مبتعدة عنه على جذع شجرة قد جعله أكثر انتباهًا إليها. قدمت إليه النسخة الأكثر سهولة: ترعرعت في شمال لندن؛ وهذا ما كان قد عرفه بعد حديثهما عن خطوط الباصات... وبدقة أكبر، في حي بريستون رود الذي كان من الواضح أنه لا يعرف أين يقع بالضبط. لها شقيق وشقيقة أصغر منها بكثير. ربتها أمها وجدتها، وهما متوفيتان الآن؛ ولم تعرف أباها معرفة حقيقية على الإطلاق. إنها هنا من أجل برنامج دراسة الدكتوراه؛ المموَّل بالكامل، كما تتلقى راتبًا لقاء عملها باحثة مساعدة مما يوفر لها ما يكفي للعيش. لقد قدِمت للالتحاق بهذا البرنامج الدراسي متأخرة كثيرًا عن موعد الفصل الذي يبدأ في الخريف. لكن مشرفتها السابقة، د. شاه، تمكنت من ترتيب قبولها بحيث تبدأ الدراسة في شهر كانون الثاني، وها هي الآن هنا.

«وهكذا فإنك تفعلين ما أردتِ فعله! كم أنت محظوظة!»

قالت: «أجل، أنا محظوظة جدًا». ثم تساءلت في نفسها إن كان عليها أن تستجيب لأسئلته عن حياتها ببعض الأسئلة عن حياته. لكن من الممكن عند ذلك أن يتطرق إلى ذكر أبيه الذي لا يمكنها التظاهر بأنها لا تعرفه. وقد يأخذهما ذلك في مسارٍ ما كانت تريد الذهاب فيه.

صار النهر قاتمًا الآن: الإشارة الأولى إلى أن النهار شارف على الانتهاء رغم أن ضياء الشمس في السماء لا يزال وافرًا تمامًا. تقدمته في طريق العودة إلى الشارع الذي أدى بهما إلى مكان قرب المدرسة الثانوية حيث كان مراهقون طويلو الأذرع والسيقان يمارسون رياضية الجري على مضمار الملعب الخارجي؛ وكانت كومات من الثلج الموحل قد أزيحت حتى زوايا الملعب.

قال لها: «هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟ غطاء الرأس... هل ترتدينه كنوع من الأناقة أم لأنك مسلمة؟»

«هل تعرف أن الشخصين الوحيدين في ماساشوستس اللذين سألاني عنه كانا يريدان معرفة إن كانت من أجل الأناقة أم من أجل إخفاء آثار المعالجة الكيميائية من السرطان؟»

أجابها ضاحكًا: «السرطان أم الإسلام... أيهما بليّة أكبر؟»

كانت لا تزال هنالك لحظات يمكن لعبارة من هذا النوع أن تفاجئ المرء تمامًا. سرعان ما ضمَّ يديه بحركة اعتذار وقال لها: «يا إلهي! أعني... إنني آسف. لقد خرجت هذه الجملة مني بطريقة سيئة حقًا. كنت أقصد القول إن كون المرء مسلمًا في هذا العالم في زماننا هذا لا بد أن يكون أمرًا صعبًا».

ردّت: «أجد أن عدم كون المرء مسلمًا شيئًا أكثر صعوبة». ثم سارا صامتين بعد هذا، ولم يلبث صمتهما أن صار غير مريح أبدًا خلال الوقت الذي انقضى حتى وصولهما إلى ماين ستريت. كانت قد افترضت أنه يعتبر نفسه مسلمًا، مهما يكن علمانيًا ومهما يكن هذا الاعتبار سياسيًا أكثر منه دينيًا. لكن، أليس من الغباء افتراض هذا حين يتعلق بابن ذلك الرجل.

قالت له عندما اقتربا من المقهى: «لا بأس الآن... إلى اللقاء». ثم مدت يدها لتصافحه ولم تنتبه إلى أن حركتها تلك كانت رسمية على نحو غريب إلا بعد أن مدّت يدها.

«أشكرك على مرافقتي في هذه النزهة. ربما يصادف أحدنا الآخر مرة أخرى». قال هذا وهو يخرِج حذاءه من حقيبة الظهر خاصّتها ثم يدفع بها في اتجاه يدها الممدودة إليه كما لو أنها مدّتها لأخذ حقيبتها: لعله ظن أن النساء اللواتي يضعن غطاء الرأس باعتباره «شيئًا إسلاميًا» لا يستطعن مصافحة يد رجل. سارت عائدة إلى بيتها وهي تفكر في أن الحياة تكون

أكثر بهجة بكثير عندما يعيش المرء بين أشخاص أجانب لا يضطر لسماع كلماتهم التي بين السطور. لا يكون عليها في تلك الحالة إدراك أن عبارة «ربما يصادف أحدنا الآخر مرة أخرى» تعني في حقيقة الأمر «لا أعتزم تعمُّد رؤيتك من جديد».

* * *

اتصلت بها العمة نسيم، جارتهم التي حلت محل جدتهم بعد وفاتها وصارت أنيقة مقيمة معها الآن، لتقول لها إنها لا تريد إثارة قلقها، لكن... هل يمكنها أن تتفقد أحوال أنيقة؟ «إنها تنام خارج البيت مرات كثيرة هذه الأيام، وقد كنت أظنها تمضي الوقت مع صديقاتها. لكني رأيت جيتا قبل قليل فقالت لي إنها لم تعد ترى صديقاتها كثيرًا».

كانت جيتا التي تعيش في بريستون رود صلة الوصل بين بيت أنيقة والحياة الجامعية. إنها أكبر من التوأمين بسنة واحدة؛ وهي تعيش مع زوجة أبيها الجديدة التي لا تريد وجودها في بيتها. ولها غرفة في سكن الطلاب تحتفظ أنيقة بمفتاح احتياطي لها. إلا أن جيتا نفسها لا تستخدم تلك الغرفة أبدًا لأنها تعيش مع صديقها رغم عدم معرفة أحد من جيل الكبار بهذا الأمر.

عندما بدأت أنيقة تمضي الليل في غرفة جيتا، إما لأنها تظل في المكتبة أو لأنها تسهر مع أصدقاء لها إلى ما بعد توقف المترو عن العمل، فإن عصمة لم تكن مسرورة بهذا أبدًا. هؤلاء الأولاد كلهم، في الجامعة، الأولاد الذين لا يعرف أحد أيّ شيء عن أسرهم... كما أن أنيقة، على العكس من عصمة، كانت دائمًا فتاة ينظر إليها الأولاد؛ وكانت فتاة تنظر إليهم أيضًا. بل كان هنالك شيء أسوأ من النظر لأن أنيقة حرصت دائمًا على إبقاء ذلك الجزء من حياتها محجوبًا عن أختها التي لعلها كانت شديدة الميل إلى إلقاء المحاضرات. كان برويز هو من كلّم عصمة فجعلها تقبل الأمر: إن كان هنالك أي شيء مثير للقلق يحدث مع أنيقة،

فسوف يعلم به، وسوف يخبر عصمة إذا وجد نفسه محتاجًا إلى مساندتها في الحديث مع شقيقته التوأم لإعادتها إلى رشدها. لكن، ما من حاجة إلى بدء معاناة الكوابيس بخصوص وجود أنيقة وحيدة في الخارج، في قلب لندن البارد الذي لا يكنّ مشاعر شخصية لأحد... لقد كانت تعرف دائمًا كيف تجد أشخاصًا يحرصون عليها. كانت هنالك جاذبية فورية في طباعها المتناقضة: سليطة اللسان، لكنها تراعي مشاعر الآخرين؛ جدية الذهن، لكنها قادرة على حماقات لا حدود لها، منفتحة على امتصاص ألم الآخرين بقدر ما هي غير قادرة على الاعتراف بضرر أن يكون المرء مهجورًا وأن يكون يتيمًا («لديّ أنت، ولَديَّ برويز. هذا يكفيني»). وفي حين كان برويز وعصمة يفضلان البقاء على هوامش المجموعات كلها حتى لا يبدأ أحد طرح أسئلة عن حياتيهما (من هو والدكم؟ وهل صحيح ما تقوله عنه تلك الشائعات؟)، كانت أنيقة تعرف كيف تضع نفسها، بكل بساطة، في وسط أيّ جماعة من الناس، وتعرف كيف ترسم حدودًا من حولها وكيف تصون المودّة بينها وبين الآخرين مع المحافظة على حُرمة المجالات التي لا تريد دخولها. كانت تعرف كيف تفعل هذا حتى عندما كانت فتاة صغيرة جدًا: يتناول أحدهم موضوع أبيها فتصير أنيقة باردة... حالة مثبطة تمامًا لمن اعتادوا دفئها بحيث يتراجعون سريعًا فتكافئهم بالعودة إلى دفء أنيقة التي يعرفونها. لكن برويز صار الآن منطقة لا تحب أنيقة الخوض فيها ولا تستطيع حصرها ضمن زاوية صغيرة في قلبها.

بعد مكالمتها مع العمة نسيم، اتصلت عصمة بأختها عدة مرات، إلا أنها لم تُجِبها إلا في وقت متأخر من الليل بحسب توقيت لندن. كان المصباح إلى جانب سريرها يلقي دائرة ضوء صغيرة تنير الكتاب المستقر على صدرها (قصص آستيريكس الفكاهية... كتاب مفضَّل لديها منذ طفولتها)، لكن دائرة الضوء تلك تركت وجهها في الظلام.

«إن لدى المهاجرين سيارة جديدة. سيارة BMW. سيارة BMW أمام

بيتنا. وماذا بعد هذا؟ مهر؟ آغا؟ خادمة أجنبية؟» عندما انتقل المستأجرون إلى هذا البيت الذي ترعرع الإخوة الثلاثة فيه وعلقوا الستائر المخرّمة وتلك الستائر الحاجبة للنظر التي من الواضح أنها غالية الثمن والتي كانت مسدلة طيلة الوقت تقريبًا، قالت أنيقة إنها تعاطفت للمرة الأولى من سكان الحي الذين يشعرون بنوع من الظلم عندما ينتقل مهاجرون إلى حيّهم. لقد ظل لقب «مهاجرون» عالقًا بهم رغم محاولات عصمة الحثيثة للتخلص منه.

قالت لها عصمة: «يفاجئني أنك لاحظت ذلك. تقول العمة نسيم إنها لا تكاد تراكِ. ولا تكاد صديقاتك في الجامعة ترينك أيضًا».

أجابتها أنيقة: «إن كانت العمة نسيم قد وجدت نفسها مضطرة إلى الشكوى، فلا بدّ أن سلوكي سيئ جدًا».

«إنها قلقة عليك. هذا كل ما في الأمر».

«أعرف هذا. وأنا آسفة. لا أريد إقلاقها. ولا أريد إقلاقكِ أنتِ أيضًا. كل ما في الأمر هو أن بقائي بمفردي صار أكثر سهولة هذه الأيام. وأنا أعرف الآن ما جعل الوحدة جذابة لك إلى هذا الحد».

«سوف أعود إلى البلاد. ستبدأ عطلة الربيع عما قريب. يمكننا قضاء أسبوع معًا، على الأقل». كانت فكرة العودة إلى لندن مرهقة لعصمة، لكنها منعت ذلك من الظهور في نبرة صوتها.

«تعرفين أنك غير قادرة على تحمل تكاليف السفر. ثم إنك لا تريدين المرور من جديد بذلك الاستجواب في المطار. ماذا تفعلين إذا لم يسمحوا لك بالسفر هذه المرة؟ أو إذا جعلوكِ تمضين وقتًا عصيبًا عند عودتك إلى بوسطن؟ كما أن لديَّ واجبات دراسية كثيرة يجب أن أعمل عليها. هذا هو السبب الأول في أن أحدًا لا يراني. إنني أعمل. دراسة القانون تجعلك تعملين كثيرًا. ليست مثل علم الاجتماع، حيث تجلسين وتتابعين التلفزيون ثم تعتبرين ذلك بحثًا».

«منذ متى تكذب إحدانا على الأخرى؟»

«منذ أن كنت في الرابعة عشر وقلت لكِ إنني ذاهبة لأشاهد برويز يلعب الكريكيت، لكني ذهبت لكي أقابل جيني سينغ في ماكدونالدز».

هل هو جيني سينغ من محل «أرض الجنيه لصاحبه جيني سينغ»؟

«أنيقة! هل عرف برويز بذلك؟»

«لقد عرف بالطبع. وهو يعرف دائمًا كل شيء أفعله».

ليلة اكتشفتا ما فعله برويز، سمحت أنيقة لعصمة بأن تفرد شعرها الأسود الطويل كما كانت تفعل أمهما عندما تكون إحدى بناتها في حاجة إلى مواساة، فمالت أنيقة إلى الخلف ودسّت نفسها في جسد أختها قائلة لها: «لم يسفر لي أبدًا عن السبب الذي جعله يمتنع عن إخباري بأمر بطاقات إسبن». بعد موت أمهما بشهور، قرر برويز الصبي الذي بلغ المراهقة فجأة في بيت تملأ الفواتير والأحزان كل شقّ فيه أنه في حاجة إلى كمبيوتر محمول له وحده حتى لا تقاطع أختاه عمله على مشاريعه الصوتية التي صارت هاجسًا عنده في الآونة الأخيرة. في إحدى الليالي، تسلل خارجًا من البيت بعد أن نام الجميع فاستقل الباص إلى قلب لندن حيث وقف حتى الصباح في صف الانتظار أمام أحد المسارح في وست إند في انتظار البطاقات المرتجَعة من أجل العرض الافتتاحي لمسرحية إسبن التي يشارك فيها ممثل اشتهر مؤخرًا من خلال قيامه بدور بطل خارق ودخل قائمة هوليوود الأولى، ثم أراد أن يعيد اعتباره بصفته ممثلًا مسرحيًا جادًا. اشترى بطاقتين بمال «استعاره» من حساب مصروف البيت مستخدمًا بطاقة عصمة الائتمانية، ثم باع البطاقتين سريعًا بمبلغ خيالي. وبعد هذا، أعلن عليهما النبأ واقفًا في البيت كأنه بطل فاتح، لكن شقيقتيه واجهتاه بغضبهما الشديد. كان غضب عصمة نابعًا من تفكيرها في ساعات العمل الإضافية التي كانت مضطرة إليها حتى تُبقي محصّل الديون بعيدًا عن باب بيتهم، وكذلك من فكرة الأهوال التي يمكن أن تقع على صبي شاب في عالم من العنصريين

ومن المنحرفين الذين لديهم ميول جنسية تجاه الأطفال. إلا أن غضب أنيقة كان أشد من بكثير. «لماذا لم تقل لي؟ إنني أخبرك بكل شيء... فكيف أمكنك ألّا تخبرني بهذا؟» اعتاد كل من برويز وعصمة أن تكون أنيقة عنصر الفصل بينهما، وكانا غير مستعدين على الإطلاق لهذه المفاجأة. وبعد ذلك بست سنين، كانت هذه الحكاية كل ما تمكنت أنيقة من الاستنجاد به لفهم الخدعة التي أقدم عليها شقيقها. لكن عصمة كانت لديها إجابة أكثر سهولة: إنه ابن أبيه! وهذا ضعف كامن في جيناته.

قالت عصمة: «الأولاد مختلفون عنا. إنهم يرون ما يريدون رؤيته من خلال عين لا ترى غير ما تنظر إليه مباشرة».

صارت الشاشة مشوشة، صارت كلها حركة وأشكال غريبة. استمر هذا بضع لحظات، ثم رأت أختها مستلقية في السرير وقد أدارت رأسها في اتجاه الهاتف الذي صار مستقرًا في حامله.

«إذا بدأت منذ الآن البحث عن رحلات رخيصة، فربما أستطيع القدوم إليك في عطلة عيد الفصح». قالت أنيقة هذا، لكن عصمة هزت رأسها بحزم قبل أن تتمكن أختها من إنهاء جملتها.

«ألا تريدين أن أخبر سعادين الأمن في مطار هيثرو كم تعجبني الألوان التي تختارها الملكة؟»

«لا، لا أريد هذا». تقلصت عضلات جسدها عندما تخيلت أنيقة في غرفة الاستجواب... «حقًا، ألا تريدين أن نتحدث عن ظهور برويز من جديد على سكايب؟»

«إذا تحدثنا عن برويز، فسوف نختلف ونتجادل. وأنا لا أريد المجادلة الآن».

«وأنا لا أريد المجادلة. لكني أود معرفة إن كنتِ قد تحدثتِ معه».

«بعث لي برسالة على سكايب يقول فيها إنه بخير. ألم تصلك رسالة مثلها؟»

«لا، لم يصلني شيء».

«أوه، يا عصمة. كنت واثقة من أنك تلقيتِ تلك الرسالة. لو عرفت، لما أخبرتك بها. نعم، هكذا تمامًا، إنه بخير. لا بد أنه افترض أنني سأخبرك فور معرفتي ذلك».

«يوحي هذا بأنه لا يزال يتذكر كيف يفكر بغيره».

«لا تقولي هذا، من فضلك. أعرف أن الغضب هو طريقة تعبيرك عن القلق، لكن... لا تقولي هذا».

ستقول لي في ليلة أخرى: الغضب هو طريقتي في التعبير عن غضبي؛ لكنها قالت هذه الليلة: «لقد اشتقت إليك».

أجابت أنيقة: «ظلي معي حتى أغفو»، ثم مدت يدها في اتجاه عصمة وهي تلتفت لكي تطفئ المصباح.

«كان يا ما كان... كانت هنالك بنت وصبي اسمهما أنيقة وبرويز. وكانت لديهما القدرة على الكلام مع الحيوانات».

ضحكت أنيقة، ثم قالت لأختها بصوت كتمته الوسادة قليلًا: «احكي لي حكاية النعامة».

نامت قبل أن تنتهي عصمة من قصة أيام الطفولة التي اخترعتها أمها من أجلها عندما كانت صغيرة، ثم حولتها عصمة على نحو يناسب التوأمين. إلا أنها تابعت القصة وهي تصغي إلى أنفاسهما تعلو وتهبط مثلما كانت تعلو وتهبط عندما تزحف أنيقة فتدخل فراش عصمة وقد أيقظها ذعر ليليّ ما وما عاد هنالك شيء قادر على تعليم قلب الصغيرة المضطرب كيف يهدأ غير أنفاس أختها الكبرى المستقرة؛ ثم تظلان هكذا حتى لا يعود هنالك صوت غير صوت أنفاسهما التي توحدت فيصير الكون كله هادئًا من حولهما.

– 2 –

تظاهرت طيلة فترة الصباح أنها لم تلاحظه جالسًا يحل الكلمات المتقاطعة على الناحية الأخرى من رصيف المقهى. لكنها طلبت سندويتشًا من أجل غدائها. وعندما أتوا بالسندويتش إلى طاولتها، جاء إليها وقال إنه على وشك تناول طعامه أيضًا، فهل يزعجها أن يجلس معها.

قال لها عندما عاد بعد دقائق قليلة حاملًا طبقًا من الباستا: «بريستون رود! بدا لي هذا الاسم مألوفًا عندما قلتِ إنك ترعرعتِ هناك؛ لكني لم أعرف السبب إلى أن بحثت عن تلك المنطقة في الخريطة. إنها في ويمبلي. تعيش أسرة أبي في مكان ما هناك. وقد كنت أزورهم في كل عيد».

قالت: «أوه، حقًا؟» لكنها اختارت عدم ذكر أي شيء عن أنها تعرف أين تعيش أسرة أبيه بالضبط، وأنها تعرف أيضًا (بدا لها أنه لا يعرف) أنهم انتقلوا من ذلك المكان وذهبوا إلى كندا.

«كانت هنالك أغنية يغنيها أبناء عمي لأختي الصغيرة عندما لا يكون الكبار موجودين. وقد ظلت جملة منها عالقة في رأسي طيلة هذه السنين كلها. يصيبني الجنون لأنني لا أستطيع تذكر بقية الأغنية؛ كما أن أختي لا تتذكر شيئًا منها أبدًا. فهل تعرفينها؟».

وعلى غير توقع، راح يغني أغنية باكستانية تعود إلى زمن سبق ولادته... اكتشفت أنه أصغر منها بأربع سنوات. عرفت الأغنية من لحنها أكثر مما عرفتها من الكلمات لأن كلماتها خرجت من فمه بربرة غير مفهومة تخالطها بضع كلمات بلغة الأوردو. غنّى مقطعين من تلك

الأغنية، غنّاهما بصوت منخفض وقد احمرّ وجهه... حياءٌ ما كان لها أن تتوقعه، بالنظر إلى حلاوة صوته خاصة. اختارت له أغنية من مكتبة الموسيقى في هاتفها، ثم راحت تنظر إليه وهو يضع سماعتيه في أذنيه... سماعتان باهظتا الثمن على نحو لا ريب فيه. لقد كان برويز راغبًا في مثلهما لنفسه. أصغى إيمون إلى الأغنية مغمضًا عينيه وقد ظهر على وجهه تعبير يوحي بأن تذكّره تلك الأغنية فاق سروره بها.

قال لها عندما فرغ من سماع الأغنية: «شكرًا لك! ما معنى ما تقوله هذه الأغنية؟»

«إنها تمتدح الفتيات ذوات الجلد الأشقر اللواتي ليس لهن أن يخشين في الحياة شيئًا لأن الجميع سيكون على الدوام معجَبًا بشقرتهنّ وزرقة عيونهن».

ضحك وقال: «أوه، نعم. عرفت هذا ذات مرة. كانوا يغنّون هذه الأغنية لإزعاج أختي؛ إلا أنها تعاملت معها باعتبارها مديحًا لها، بل جعلتها مديحًا لها. ولك أن تفهمي من هذا كيف هي أختي».

«وماذا عنك أنت؟ هل أنت هكذا أيضًا؟»

عبس وجهه قليلًا، وراح يحاول لف المعكرونة على شوكته. ثم قال بتلك الطريقة الاستنكارية لشخص لم يعتد أن يسأله أحد يوما عن شيء يخص طبعه الشخصي: «لا، لست أظن هذا...». رفع شوكته حتى وجهه وبدأ يسحب المعكرونة إلى فمه فتنطلق منها أصوات امتصاص خافتة... «أوه، إنني آسف. عادة ما أكون أكثر التزامًا بآداب الطعام».

«لا يزعجني هذا. هل تعرف شيئًا من لغة الأوردو».

هز رأسه نفيًا، فقد كانت هذه إجابة متوقَّعة بعد أن سمعته يغني تلك الأغنية. قالت له: «هذا يعني أنك لا تفهم كلمة بي تكلفي[1]»!

---

(1) (بي تكلفي) كلمة بلغة أوردو تعني «من غير إخفاء شيء» أو «من غير كلفة».

شد ظهره ورفع يده كأنه تلميذ مدرسة يريد الإجابة على سؤال. ثم قال: «أعرف هذه الكلمة. إنهم يستخدمونها للتبسط في الكلام... كتعبير عن الألفة».

عجبت لحظة قصيرة من ذلك الأب الذي لم يعلّم ابنه أساسيات الأوردو، لكنه فكر في تعليمه هذه الكلمة: «لن أقول إنها تشير إلى الألفة؛ بل هي تعني أن يشعر المرء بالراحة مع شخص آخر. أن يجد نفسه مرتاحًا إلى الحد الذي يسمح له بأن ينسى آداب الطعام. إذا فعل المرء هذا بطريقة صحيحة، فهو نوع من التكريم الذي تبديه للشخص الآخر عندما تحس نفسك قادرًا على أن تكون مرتاحًا معه إلى هذا الحد، وخاصة إذا لم يمضِ على معرفتك به زمنًا طويلًا». خرجت تلك الكلمات من فمها سريعة مندفعة كأنها تريد التغطية على ردة فعلها على كلمة «ألفة».

قال بطريقة من يعبر عن قبوله اقتراحًا ما: «لا بأس. فليكن كل منا مرتاحًا تجاه الآخر إلى حد يسمح بتجاوز آداب الطعام». دفع بطبقه في اتجاهها، فغمست طرف سندويتشها عميقًا في صلصة الباستا، ثم انحنت فوق طبقه حتى تقضمها.

وفي نهاية الغداء (غداء مضى مسترخيًا، ثم انقضى سريعًا)، نهض واقفًا وقال لها: «هل أراك هنا مرة أخرى في يوم من هذه الأيام؟ اكتشفت أن هذا المكان لديه أفضل كابوتشينو في المدينة عندما تكون آلة القهوة غير معطلة».

أجابت: «دروسي منحصرة في فترة ما بعد الظهر. وهذا هو المقهى المفضل عندي لقضاء صباحاتي». في حقيقة الأمر، كانت تذهب إلى مقهاها المفضل الثاني عندما تجد هذا المكان شديد الازدحام. لكن، ما الحاجة الآن إلى الخوض في هذه التفاصيل كلها؟

* * *

كان كل من الإخوة الثلاثة ينظر إلى الآخر، وكل منهم ينظر إلى نظرة الآخر إليه. هكذا أحست، على الأقل، رغم أن الاحتمال الأرجح هو أن انتباهها إلى التوأمين كان أكثر من انتباههما إليها. رفعت عينيها عن الشاشة لحظة قصيرة فرأت إيمون جالسًا على طاولة ليست قريبة جدًا منها وليست بعيدة جدًا عنها. كان غارقًا تمامًا في قراءة قصة في صحيفة محلية فلم يرفع عينيه عن الصفحة حتى عندما حمل فنجان قهوته إلى فمه ليرتشف منه. كان موجودًا في عالم مختلف تمام الاختلاف عن ذلك العالم الذي صارت تزوره الآن ثواني معدودة عند الساعة الحادية عشرة من كل صباح. كان شقيقها مخلوقًا صاحب عادات ثابتة دائمًا. وكان هذا شيئًا يُشكر عليه لأن من الممكن أن تمضي كل يوم ساعات جالسة على هذا النحو لو كان شخصًا مختلفًا: النظر إلى أنيقة وهي تنتظر ظهور برويز على الخط، ثم تساؤل عصمة لحظة ظهور الشارة الخضراء إلى جانب اسمه: ما يقوله لها هو أنه... سيقول لها شيئًا سوف يزعجها لأنه يطلب منها أن تكون جزءًا من الجنون الذي انضم إليه. أوه، لا، لن يفعل هذا... لكن، لماذا لا يستطيع أن يتركها وشأنها؟ لكن ما كان يحدث كل يوم، هو انقضاء ثواني قليلة فقط قبل اختفاء اسمه مجددًا من قائمة أسماء الأشخاص الذين على الخط. وبعد ذلك مباشرة، تكتب أنيقة لعصمة رسالة تقول فيها: «لقد ظهر على الخط!» كانتا تستخدمان هذا التعبير فتقوله الواحدة منهما إلى الأخرى عندما تكون هنالك رحلة مدرسية أو أمر يستدعي افتراقهما بسبب المبيت في مكان آخر... وفي ساعة متفق عليها، تأتي رسالة لتقول كلمتين فقط «على الخط».

عندما غاب برويز عن الخط، ثم تبعته أنيقة بعد قليل، شعرت عصمة أن أعباء النهار قد انزاحت عن كاهليها فأرسلت عبر الغرفة صورة فنجان قهوة حار إلى إيمون الذي استجاب إلى ذلك بأن صعد إلى الأعلى فاشترى فنجانين من القهوة الطازجة. كان هذا قد صار بدوره جزءًا من

روتين الصباح المعتاد خلال الأسبوعين الأخيرين، أو نحو ذلك... فلماذا التظاهر بأنها لم تكن تحصي تلك الأيام؟ مرت الآن تسعة أيام منذ قراره بأن يتخليا عن الرسميات فيصيرا أكثر ألفة. سألته عندما عاد وجلس إلى الناحية الأخرى من طاولتها:

«ما أخبار العالم اليوم؟»

فأمطرها بمختصرات سريعة عن الأخبار المحلية التي قرأها في صحيفة الصباح: «خبر عن دب وجدوه يحاول اقتحام موقف سيارات؛ وتوقف قصير في حركة السير في بلدة قريبة نتيجة تصادم ثلاث سيارات لم تقع فيه أية إصابات؛ وخبر عن فقدان تمثال لرونالد ماكدونالد[1] من حديقة إحدى العائلات». فقالت إنه من الواضح تمامًا أن خبر رونالد هو الفائز بالميدالية الذهبية للخبر «الأكثر محلية» من بين تلك الأخبار المحلية كلها. لكنه عارض استنتاجها مستندًا إلى أن شخصية رونالد كانت أيقونة عالمية.

وفي كل يوم، بعد لقائهما عند الساعة الحادية عشرة، كان ينطلق حتى «يتجول» على قدميه أو بالسيارة كأنه كريستوفر كولومبوس ذو طموحات متواضعة يتتبع سبل أيام طفولته ويكتشف سبلًا جديدة. وفي بعض الأحيان، كان يعود إلى المقهى صبيحة اليوم التالي حاملًا هدية من رحلته. إبريق من شراب القيقب اشتراه من مكان ما، أو ورقة نقدية من فئة دولار واحد وجدها مثبتة بمسمار إلى جذع شجرة بلوط وقد اقتطعت منها مساحة على شكل ورقة تلك الشجرة، أو صورة مطبوعة على الورق لشاهدة قبر إيملي ديكنسون[2] عليها تلك الكلمتان

---

(1) (رونالد ماكدونالد) شخصية على صورة مهرج تستخدمها سلسلة مطاعم ماكدونالدز أيقونة جالبة للحظ.

(2) إيملي ديكنسون (1830 – 1886)؛ شاعرة أميركية من بلدة أمهرست.

الغريبتان... «تم استرجاعها»... اللتين قال إنهما تجعلان ديكنسون تبدو كأنها سلعة معطوبة. عرفتْ مزيدًا من الأشياء عن ذلك الجزء من العالم الذي تعيش فيه عن طريق ما كان يخبرها به أكثر مما عرفت من خلال عيشها هناك. لكنها كانت تسأل عن الغاية من هذا كله (وتتخيل أنه يريد أن يؤلف كتاب رحلات)، كان يجيبها إن عيش الأشياء ومراقبتها سببان كافيان تمامًا لتفسير ما يفعله. سألته عما يحدث عندما تنفذ مدخراته فقال لها إن المدخرات التي أشار إليها فيما مضى كانت مدخرات أمه في واقع الأمر: لقد تقاعدت في الآونة الأخيرة تقاعدًا جزئيًا ورأت أن الناس يعطون عملهم أكثر مما ينبغي إعطاؤه لأن ذلك يكون على حساب حياتهم وعلاقاتهم. وفي حين لم تكن هنالك أية إمكانية لإقناع ابنتها بالتخلي عن العمل سبع عشرة ساعة كل يوم، تمكنت بسهولة من إقناع ابنها بمحاولة العثور على سبل أخرى لإنشاء المعنى في حياته بدلًا من انحصار معناها في شيكات الراتب الشهري وفي الترقيات الوظيفية. وجدت عصمة هذه الفكرة مغرية؛ ووجدت سَير إيمون وفقًا لها من غير حماسة كبيرة أمرًا محبطًا. من المؤكد أن عليه أن يتعلم لغة جديدة أو أن يبحر في قارب عبر مياه يجتازها اللاجئون الباحثين عن الأمان لكن قواربهم البائسة تنقلب بهم وتغرق.

في الأيام القليلة الأولى، كانت تظن أنه قد يقترح عليها أن يفعلا شيئًا بعد لقاء الساعة الحادية عشرة... حضور فيلم سينما، أو تناول وجبة غداء، أو نزهة أخرى... لكنها صارت تدرك الآن أنها ليست أكثر من جزء من طريقته في تقسيم أوقات يومه الذي كانت له «روتينية» بدلًا من التركيز على المحتوى. فبين «صحيفة الصباح» و«التجول اليومي»، كان هنالك فاصل اسمه «قهوة مع عصمة». بل إن حقيقة كون الربيع قد بدأ وأنها أوضحت له أن لديها وقت حر لم تغير في الأمر شيئًا.

غالبًا ما كان أبوه واحدًا من مواضيع حديثهما خلال تناول القهوة،

لكنه كان «أبي» دائمًا، ولم يكن شخصية عامة على الإطلاق. وكانت الصورة التي رسمها له إيمون، صورة الأب المتفاني الحنون الذي يحب المزاح، مختلفة تمامًا عن صورة ذلك الرجل المحفوظة في عقل عصمة إلى حد جعلها تتساءل أحيانًا إن كان الأمر كله قصصًا مختلقة لتمويه حقيقة ذلك الأب. لكنها سرعان ما تنتبه إلى طبيعة إيمون المنطلق على سجيته وتدرك أن ما فكرت فيه ليس حقيقيًا.

تأخر إيمون في الوصول إلى المقهى ذات صباح. ظنت أن تأخره كان بسبب الطقس... لقد عاد الشتاء. تناثر الثلج على ألواح النوافذ الزجاجية، وصارت السماء بيضاء، وصارت السيارات تلفت نظر رجال الشرطة إلى أنها تجاوزت زمن الوقوف المحدد بساعتين من خلال سماكة الثلج المتراكم على سقوفها. وبعد أن تجاوزت عصمة التشتت الناتج عن غيابه وتركت نفسها تغرق في معالجة مشكلة نقص بعض المتغيرات في الموضوع الإحصائي الذي كانت تدرسه، أتتها رسالة من أنيقة:

هل سمعت الخبر؟ صار الذئب المتوحّد وزيرًا للداخلية.

لا بد أنها قالت شيئًا ما بصوت مرتفع لأن المرأة التي إلى جوارها سألتها: «هل أنت بخير؟» لكنها كانت في تلك اللحظة قد راحت تبحث في قائمة الوصلات المفضلة في متصفّح الإنترنت وتفتح موقعًا إخباريًا رأت فيه «خبرًا عاجلًا» يعلن عن تغيير وزاري أهم ما فيه تعيين وزير داخلية جديد. ها هي صورة ذلك الرجل الذي كانت عصمة تظن أن إيمون يشبهه كثيرًا قبل أن تمضي معه عددًا من الصباحات كان كافيًا لجعلها تلاحظ الاختلافات في وجهه وطبعه. كانت المقالة المرافقة تصف الوزير المعيَّن حديثًا بأنه رجل «من خلفية مسلمة»، وهو الشيء الذي يُقال عنه دائمًا كما لو أن كونه مسلمًا ليس أكثر من شيء أفلح في الابتعاد عنه بكل جرأة. وكان من المؤكد أن تمضي الجملة بعد ذلك إلى استخدام عبارة «متشدد في القضايا الأمنية».

أحست بالغثيان قبل أن تتمكن من صياغة الأفكار التي تجعلها تدرك السبب. اهتزّ هاتفها، فنظرت إليه لترى سلسلة رسائل قد وصلتها.

سوف يزداد الأمر كله سوءًا.

عليه إثبات أنه واحد منهم، وليس واحدًا منا.

كأنه لم يصبح واحد منهم أصلًا!

إنني أكره هذا البلد.

لا تتصلي بي لأنني سأقول أشياء لا ينبغي لي قولها.

كُفَّ عن التجسس على رسائلنا أيها الأحمق التافه، وابحث عن مصرفيّ لكي تعتقله.

«مرحبًا يا غريتا غاربو! لماذا تبدين جادة هكذا؟»

جلس قبالتها ووضع إحدى ذراعيه على مسند الكرسي. جلس جلسة مسترخية على النقيض من والده الذي يشبه نابضًا مضغوطًا. أغلقت كمبيوترها المحمول، ثم أطفأت هاتفها.

قالت له: «لقد تأخرت».

قال لها مبتسمًا وهو ينحني إلى الأمام: «أخبار عائلية كبيرة»... ابنٌ معتز بأبيه. كانت الطاولة صغيرة إلى درجة جعلت ركبتاه تمسان ركبتيها... «جرى اليوم تعيين أبي وزيرًا جديدًا للداخلية. كارامات لون. أنت تعرفين من يكون، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها، ثم تناولت رشفة من فنجانها، فقط حتى تفعل شيئًا... «أظنك لست واحدة من الناس الذين يرون وجهي ويسمعون اسم عائلتي، ثم يستنتجون ذلك على الفور».

«ليس هذا الاسم قليل الشيوع في باكستان!» قالت في نفسها إن هذا تهرّبٌ أكثر منه كذبة.

«أعرف. لكني سعيد لأنني صرت آخر الأمر قادرًا على إخبارك. وأيضًا... هذا هو السبب الذي جعلني غير قادر على الإجابة على سؤالك عندما سألتني عن فترة بقائي هنا. أكره ذلك الكلام السيء الذي يُثار عنه كلما ورد اسمه في الأخبار؛ وسوف يكون الأمر أسوأ هذه المرة. لقد أتيت لكي أتجنب هذا كله. إنه ماهر في التعامل مع هذا الكلام، أما أنا فلست كذلك. ولهذا، إذا رأيتِني قلقًا فيما يتعلق بالأشياء التي تقال عبر الإنترنت، فعليك أن تأخذي هاتفي مني. ما رأيك؟» قال هذا وهو ينقر بأصابعه على يدها تأكيدًا على الفكرة الأخيرة.

كان يقصد بتعبير «الكلام السيء» صورة كارامات لون يدخل مسجدًا كان قد ورد ذكره في الأخبار لأن له «إمام يحض على الكراهية». وعندما حصلت واحدة من الصحف الشعبية واسعة الانتشار على تلك الصورة قبيل نهاية فترة عضويته الأولى في البرلمان، نشرتها تحت عنوان «الكشف عن جماعة الذئب المتوحّد». لكن رد الذئب المتوحّد على ذلك كان بأن أشار إلى أن عمر الصورة عدة سنين، وقال إنه ذهب إلى ذلك المسجد للمشاركة في الصلاة على عمه المتوفي، وإلا لما قبِلَ الدخول إلى مكان يجري فيه الفصل بين الجنسين. وقد تبعت إعلانه هذا صور له مع زوجته يسيران يدًا بيد وهما داخلان إلى إحدى الكنائس. وبعد عدة أسابيع، خسر الانتخابات في دائرته ذات الأغلبية المسلمة، إلا أنه سرعان ما عاد إلى البرلمان من خلال انتخابات فرعية فاحتل فيه مقعدًا آمنًا يمثل دائرة انتخابية أكثريتها من البيض. وما كان من الصحف الشعبية التي هاجمته في السابق إلا أن هللت له باعتباره «فاتحًا متوحّدًا» يتجاوز رجعية المسلمين البريطانيين. كانت لدى عصمة شكوك كبيرة في إمكانية ظهور ذلك الكلام عنه من جديد... أوه، إلا إذا كان يعني الوجه الآخر من تلك القصة: كل تلك الاتهامات التي سمعتها والتي بدت لها صحيحة تمامًا عندما قالت إن كارامات لون قد حسب بدقة

خسائره على المدى القريب مقابل مكاسبه على المدى البعيد، تلك المكاسب الناجمة عن إظهاره ذلك الازدراء لتقاليد المساجد. خائن، جوزة فارغة، انتهازي، متآمر.

سألته: «أنت قريب منه، أليس هذا صحيحًا؟»

«تعرفين كيف يكون الآباء والأبناء».

«لا، في الحقيقة... لا أعرف».

«إنهم من يقودنا إلى مرحلة الرجولة؛ هذا على سبيل البداية».

في واقع الأمر، لم تكن تفهم هذا على الإطلاق رغم أنها سمعت ورأت، أكاديميًا وعلى مستوى القصص المتداولة، ما يكفي لأن تعرف أن في هذا الكلام شيئًا من الحقيقة. بالنسبة للفتيات، يكون تحولهن إلى نساء أمرًا محتومًا، أما الأولاد فإن تحولهم إلى رجال مسألة طموح. لا بد أنه رأى ملمح عدم الفهم على وجهها لأنه حاول توضيح الأمر لها من جديد.

«إننا نريد أن نكون مثلهم. ونريد أن نكون أحسن منهم. نريد أن نكون الأشخاص الوحيدين في العالم الذين يجوز لهم أن يصيروا أحسن منهم». أشار إلى نفسه وإلى ما حوله في المقهى رافعًا كتفيه بطريقة تجعل كلامه شاملًا كل شيء... «ومن الواضح أنني بذلت في الماضي كل ما استطعته حتى تكون هذه المحاولة عقيمة».

«هذا ليس صحيحًا. أنت شخص أفضل منه بكثير».

«وما الذي تعرفينه عن هذا؟»

لم تجبه؛ ولم تكن تعرف كيف تجيبه. قال لها: «لماذا كنت تتصرفين كما لو أنك تخفين شيئًا عندما أتيت؟»

ترددت، ثم أدارت كمبيوترها حتى صار في مواجهته، ورفعت غطاءه.

«لقد كنت تقرأين عنه يا عصمة. هل كنت تعرفين أنه أبي؟»

«نعم».

«ولماذا كذبت عليّ في ما يتعلق بهذا؟»

ضمت كفَّيها وراحت تنظر إلى أصابعها التي لمسها بألفة كبيرة قبل لحظات فقط.

«هل أنتِ واحدة منهم؟... المسلمون الذين يقولون عنه هذه الأشياء البشعة؟»

«نعم».

انتظر قليلًا، لكنها لم تجد شيئًا آخر تقوله.

«لقد فهمت. لا بأس، يؤسفني كثيرًا أن أسمع هذا». سمعت صوت انزلاق الكرسي إلى الخلف، فرفعت رأسها وهو ينهض واقفًا... «أظنني سأرى، يومًا، المفارقة الكامنة في فراري إلى هذا المكان محاولًا الابتعاد عن بعض المواقف، لكني أجد نفسي جالسًا أشرب القهوة مع شخص هو تجسيدٌ لها».

زالت المودة من صوته، واختفى الفتى المُراعي اللطيف فحل محله رجلٌ يحمل الجروحَ كلها التي يكاد يكون من المؤكد أن وقّعها على جلد أبيه الثخين ليس أكثر من وخزات دبابيس صغيرة. وعندما ودّعها، ما كان يمكن أبدًا أن تخطئ نكهةَ الوداع النهائي في نبرة صوته.

* * *

لقد هدأت الريح، وراحت نُدَف ثلج كبيرة تتساقط فتحتفظ لحظة بشكلها على كم معطفها قبل أن تذوبَ وتتبدد في النسيج. مشت عصمة المسافة القصيرة عائدةً إلى بيتها لكنها صارت قريبةً منه الآن فبدت لها فكرة ذلك الاستوديو بقرقعة أنابيب المياه التي فيه أمرًا غير محتمل. تابعت السّيرَ حتى المقبرة المحاطة بالأشجار عند نهاية الشارع، مقبرة من غير المتوقَّع أن يصادفَها المرء إلى جانب حضانة أطفال ممتدة على

الجهة الأخرى من الشارع قبالةَ ملعب البيسبول. لا بد أن تكون هذه المقبرة في الصيف مكانًا ظليلًا، ومهرجانًا من الألوان في الخريف؛ لكنها لم ترَ فيها اليوم غير بياض الثلج ولون الحجارة الرمادي.

بدأت السيرَ في ممر أُزيلَ الثلج منه قبل أن تخوضَ في كثيب ثلج غاص فيه حتى منتصفه حذاؤها الطويل الذي يبلغ ركبتيها فخرجت منه جارّة نفسها وقدماها تَعلقان في الثلج حتى بلغت قبرًا من القرن التاسع عشر.

يكون حضور الأموات ودودًا بعضَ الأحيان، لكن الموتى كانوا اليوم موتى فحسب، وكانت كل شاهدة قبر منحوتة علامةً على حزن شخص ما. دقت بقدميها على حجر القبر لتنفضَ الثلجَ عنهما، وقالت: «غباء».

إنها الكلمة الوحيدة المعبّرة عن هذه الخسارة الكبيرة حيث لم يكن هنالك إلا القليل جدًا مما يمكن أن تخسرَه.

* * *

في ذلك المساء، قالت لها هيرا شاه عندما جلستا معًا لتناول وجبتهما المختارة بعناية: «لستِ مضطرةً إلى اعتبار ما حدث نهايةً للأمر كله...» بما أنها امرأة عازبة في منتصف الخمسينيات لم تكن أبدًا في حياتها كلها مضطرة إلى الطبخ يوميًا من أجل أحد ما... كانت الدكتورة هيرا متمسكة بفكرة أن صحبةَ شخص ما على العشاء لا بد أن تكون مناسبةً للتفنن في الطبخ مهما تكن فترة تلك الصحبة محدودة... أو لعلها كانت لا تفعل ذلك إلا عندما تمر عليها فترة طويلة ولا يتوفر لها من تقوم تجاهه بدور الأمّ... «على الأقل، عليك أن تحاولي توضيح ما يجعلك تحسين هذا الإحساس. فماذا يمكن أن تخسري؟»

«وما الذي أكسبه؟ على أيّ حال، سوف يعود إلى لندن عما قريب».

هزت هيرا رأسَها قبل أن تضعَ في فمها قطعةَ اللحم المُتبّل بالكاري:

«هل تعرفين أني ظننتك تعتبرينني شخصية عدوانية عندما كنا في مدرسة لندن للاقتصاد».

كانت المحاضِرة الكشميرية تقول خلال عرضها الحماسي الملتهب لـ«أوامر الرقابة» وأثرها على الحريات العامة، «إنها تنقلب على سبعمئة وتسعين سنة سبقتها في القانون البريطاني...» عندما رأت تلك الطالبة الهادئة الجالسة في صف المقاعد الثالث محملقةً فيها فقالت:

«هل تريدين قولَ شيء يا آنسة باشا؟»

«أجل يا د. شاه. إذا ألقيت نظرةً على القوانين الاستعمارية فسوف تجدين سوابقَ كثيرة لتجريد الناس من حقوقهم. الاختلاف الوحيد هو أنها تطبق على المواطنين البريطانيين هذه المرة. وهذا ليس بالتغير الكبير الذي يمكن أن تتصوريه لأن هنالك كلامًا كثيرًا يعتبرهم غير بريطانيين». «هل تريدين قولَ المزيد؟» «أبدًا لم يوصف إرهابيو(1) السابع من تموز في وسائل الإعلام بأنهم «إرهابيون بريطانيون». وحتى عندما كانوا يستخدمون كلمة «بريطانيون» فقد كانوا يستخدمونها ضمن عبارة «بريطانيون من أصل باكستاني» أو «بريطانيون مسلمون» أو «حاملو جوازات سفر بريطانية»... هذه الصيغة المفضلة عندي؛ هنالك دائمًا شيئًا ما يوضع للفصل بين كونهم بريطانيين وكونهم إرهابيين». «حسنٌ. إن لديك صوتًا لا يستهان به عندما تقررين استخدامه».

عادت عصمة إلى بيتها ذلك المساء فوقفت أمام المرآة، ثم ضغطت على حنجرتها فأحسّت رجفةً خفيفة لشيء موشك على الاستيقاظ. وقد استيقظَ ذلك الشيء... تدفقَ غضبها المكبوت فتجسّد في المقالات التي كتبتها عن الأثر الاجتماعي للحرب على الإرهاب. ثم توفيت والدة

(1) سلسلة تفجيرات إرهابية وقعت في لندن يوم 7 تموز 2005 واستهدفت المدنيين في عدد من وسائل النقل العامة.

عصمة، فضاع ذلك الصوت الغاضب... حتى هذه اللحظة. كانت د. شاه تحاول تهدئةَ ذلك الغضب وإعادتَه إلى قمقمه من خلال الورقة المشتركة التي تعملان عليها: دولة اللاأمان: بريطانيا واستخدام الخوف كأداة سياسية جهدٌ أخذ تجربة عصمة في تجربة الاستجواب الأمني الذي مرت به في المطار فجعل منها بحثًا.

«لا، ليس في ذلك الوقت، بل طيلةَ الطريق إلى أن أنهيت الدراسة. كنت أظنُك تمقتينَ شيئًا في شخصيتي وأن ذلك ما يجعلك تبتعدين كلما حاولت الحديثَ معك في أي شيء غير العمل. لم أفهم شيئًا إلا بعد أن أخبرتني بوفاة أمك».

كم بكت في مكتب هيرا شاه ذلك اليوم! كانت تبكي أمَها، وتبكي جدتَها التي توفيت قبل كنّتها بأقل من سنة واحدة؛ وكانت تبكي أباها، وتبكي التوأمين اليتيمين اللذين لم يعرفا أمهما قبل أن يأكلَ التوتر والمرارة ضحكتَها... لم يعرفا تلك المرأة الحنون التي كانتها ذاتَ يوم... وكانت تبكي نفسَها أيضًا، تبكي نفسَها أكثرَ من أي شيء آخر.

قالت عصمة: «لا أريد شفقةَ إيمون، إن كان هذا ما تشيرين إليه».

«بل أشير إلى حقيقة أن عادتك في المبالغة في السرية تفسد كل شيء...» قالت هيرا هذه الكلمات بأقصى ما لديها من نبرة صوت مهنية... وأكملت: «وهذا ما يقلل من شأن استعداد الناس الآخرين لقبول الحقائق المعقدة في حياتك».

رفعت عصمة المملحة إلى مستوى أذنها كأنها هاتف: «فماذا إذن؟ هل ترين أن عليَّ أن أتصل به فأقول له: إيمون، ها هي قصةٌ مضحكة عن والدك».

«ربما، لكن من غير كلمة مضحكة».

«وماذا بعد ذلك؟ هل أُتبع ذلك بالقصة المضحكة أكثر، قصة أخي؟ هل أقول ذلك لابن وزير الداخلية الجديد؟»

«مممم. من الممكن أن تبدأي بقصة والدك، ثم ترين كيف تسير الأمور بعد ذلك. ها هي نصيحةٌ أخرى لك: أعيدي النظر في حجابك». قالت هذا وهي تشير إلى غطاء الرأس الذي تركته عصمة عند الباب حيث خلعت حذاءَها. وكانت خلعت حذاءَها هناك لأنها لا يمكن أبدًا أن تدخل به شقة هيرا ذات الأرضية الخشبية والسجاد الفارسي، وخلعت حجابَها انطلاقًا من اعتبارات اللياقة تجاه مضيفتها.

«أنت لا تفوّتين فرصةً للحديث عن الحجاب، أليس الأمر هكذا يا د. شاه؟»

«قد يكون هو ما يجعل رجُلك الشاب يحافظ على مسافة بينكما. إنه يرى هذا الحجاب ويفهم معناه».

«ليس رجُلي الشاب؛ وما يفهمه من معنى حجابي لن يكونَ غير صحيح تمامًا. ثم، متى قلت لك إنني أريد منه أي شيء بذلك المعنى؟»

لقد مرّ زمنٌ طويل جدًا منذ أن تحدثتْ آخر مرة عن «ذلك المعنى» الذي لم تكن تعرف إن كانت تعرف كيف تريده. كان صديقها مُوْ في الجامعة آخر وأول رجل تعرف معه أي نوع من القرب الجسدي الحميم (باستثناء بعض المداعبات التي يسهل نسيانَها). لعلها كانت ستحس بأن شيئًا ينقصها لو أنها ذهبت معه إلى أبعد مما ذهبا حقًا؛ لكن مُوْ كان قلقًا من العقاب الأبدي الذي سينزل بهما؛ وكانت عصمة ترى أن من الضروري، على الأقل، أن تجدَ نفسها قادرة على تصوّر الزواج من شخص ما قبل أن تقدِمَ على فعل شيء بهذه الأهمية معه. عندما تفكر الآن في تلك الأيام، يبدو لها بقاؤهما معًا طيلة السنة الجامعية الثانية تقريبًا أمرًا شديدَ الغرابة.

قالت هيرا: «ألا تعرفين أن القرآن يأمرنا بأن نستمتعَ بالجنس لأنه نعمةً من نعم الله؟»

«صحيح، لكن ضمن إطار الزواج!»

«إن لكل منا قراءَته الانتقائية الخاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم».

ضحكت عصمة، ثم نهضت لترفع الأطباقَ عن الطاولة. بالقلب الكبير الذي تتميز به، كانت هيرا شاه ترى عصمة بوضوح... تراها مهمومةً، خائفة بفعل ظروف حياتها كلها التي جعلت بعض الخيارات تكتفي بالنظر إليها ثم الإشاحة عنها. وأما عندما يخطو فتى في طريق عصمة وتَعِدها ضحكته بأن الحياة يمكن أن تكون سارّة إذا ظلت قريبةً منه، فإن هيرا شاه تلفت انتباهَها إلى قطعة قماش، إلى حجابها، وتقول لها: انظري... هذا الحجاب، وقصّة خفية لا تريدين البوح بها، هما العقبتان الوحيدتان اللتان تحولان بينك وبينه.

وقفت عصمة برهةً في المطبخ بروائحه المألوفة وضياء مصابيحه الدافئ، وسمحت لنفسها بتصديق ذلك. هنالك كابوتشينو ممتاز بالقرب من بيت جدَّيْه، وهو ليس مضطرًا إلى قيادة السيارة كلَ صباح خمسًا وعشرين دقيقة إلى ذلك المقهى تحديدًا. رأت انعكاسَ صورتها على زجاج النافذة. لم تكن لديها أيّ فكرة عن الأماكن التي يذهب إليها في الأمسيات وعن الأماكن التي يمضي فيها لياليه. أين هو الآن؟

قالت لنفسها: «غبية»، ثم حولت انتباهَها إلى وضع الأطباق في الآلة لغسلها.

* * *

فتح إيمون فمه فكان الصوت الذي خرجَ منه أشبه بصرير الجنادب.

قالت له: «قل شيئًا». لكنها لم تسمع غير: شريب شريب شريب. فتحت عصمة عينيها من ظلمة إلى ظلمة أخرى لاح لها فيها مستطيلٌ من الضوء. إنها الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة صباحًا. لماذا تتصل بها أنيقة في هذه الساعة؟ لا، لا، لا، لا. طفلها، أخوها، الطفل الذي

ربّته. أمسكت بالهاتف وفي رأسها صورٌ عن موته، عن موت عنيف لا يمكن احتماله، ثم ضغطت على الزر. رأت وجهَ أنيقة قناعًا للموت.

قالت لها أختها: «أنت السبب».

«برويز؟»

خرج صوتها غريبًا، صوتٌ نائم مذعور.

«أنت من أخبر الشرطة عما فعله».

انتهى نوع من أنواع الذعر، وبدأ نوع آخر: «من قال لكِ هذا؟»

«العمة نسيم على الهاتف تتحدث عن ذلك مع رضية آبا. أنت تعترفين بالأمر إذن؟»

«كانوا سيكتشفون الأمر على أية حال».

«أنت لا تعرفين هذا...» كان صوت أختها مجروحًا، مشوَّشًا... «وكان من الممكن ألّا يعرفوه. كان يمكنه أن يعود. كان قادرًا على أن يستديرَ ويعود لحظة إدراكه أنه ارتكب غلطة».

«أنتِ من جعله غير قادر على العودة».

صرختْ في تلك اللحظة كما لو أنها لم تشعر بالجرح الذي أصابها إلا الآن... «عصمة، لقد جعلتِ أخانا غير قادر على العودة».

مدت عصمة يدها فمسَّت وجه أختها على شاشة الكمبيوتر. أحست برودة الزجاج. قالت لها: «ششش. أصغي إليّ! الناس في الحي يعرفون. ستكتشف الشرطة الأمرَ على أية حال. وما كان هنالك شيء أستطيع فعله من أجله، فقمت بما استطعته من أجلكِ أنتِ... من أجلنا».

«من أجلي؟»

«لسنا في وضع يسمح لنا بأن نجعل الدولة تتساءل عن مدى ولائنا. ألا تفهمين هذا؟ إذا تعاونتِ معهم، فإن لهذا أثر حقيقي. لم يكن ممكنًا أن أتركه يجعلكِ تعانين بسبب الخيارات التي أقدمَ على اتخاذها».

«أهذا معنى ألّا أعاني؟ لقد خسرنا برويز».

«هو من فعل هذا، لا أنا! عندما يعاملوننا بهذه الطريقة، يكون الشيء الوحيد الذي نجد أنفسنا قادرين على فعله من أجل المحافظة على عقولنا عبر تركهم يفعلون ما يريدون».

«برويز ليس والدنا. إنه شقيقي التوأم. إنه أنا. أما أنتِ... أنت لست أختَنا بعد الآن».

«أنيقة...»

«إنني أعني ما قلت. لقد خُنتِنا، خنتِنا نحن الاثنين. ثم حاولت إخفاءَ ذلك عني. لا تتصلي بيِ، ولا تكتبي لي رسائل، ولا ترسلي صورًا، ولا تطيري عبر المحيط متوقِّعةً أنني يمكن أن أَقبل برؤية وجهك من جديد. لم تعد لدينا أخت».

في لحظة، كان وجهها هنا، غاضبًا على الشاشة؛ ثم حلّت محله شاشة الهاتف: أرضيةٌ صفراء وأوراق أشجار خضراء تعوم على سطح قناة غراند يونيون. جرّبت عصمة فيس تايم، ثم سكايب، ثم واتس أب، بل خاطرت بتحمل تكلفة اتصال هاتفي دولي، ليس لأن لديها أملٌ في أن تجيب أنيقة على اتصالاتها، بل لتجعل أختها تعرف كم كانت تريد التواصل معها.

أخيرًا، عندما صار صوت الرنين أكثرَ مما تستطيع احتمالَه، استلقت على سريرها ولفّت اللحاف على جسدها بإحكام. كانت النجوم التي فوق رأسها باردة. جاءت إلى ذهنها آيَةٌ من آيات القرآن: «والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجمُ الثاقب». نهضت من فراشها. أخرجت سجادةَ الصلاة من تحت سريرها. ثم ركعت عليها. «بسم الله الرحمن الرحيم». هذه الكلمات العربية التي رافقتها منذ طفولتها، كلماتٌ كانت تقولها جدتها وهي تحتضنها عندما لم يكن أحد يظن أنها صارت كبيرة إلى حد يسمح لها بحفظها. «بسم الله الرحمن الرحيم».

كان يهتزُّ جسدها عندما تَنطق هذه الكلمات مثلما كانت جدتها تهزّها لتنام وتُتمتم بهذه الكلمات حتى تحميها. في أول الأمر، كانت كلمات من لغة لا تعرفها؛ إلا أنها أغمضت عينيها عن العالم كله فتغلغلت الكلمات فيها واتقدت نورًا طردَ الظلمة. ثم صار الضياء ناعمًا خافتًا، وغمرها بالسَّكينة التي تأتيك عندما تعرف أن لا حولَ لك.

على الأقل، هكذا كان أثر تلك الكلمات عليها عادة. وأما اليوم، فقد وجدت نفسَها غير قادرة على جعلها أكثرَ من كلمات بلغة أجنبية، كلماتٌ منطوقة بصوت مسموع في غرفة صارت شديدة البرودة لأنها ما كانت تنتظر خروج أحد من تحت أغطيته في هذه الساعة من الليل. عادت إلى سريرها، واحتضنت وسادتها، شدَّتها إلى صدرها، ثم وضعت وسادةً أخرى خلف ظهرها. لقد كانت تخدعُ نفسها تلك الليلة عندما ظنت أنها لا تزال تعرف كيف السبيل إلى تهدئة قلب أختها المضطرب الصاخب. لقد اعتادت أنيقة أن ينبضَ قلبها بصحبة أخيها الشقيق، في عالمهما المشترك، كما في رحم أمهما. عندما كانا صغيرين، كان التوأمان يستلقيان في الحديقة معًا، فيتحسس كلٌّ منهما نبضَ الآخر بأصابعه، ويصغيان إلى أصوات القطارات العابرة على سكة القطار التي تمرّ خلفَ البيت. كانا ينتظران تلك اللحظات عندما يتواقت قلباهما فيما بينهما أولًا، ثم يتواقتان مع صوت القطار الخارج من محطة بريستون رود.

أرجوكِ، اتصلي بي. أرجوك، اتصلي بي. أرجوك، اتصلي بي. هكذا كانت تكتب على سكايب وعلى واتس أب.

اتصلت بها العمة نسيم. وكانت مرتاعة لدورها في ما حدث. كانت تتحدث مع ابنتها رازيا عن شيء في الأخبار، فقالت ابنتها إنه تصرّفٌ مستحسَن، ضمن هذا المناخ، أن عصمة قامت بالإبلاغ عما فعله شقيقها برويز. لم تكن العمة نسيم قد انتبهت إلى مجيء أنيقة الليلةَ الماضية بل كانت تفترض أنها على مسافة أميال كثيرة؛ كانت تظنها عند صديقتها جيتا.

قالت العمة نسيم: «كانت وقحة معي!» فجاءت هذه الجملة تعبيرًا عن انقلاب كون بأسره رأسًا على عقب، وعن انقلاب أشكال السلوك فيه.

عند ذلك، كان على عصمة أن تقنعها بأن تلك كانت غلطة من السهل أن تحدث، وبأن ما من شيء خطير يستدعي الصفح. وقالت لها إنها ستأتي آخر الأمر، في حين كانت عندها رغبة حقيقية في أن تصرخ على العمة نسيم في الهاتف وتقول لها «كيف يمكنك أن تكوني مهملة إلى هذا الحد؟» وعندما انتهت المكالمة آخر الأمر، شعرت بتعب لم تعرفه من قبل. استندت إلى الوسادة التي خلف ظهرها، وكان إيمون يحتضنُها ويشدها إليه شدًا وثيقًا. أوه!... قالت هذا وهي في دهشة وفي غير دهشة. ليست هذه المرة الأولى التي لم تجده فيها هناك، لكنها كانت تبعده دائمًا. أما الآن، فقد شدت نفسَها إليه مقتربة منه أكثر فأكثر مستمتعةً بالراحة التي صار فجأة من الواضح لها أنه الوحيد القادر على منحها إياها.

في البداية، ولفترة طويلة بعد ذلك، كان الدفء يسري في أطرافها؛ وبعد ذلك، آخر الأمر، صار الدفء حرارة. استدارت إليه في الظلمة، ومع ظهور أول خيوط الضوء في السماء، أحست نفسَها وقد تحولت بفعل رغبتها في أن تكون معروفة. وجدت نفسَها وقد تحولت تحوّلًا تامًا. وقبل مجيء النهار، قبل أن تتمكن حقائق النهار من تبديد هذا السُّكر الليلي، مدت يدَها إلى الهاتف فكتبت رسالة إلى إيمون: إنني آسفة. أحسدك على أبيك. مات أبي وهم يأخذونه إلى غوانتانامو.

أتت إجابتَه في وقت أبكر من الوقت الذي تخيلت أنه يمكن أن يكون مستيقظًا فيه: قولي لي أين أراك؟

أما من أنيقة، فلم تأتِها أيّ كلمة. لا على فيس تايم، ولا على سكايب، ولا على واتس أب، ولا اتصال هاتفي. لا شيء أبدًا!

* * *

نظرت عصمة إلى صورتها المنعكسة في المرآة. كان شعرها «منفوشًا» في «موجات من الجمال» مثلما وعدتها مونا التي تعمل في صالون بريسبوليس في ويمبلي عندما نصحتها بمنتَج قادر على «مقاومة» الشعر المجعَّد الذي يصعب ضبطه من غير أن يزعمَ القدرة على تسبيله. قال شعرها إن ذلك المنتج «مسلّي» وإنه «مفاجئ». أو... لعله كان كذلك لو أنه لم يجعله يلتصق بوجهها. فتحت الدرجَ الذي تضع فيه الحجابات ووشاحات الرأس، ثم أغلقته ونظرت في المرآة مرةً أخرى، ثم نظرت في المرآة من جديد.

نقرات أصابع غير واثقة على بابها. لقد توقعت أن يتصلَ بها عندما يصير في الأسفل. لكن، لا بد أن واحدًا من الجيران قد ترك البابَ الرئيسي مفتوحًا. وهو الآن هنا، أبكرَ مما توقعَتْ. وهي لا تزال في ثوب الحمام. صاحت بصوت مرتفع: «انتظر»، ثم تناولت ما وقعت عليه يدها من ملابس. بنطلون جينز، وحمالة ثديين بهت لونها من كثرة الغسل... بحق الرب، ما أهمية هذا؟... وقميص ثقيل عليه زغب صوف.

فتحت الباب مبهورةَ الأنفاس قليلًا، محرَجة مثلما كانت يوم عرضت عليه أن ترافقَه إلى طاولة البيع في الأعلى عندما كانا في المقهى. شمت رائحةَ عطر خفيفة منبعثة منه، رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة. هل وضعَها مِن أجل هذا اللقاء خاصة، أم أنها لم تكن تراه عادةً حتى وقت متأخر في النهار إلى الحد الكافي لجعل تلك الرائحة تزول عنه؟

«مرحبًا»... قالها بنبرة ليست غير ودية، لكنها أكثرَ رسمية من تحيته المعتادة. هل كان هذا بسبب حديثهما الأخير أم لأنها الآن من غير حجاب؟ انزلقت عيناه على وجهها ناظرتَيْن إلى مكان خلفها كما لو أن النظرَ إليها مكشوفةَ الرأس هكذا فيه شيءٌ من قلة التهذيب. رأته ينظر إلى الكأس والطبق في مشبك الأطباق عند المجلى، وإلى الجدران العالية وإلى السرير الفردي بملاءته البيضاء ولحافه الأبيض.

قال لها: «مكانٌ لطيف، غير مزدحم». فكّ سحّابَ معطفه فبدا لها صوته الصغير حميمًا في صمت الاستوديو. تساءلت في نفسها إن كانت عبارة «غير مزدحم» شكلًا مهذبًا لقول كلمة «متقشف»، أو أنه رأى الاستوديو مثلما كانت تراه حتى هذه اللحظة: بيتٌ لا يكاد يُثقل عليك بشيء، ويسمح لك بأن تعيش فحسب. تمنت الآن لو أنها اعتنت ببيتها أكثر، وتمنت لو أن سريرَها الفردي لم يكن فرديًا بهذه الطريقة الصارمة.

قال: «آسف لما حدث أمس».

«أنا من يجب أن تقولَ هذا... شاي؟»

خلع حذاءَه؛ وبينما كانت تملأ الغلاية، سمعت خطواته في اتجاه مكتبها، ثم سمعت صفرةً خفيفة أنبأتها بأنه رأى صورةَ أنيقة.

قالت له: «هذه صورة أختي».

استدار في اتجاهها حاملًا إطارَ الصورة بين يديه. كانت الصورة ملتقطة في السنة الماضية، أي بعد فترة قصيرة من إنهاء التوأمَين المدرسةَ الثانوية. كانت أنيقة قد لبست ثيابَها المفضلة استعدادًا للخروج: حذاء أسود مرتفع الساق حتى الركبتين، وبنطلون أسود ضيق، وسترة طويلة بيضاء، وقبَّعة سوداء مستدقة الرأس تُبرز كثيرًا زوايا وجهها، ووشاح من شاش أسود وأبيض ملفوفٌ من غير إحكام على تلك القبّعة. كانت يدها مستندة إلى وركها، وذقنها مرفوعة بحركة استعلاء في اتجاه أخيها الذي يصوِّرها، في حين كانت عصمة مستندة بمرفقها إلى كتف أختها مبتسمةً ابتسامةً متسامحة تكاد تكون أمومية. كم بدا وجهها عريضًا إلى جانب وجه أختها! وكم بدت ملامحها باهتة بالمقارنة مع أحمر الشفاه والماسكارا التي تتقن أنيقة استخدامها.

«كم عمرها؟»

«تسعة عشرة»... طفلة امرأة، ناضجة غير ناضجة. لم تكن عصمة قادرة على العثور على أي كلمات تفيها حقها.

وضعَ الصورةَ من يده وقال: «أسرةٌ جذابة». وأخيرًا، نظر إليها نظرةً مباشرة... «شعرك جميل». سَرَّت هذه الملاحظة إلى جوفها مباشرةً مثلما سَرَّت الملاحظة التي قبلَها، لكن انتباهَه كان قد تحول إلى إطار الصورة الآخر على مكتبها، ذلك الإطار الذي كانت عليه عبارة باللغة العربية مكتوبة بخط اليد على ورقة مُسطَّرة. «وما هذه؟»

«إنها آية من القرآن. لا يُكلّف الله نفسًا إلا وِسعها». عندما توفيت جدتها، وجدوا هذه الورقة مثبتة بشريط لاصق داخلَ درج الطاولة الصغيرة إلى جانب سريرها.

نظر إليها بنوعٍ من الشفقة كان أكثرَ مما تستطيع احتماله؛ ولا بد أنه لاحظ ذلك لأن نبرةَ صوته كانت ساخرة بعض الشيء عندما قال لها: «الآن تنتهي الأحاديث الصغيرة، ثم...»

جلست على سريرها وتساءلت إن كان سيجلس إلى جوارها أم سيختار كرسيَّ المكتب الذي لا يبعد عنه إلا خطوتين. لم يختر هذا ولا ذاك. بل جلسَ على الأرض. جلسَ وضمَّ ساقيه إليه فارتفعت ركبتاه حتى صدره.

قال لها: «أخبريني عن والدك».

«المسألة هي أنني لست أدري حقًا ما يمكن أن أقولَه لك عن أبي. لم أكن أعرفه. لقد جرّب نفسَه في أشياء كثيرة خلال حياته... عازف غيتار، ومندوب مبيعات، ومقامر، ومحتال، وجهادي... لكن دورَ الأب الغائب كان أكثر أدواره انسجامًا مع طبعه».

أخبرَته بكل شيء مثلما تتذكره، من غير أي تهرّب. عندما هجر والدها أسرتَه أول مرة، كانت عصمة أصغر من أن تكون قادرة على تذكر رحيله أو على تذكر حضوره قبل ذاك الرحيل. وهكذا فقد نشأت في بيت ليس فيه إلا أمها وجدَّتها وجدّها، وكانت غير مدركة أن قلبَها يفتقد شيئًا.

ظهر عادل باشا من جديد عندما صار عمرها ثماني سنين: رجل ضاحكٌ عريض المنكبين يكتفي أصدقاؤه بتسميته «باش» من غير تكلف؛ رجل كان شديد السرور بأن ابنتَه تشبهه. وعلى غرار كل امرأة أخرى في حياته، سرعان ما وقعت عصمة تحت تأثير سحره الذي كان فعّالًا إلى درجة مدمّرة سمحت له بدخول سرير الزوجية من جديد رغم أن أمَها تجاهلت رأي حماتها وحميها أول عودته وأصرّت على أن ينام على الأريكة. أقام في البيت زمنًا كافيًا لجعل زوجته تحبل بالتوأمين ولضمان أن تجد ابنته فكرةَ رحيله من جديد فكرةً لا تطاق، ثم هجرهم مرة أخرى. لم تكن الذريعة هذه المرة مشروعًا من مشاريع الإثراء السريع، بل قافلة مساعدات إنسانية ذاهبة إلى البوسنة التي كانت تعيش آخرَ شهور الحرب في تلك الآونة، وهذا ما سَمحَ له بإلباس رحيله لبوسَ الصلاح وفعل الخير. عادت تلك القافلة بعد بضعة أسابيع، إلا أنه لم يعد معها. ولم تره عصمة بعد ذلك أبدًا.

كانت تصلهم من حين لآخر بطاقةٌ كَتبَ عليها بخط يده المخربش شيئًا يخبرهم فيه عن مدى أهمية مشاركته في كفاح ما في مواجهة الاضطهاد؛ أو كان يظهر رجل ملتح عند باب بيتهم حاملًا معه مبلغًا صغيرًا من المال فيخبرهم بأن باش يقاتل الآن في كشمير أو في الشيشان أو في كوسوفو. ثم اتصل بهم هاتفيًا في تشرين الأول سنة 2001. كان في طريقه إلى أفغانستان عبر باكستان، وكان قد سمع بوفاة أبيه. أراد أن يكلم أمه وأن يسمع صوت ابنه. إلا أن زوجته أغلقت الهاتف قبل أن تنظر لتعرف إن كان يريد سماع صوت عصمة أيضًا، الصوت الوحيد الذي سبق له سماعه من أصوات أطفاله الثلاثة كلهم.

تحرك إيمون قليلًا فوضع كاحل قدمه عند كاحلها: حركة تعاطف صغيرة إلى الحد الذي يجعلها قادرة على احتمالها.

وبعد بضعة شهور من ذلك، أتى عناصر من جهاز الاستخبارات

البريطاني ومن الفرع الخاص فسألوا عنه، إلا أنهم لم يذكروا سببًا لذلك. عرفنا أن شيئًا قد حدث، وقالت جدتي إنه قد يكون علينا الاتصال بأحد ما الصليب الأحمر، أو الحكومة، أو أحد المحامين حتى نعرف مكان وجوده. لعل ذلك كان يمكن أن يحدث لو أن جدّي كان لا يزال حيًا في تلك اللحظة، لكنه لم يكن هناك فقالت أمي إننا سنتعرض لمضايقات من جانب الفرع الخاص إذا حاولنا البحث عنه، وكذلك سوف يضايقنا بعض الناس في الحي لأنهم سيبدأون الشك في ميولنا. ذهبت الجدّة إلى المسجد بحثًا عن عون، لكن إمام المسجد اتخذ موقف أمي نفسه لأنه سمع قصصًا كثيرة عن إساءات عانتها أسر رجال بريطانيين اعتُقلوا في أفغانستان. وقالت واحدة من صديقات جدّتي إن الحكومة البريطانية ستقطع مختلف أشكال المساعدات الاجتماعية، بما في ذلك الاستفادة من المدارس الحكومية المجانية ومن التأمين الصحي، عن أية أسرة تشك في أنها موالية للإرهابيين.

ظهرت على وجه إيمون تكشيرة استياء فهمت منها أنه يرى الدولة جزءًا منه... وهو موقف ما كان ممكنًا أبدًا بالنسبة لأي شخص في أسرتها. رفعت يدها لتحول دون اعتراضاته. «كانت أمي تعرف أن هذا الكلام ليس صحيحًا، لكنها تركت جدتي تصدقه. ثم بقي الأمر على هذه الحال حتى سنة 2004 عندما اتصل رجل أُطلق سراحه من غوانتانامو بأقارب أبي في باكستان وقال لهم إنه كان سجينًا مع أبي في قاعدة باغرام منذ سنة 2002. وفي شهر حزيران من ذلك العام كان هو وأبي من بين الرجال الذي وضعوهم في طائرة لنقلهم إلى غوانتانامو. قال إن أبي مات خلال إقلاع الطائرة إذ أُصيب بنوبة. لقد قال أشياء أخرى أيضًا، أشياء عما حدث لأبي في باغرام إلا أن العائلة في باكستان قالت له إن أحدًا منهم ليس مضطرًا إلى حمل هذه الصور في رأسه؛ ولم يخبرونا بأي شيء».

«ألم يخبركم أحد بموته طيلة سنتين كاملتين؟»

«من الذي يمكن أن يخبرنا؟ الأميركيون؟ الاستخبارات البريطانية؟ لم يقل لنا أحد شيئًا. ولم يقل لنا أحد شيئًا حتى الآن. لم يفرجوا بعد عن سجلات باغرام المتعلقة بتلك الفترة. بل إننا لا نعرف أيضًا إن كان أحد قد اهتم بأن يحفر له قبرًا».

«أنا واثق من أنهم حفروا له قبرًا».

«لماذا؟ ألأنهم متمدنون؟» كانت قد وعدت نفسها بأنها لن تكذب عليه؛ وهذا يشتمل على أنها لن تحاول كبح غضبها وإظهاره بأقل من حجمه.

«أنا آسف. كنت أحاول... أنا آسف. لا أستطيع تخيّل كيف كان وقع ذلك عليكم. عليكِ وعلى أسرتك كلها».

أشارت بيدها إشارة يأس: «لم نكن نتحدث عن هذا الأمر. كان الحديث فيه ممنوعًا علينا. لم تعرف بالأمر إلا العمة نسيم التي تعيش مع بناتها في بيت على الناحية الأخرى من الشارع... أقول هذا لأننا كنا في الحقيقة مثل أسرة واحدة مقسومة إلى بيتين. وأما خارج تلك الأسرة، فقد جرى إخبار رجل وحيد فقط: رجل يعرفه جدي وجدتي منذ انتقالهم للعيش في ويمبلي. في ذلك الوقت، كان عدد الأسر الآسيوية في المنطقة قليلًا إلى حد أن كل شخص كان يعرف الجميع. ومن أجل جدتي ذهب هذا الرجل ليزور واحدًا من أبناء عمومته الذي كان عضوًا في البرلمان وسأله إن كانت الحكومة البريطانية قادرة على الوصول إلى أيّ معلومات عن عادل باشا الذي توفي في الطريق إلى غوانتانامو، فمن حق أسرته أن تتلقى إجابة. إلا أن عضو البرلمان قال له: إنهم أحسن حالًا من غيره، ثم خرج من الغرفة».

«هل كان عضو البرلمان المقصود أبي؟»

«نعم».

انحنى إلى الأمام دافنًا وجهه بين كفيه.

ودّت أن تترك أصابعها تجري في شعره الكثيف، وأن تضع يدها على ذراعه. كان في داخلها إحساس بالخفّة، إحساس جديد تمامًا جعل العالم كله يتشكل من جديد فيصير مكانًا لاحتمالات لم تكن تحلم بها. وفي هذه الخفّة، كان غضب أنيقة سريع الزوال، وكانت خيارات برويز قابلة للعودة عنها.

رفع رأسه ونظر في عينيها. قال مشيرًا إلى حيّز على السرير إلى جانبها: «هل يمكنني؟»

أومأت برأسها لأنها لم تكن واثقة من قدرتها على استخدام صوتها.

انثنى الفراش قليلًا تحت ثقله. أمسك بيدها ونظر إليها بعينيه البنيتين اللتين ظهرت فيهما مشاعر عميقة. قال لها: «يؤسفني كثيرًا كل ما مررتِ به. أنت امرأة متميزة...» ربت على يدها مرة، مرتين، ثم تركها... «يجب أن تفهمي شيئًا بخصوص أبي».

لم تكن تريد أن تفهم أي شيء بخصوص أبيه. كانت تريد أن تعود يده لتبثّ تيارات تسري في جسدها كله، حتى في أكثر أجزائه حميمية. كان إحساسها كما لو أن يده قد مسَّتها هناك.

قال لها: «الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إليه؛ وهذا بسبب خلفيته. في وقت مبكر خاصة، كان عليه أن يكون أكثر حذرًا من أي عضو برلمان آخر. وفي بعض الأحيان، كان هذا يعني فعل أشياء يأسف لها. بل إنه فعل كل شيء فعله، حتى اختياراته الخاطئة، لأنه كان لديه إحساس بالهدف. الخدمة العامة، والمصلحة الوطنية، والقيَم البريطانية. إن لديه إيمانًا عميقًا بهذه الأمور كلها. وتلك الاختيارات الخاطئة التي أقدم عليها، كانت كلها ضرورية من أجل وصوله إلى المكان الصحيح. إلى المكان الذي صار فيه الآن».

كان جالسًا إلى جانبها... وكان ابن أبيه. لم تكن هنالك أيّ أهمية لأن يكونوا على هذا الجانب من الطيف السياسي أو ذاك، أو إن كان آباؤهم حاضرين أو غائبين، أو إن كان هنالك أحد آخر يحبهم أكثر، يحبهم حبًا أشد. في النهاية، هم أبناء آبائهم دائمًا.

قال: «لست أقول إن هذا يجعل الأمر جيدًا». رفع يده ففرك صدغه بإصبعين. كانت أظافره أهِلّة متقنة... «أنا لست ماهرًا في هذا. يجب أن يكون هو من يوضح الأمر. أأقول لك شيئًا؟... سوف تلتقيان عندما تكونين في لندن المرة القادمة. سوف أرتّب الأمر. واجهيه بهذا. واجعليه يتحمل مسؤوليته. إنه قادر على ذلك. أظن أن شعورك تجاهه سوف يصير أفضل حينها».

«أنا؟ أقابل كارامات لون؟»

السيد «القيَم البريطانية» السيد «التشدد الأمني» السيد «المبتعد عن كل ما يتعلق بكونه مسلمًا». سوف يقول: «أعرف بأمر عائلتك. سيكون وضعكم أفضل من غير أخيكِ أيضًا». وللأسف، سيكون على إيمون، ابنه المخلص، أن يقبل قوله هذا.

«لماذا يبدو لي أن هذا يقلقك كثيرًا؟ سوف يكون لطيفًا... من أجلي». أمسك بخصلة من شعرها وجذبها جذبًا خفيفًا... «الآن، بما أنني رأيت رأسك مكشوفًا، فقد صرت أخًا لك من الناحية العملية، أليس كذلك؟»

«أهكذا أنت؟»

«أعتذر إن كان في ما قلته وقاحة زائدة».

وقفت، ثم استدارت ورفعت كتفيها. قالت بصوت تعمَّدَت أن يكون مرحًا خفيفًا على نحو يجعل ما ظهر عليه من جدية مفاجئة شديدة أمرًا سخيفًا: «لا، لا مشكلة أبدًا. انتظر... لم أعدّ لك ذلك الفنجان من الشاي. وقد صار عليَّ الآن أن أخرج. لديَّ موعد».

«هل ستأتين إلى المقهى بعد ذلك؟»

«لا أظنني آتية اليوم. وقد أنقطع عن المقهى بعض الوقت. لقد دعتني صديقة لقضاء ما بقي من عطلة الربيع في بيتها». لم يكن هذا غير صحيح بالمرة. ففي آخر وجبة العشاء الليلة الماضية، قالت لها هيرا: «يسرّني استقبالك بضعة أيام في الغرفة الإضافية إذا كنت راغبة في شيء من الرفقة. لا أريدك أن تكوني وحيدة وأنت مكسورة القلب هكذا».

«لكن هذا يعني أننا لن نتقابل بعد الآن. سوف أسافر غدًا أو بعد غد. لقد بدأ ذلك التركيز الإعلامي يبتعد عن أبي. وإذا أردتِ الحقيقة فسأقول لك أظنّ إنني أسبب نوعًا من الازدحام في حياة بيت جدي الاجتماعية».

قالت وقد شدت ظهرها وانتصب جسمها: «لا بأس إذن. يسعدني أننا تصارحنا».

«وأنا سعيد أيضًا. إلى اللقاء. أشكرك لأنك كنت رفيقة رائعة في شرب القهوة». تقدم منها وفتح ذراعيه بحركة خرقاء بعض الشيء. لم يكن ما تلا ذلك عناقًا بقدر ما كان اصطدامًا سريعًا لجسدين لم يلبثا أن افترقا. ابتسم لها وأزاح شعره عن وجهه على نحو بدا لها مألوفًا كثيرًا وكأنه حركة من الحركات المتكررة دائمًا لدى واحد من الأشخاص الذين كبرَت معهم. نظرت إليه وهو يرتدي حذاءه الشتوي ثم يزرّر معطفه ويبتسم من جديد ويستدير لكي يخرج. امتدت يده إلى مقبض الباب، لكنها توقفت.

«عصمة».

«ماذا؟» لا يزال أثر من الأمل جاريًا في عروقها.

التقط المغلف المليء الموضوع على طاولة المطبخ، ذلك المغلف الذي يحتوي على شوكولا M&M's... هنالك نكتة تتناقلها بيوت الجيران كلهم عن الغرام الذي نشأ بين العمة نسيم وهذه الشوكولا الأميركية بعد عطلة أمضتها هناك في أواخر الثمانينيات.

«أليس هو المغلف نفسه الذي كان معك في المقهى الأسبوع الماضي؟ ألم تكوني يومها ذاهبة إلى مكتب البريد لإرساله؟»

«إنني أنساه دائمًا».

وضع المغلف تحت ذراعه وقال: «سوف أرسله من لندن».

«لا حاجة إلى هذا».

«هذه ليست مشكلة أبدًا. أرخص وأسرع!»

«أوه، لا بأس. شكرًا لك».

أجابها غامزًا بعينه: «إلى اللقاء يا أختي». ثم اجتاز الباب وأغلقه من خلفه. جرت خارجة إلى الشرفة، وبعد لحظات رأته يخرج إلى الشارع باسطًا كتفيه كما لو أنه ارتاح من ثقل صحبتها. سار مبتعدًا من غير أن ينظر إلى الأعلى. كانت خطواته واسعة.

ركعت عصمة على أرض الشرفة المكسوَّة بثلج خفيف، ثم بكت.

مكتبة
t.me/t_pdf

إيمون

- 3 -

انزلق زورق كاياك عاليًا فوق السيارات المتوقفة في الطريق الدائري الشمالي، وسبحت في إثره بطّتان. توقف إيمون في سيره على مجرى القنال، ثم نظر من فوق السياج. كان الشارع من تحته ممتلئًا بالسيارات المتوقفة إلى أقصى ما بلغه نظره. كل تلك السنوات التي كان فيها في الأسفل، هناك عند تلك السيارات، لم يرَ في هذا الممر المائي المعلق شيئًا أكثر من جسر فوق الطريق. وما كان فيه شيء يوحي بأن هنالك قناة فيها قوارب وحيوانات مائية يحملها التيار فوق رأسك. إن في لندن دائمًا تلك اللندنات الأخرى. نقرت أصابعه على هاتفه فكتبت: «قناة فوق الطريق الدائري الشمالي»، ثم نقر على الرابط الذي ظهر له فأخذه إلى رابط آخر. وسرعان ما وجد نفسه يتابع مقطعًا إخباريًا عن قنبلة زرعها الجيش الجمهوري الإيرلندي على هذا الجسر سنة 1939. وعندما بدأ المذيع يتحدث عما كان يمكن أن يحدث لو دُمرِّ هذا الجسر، نقر زر التوقف في منتصف تلك الجملة، ثم ابتعد مسرعًا.

لكن هذا اليوم لم يكن يومًا مناسبًا لقضاء وقت طويل في القلق من أشياء غير مؤكدة. إنه الأول من نيسان. كانت لندن تتفجر ربيعًا... أزهار الماغنوليا تتفتح بهيجة في شوارع فينيسيا الصغرى حيث انعطف سائرًا في الممر المحاذي للقناة. كان الآن يسير في أرض تشبه بريّةً خارج المدينة: أعشاب طويلة وشجيرات نامية في كل اتجاه، بعضها طويل

بما يكفي لإخفاء الخرائب الصناعية الواقعة خلفها، وبعضها ليس بذلك الطول. ثم تغير المشهد من جديد فصار جميلًا شبه ريفي. بجعات عند ضفة الماء، وبراعم صفراء على أغصان الأشجار، ورجل وكلبه يشخران معًا فوق سطح زورق يسير في القناة، والسماء امتداد كبير من الزرقة فيه بقع من البياض. وعصمة بحضورها غير المرئي سائرة إلى جانبه؛ تعبير وجهها متوتر إلا عندما يستطيع أن يجعلها تبتسم. تساءل إن كانت ستتواصل معه عندما تأتي إلى لندن. قد لا تفعل هذا. رغم محاولة تنقية الجو بينهما في ذلك اللقاء الأخير بعد أن جعلت قصة أبويهما الأمور أكثر غرابة بينهما. حاول تخيل كيف يكون الأمر إذا كبر المرء عارفًا أن أبيه شخص متشدد وأن موته مفتوح على توقعات مفزعة؛ لكن محاولته تلك لم تلبث أن فشلت نتيجة عجزه البسيط عن معرفة كيف يمكن أصلًا أن يوجد شخص مثل عادل باشا في بريطانيا.

ترك مجرى القناة عند أكوام ترابية مرتفعة كانت تجسيدًا لمعنى كلمة «التجديد»، وسرعان ما صار في شارع إيلينغ رود فمر بـ«غورها سوبرستور» و«لحوم غاما هالا» وبمعبد هندوسي مزين بأشكال معقدة منحوتة في حجر أبيض، ثم بأكشاك ومطاعم لامعة مبتهجة. ما كان قادرًا على الإشارة إلى أي شيء محدد يمكنه القول إنه يعرفه، لكنه كان واثقًا تمامًا من أنه نظر من نافذة السيارة إلى هذا الشارع مرات كثيرة في طفولته. «إننا ذاهبون»... كان هذا كل ما يقوله والده قبل ذهابهم السنوي إلى بيت عم والده في كل عيد، في تلك العطلة التي كانت أمه تشرحها له بأنها «نهاية الشهر الذي لا يصوم رمضان فيه أي منّا». في ذلك اليوم من كل سنة، كان أبوه يصير شخصًا آخر؛ وكان إيمون يدرك أن هذا أمر تكرهه أمه بقدر ما يكرهه هو نفسه. كان كارامات لون المحاط بأفراد عائلته الكبيرة كلهم يختفي في لغة أخرى لها إيماءاتها وطبقات صوتها الخاصة، حتى عندما يتكلم بالإنجليزية. وفي إحدى السنوات، وكان

إيمون في التاسعة أو العاشرة، جاء عيد الفطر بعد عيد الميلاد مباشرة. كان أفراد عائلة أمه الأميركية في زيارة عندهم؛ وكانت هنالك خطط في كل يوم للخروج مع أبناء الأخوال والخالات. «لستم مضطرين إلى المجيء معي هذه السنة»، قال أبوه موافقًا بعد مطالبات اختير توقيتها بعناية بعد وليمة عيد الميلاد، ثم ذهب وحده. وفي السنة التي بعدها كان سؤال أبيه «هل تريدون الذهاب معي؟» ثم لم يُبدِ أيّ ممانعة على الإطلاق عندما أجابته زوجته وطفلاه بالنفي. وعندما كبر إيمون إلى الحد الكافي لجعله راغبًا في معرفة ذلك الجزء من حياة أبيه الذي كان لا يزال غامضًا بالنسبة إليه، جاءت قصة تلك الصورة في المسجد وما تبعها من ابتعاد عن أبناء العم من أجل احتواء الضرر الناتج عنها.

كان يقترب من أحد المساجد فعبرَ الشارع إلى الجهة الأخرى حتى يتجنبه، ثم عبرَ الشارع عائدًا حتى لا يرى أحد أنه يحاول تجنب المسجد. كان الجميع يتحدث عن العنصرية التي اضطر أبوه إلى مواجهتها عندما حاول قسم من وسائل الإعلام وصمه بالتطرف، لكن مسلمي لندن هم من أداروا ظهورهم لكارامات لون فامتنعوا عن التصويت له على الرغم من كل ما فعله من أجل ناخبيه. كان هذا كله لأنه عبر عن تفضيله المستنير تمامًا، لأعراف الكنيسة وتقاليدها على أعراف المسجد وتقاليده، وتحدث عن وجوب أن يرتفع المسلمون البريطانيون بأنفسهم فيخرجوا من عصور الظلمات إن كانوا يريدون أن تعاملهم بقية الأمة باحترام.

صار الآن في هاي رود، الشارع ذي المتاجر الرخيصة ومحلات الرهونات. وكان يلتفت في كل لحظة تقريبًا في اتجاه نوافذ ملعب ويمبلي البيضاء كالعظام لما يجده فيها من ألفة تطمئِنه. ثم انعطف شمالًا في اتجاه بريستون رود حيث صار كل شيء سكني الطابع على نمط أحياء الضواحي. من الممكن أن يكون أي بيت من هذه البيوت شبه المتصلة هو البيت الذي أمضى فيه أمسيات العيد تلك كلها حيث كان

يجلس ملتصقًا بأمه بنوع من «الحلف» الذي كانت تحاول دفعه للخروج منه عارفة أنه يفضل أن يكون في الحديقة حيث يلعب الكريكيت مع أبناء عمومته الذكور الذين كانت دعواتهم إليه لكي يشاركهم اللعب واقعة، على نحو محيّر، عند الحد الفاصل بين الصدق والأدب فحسب. أما أخته التي تكون عادة متخلصة من عبء الاندساس في حلف ما، فكانت تمضي وقتها في الطابق العلوي مع بنات عمها حيث ترمي بنفسها في نشوة المشاعر العائلية التي لا تلبث أن تختفي فور عودتهم إلى هولاند بارك. كان الكل يقول إنها ابنة أبيها؛ وهو زعم كانت تبرهن عليه من خلال صعودها الواثق، في سن الثانية والعشرين، في عالم المصارف الاستثمارية في مانهاتن.

وفي الحالات النادرة عندما كان يتذكر عائلة أبيه، لم يكن ذلك أكثر من تذكر مشاعر الغربة التي تستحضرها زياراته إليهم، إلا أن الوقت الذي أمضاه مع عصمة قد ذكره بأنه كانت هنالك مشاعر أخرى، مشاعر فيها قدر أكبر من الألفة العائلية. أثارت عصمة في نفسه خاصة ذكرى ابن عم أبيه الأصغر الذي وضع ذات مرة لصاقة طبية على مرفقه عندما تعثر في الحديقة فجُرِح ذراعه، ثم أشفع اللصاقة بقبلة شافية على ذلك المرفق. تساءل في نفسه إن كان بدوره قد ذكّر عصمة بأخيها برويز، ذلك الأخ الأصغر التي لم تشِرْ إليه إلا عرضًا عندما قالت إنه توأم تلك الفتاة الجميلة التي في الصورة.

كان يسير في شوارع جانبية متعرجة أحسَّ كما لو أنه يعرف أنها بنيت تمامًا على امتداد تلك الطرق الريفية القديمة في زمن أحدث عهدًا مما قد يفترضه المرء. في هذا المكان، تجلت له المسافة بين حياته وحياة أبيه بحدة أكبر مما فعلت في غرب لندن. كانت هذه لندن طفولة كارامات لون؛ وكانت هذه بيوت أقربائه الموسرين الذين كانت حياتهم تلهم والده عندما كان يسهر الليالي في شقته الصغيرة المزدحمة في برادفورد يراجع

دروسه قبل الامتحانات. لم يكن قادرًا على فتح كتبه على ذلك السطح الذي كان طاولة إعداد الطعام وطاولة الأكل ومكان عمل أمه الخياطة إلا في وقت متأخر من الليل. وعلى الجدار الذي قبالته، كان هنالك ملصق كبير للكعبة وحشود المؤمنين ساجدة من حولها. يعرف إيمون هذا التفصيل الأخير من خلال صورة من الصور القليلة التي احتفظ بها أبوه من أيام طفولته... صورة كان يريد سؤاله عنها لكنه يحس حرجًا شديدًا.

أخيرًا، اقترب إيمون من الشارع الذي ترعرعت فيه عصمة، شارع متفرع عن المنطقة التجارية في بريستون رود. بعد أن صار هنا، أحس بشيء من الغرابة والحرج لأنه لم يكتف بإرسال الطرد عن طريق البريد فظل سائرًا بعض الوقت في بريستون رود. مرّ أولًا بمخبز يهودي وإلى جانبه مكتبة إسلامية ومن بعدها قصّاب روماني، ثم استدار عائدًا من جديد إلى شارع عصمة. كان غير قادر على أن يبعد عنه إحساسه بأن جزءًا من طفولته موجود خلف تلك الأبواب... جزء من والده... جزء كان استعداده لنسيانه أكثر مما ينبغي له أن يكون. قرع باب بيت مكسوٍّ بطبقة من الإسمنت تخالطها حبات حصى صغيرة ففتحت له الباب امرأة في سن الكهولة جعلها التقدم في السن أقصر قامة. كانت في «شالوار كَميز»[1] ومن فوقه سترة صوف طويلة ثقيلة تنبئ بأن مقياس الحرارة الداخلي عندها لا يزال مضبوطًا وفق مناخ بلاد أخرى. لا بد أنها العمة نسيم، الجارة الصديقة العجوز التي كانت شقيقة عصمة تعيش عندها خلال دراستها القانون. قال لها إن معه شيئًا لها أرسلته عصمة. وهذا ما جعلها تفتح الباب متسعًا وتمد يدها فتضع راحتها على وجنته قبل أن تستدير في اتجاه الداخل قائلة له: «ادخل، واشرب الشاي».

---

(1) **شالوار كَميز**: نوع من الملابس شائع في شبه القارة الهندية، يستخدمه الرجال والنساء. وهو مؤلف من «**شالوار**»، أي بنطلون فضفاض، و«كَميز»، أي قميص طويل الكمين.

اللوحة ذات الكتابة العربية على الجدار، والسجادة التي تغطي درجات السلم، والأزهار البلاستيكية في المزهرية، ورائحة التوابل في المطبخ رغم عدم وجود شيء على الموقد: كل هذا أعاد له ذكريات بيت عم أبيه، وعادت معه ذكرى مخجِلة أيضًا، ذكرى إحساسه بالحرَج من هذا كله.

أخرج مغلف عصمة من حقيبته التي يحملها على كتفه وقدمها إلى السيدة العجوز التي ضحكت مسرورة عندما هزّته فحزرت محتواه. «يا لها من فتاة ذكية، تلك الفتاة. هل تريد السكر مع الشاي؟» وعندما أجابها قالت: «أنتم البريطانيون... لا تضعون السكر في الشاي أبدًا. أحفادي هكذا أيضًا. وبناتي، نصف هكذا ونصف هكذا... واحدة نعم وواحدة لا. كيف تعرفت على عصمة؟ وما عملك؟»

أدهشتها قصة الرجل الذي كان في حاجة إلى من ينقذه من طاولة البيع الخالية في المقهى، لكن وجهها اتخذ تعبير خيبة الأمل عندما قال لها إنه «ترك العمل مدة سنة». وهذا ما جعله يقول: «من الممكن جدًا أن أعود إلى العمل نفسه، لكن ربما في شركة شخصية صغيرة». سألته: «هل تعني متجرًا شخصيًا؟» فظل لحظة قبل أن يتمكن من استعادة الكلمات التي قالها فجعلتها تصل إلى ذلك الاستنتاج. ضحكت عندما أوضح الأمر لها وضربته على يده ضربة مازحة مرحة فما كان منه إلا أن ضحك أيضًا متمنيًا لو أنه عرف جدته لأبيه... «دادي».[1] لقد توفيت جدته قبل مولده بسنة، وسرعان ما تبعها زوجها الذي كان يعمل بائعًا في كشك للصحف. «مات لعجزه»... هكذا كان يقول والد إيمون.

سرعان ما بدأت تقلي له الساموزا[2] كما لو أنها أرادت إدخاله ضمن نمط محدد من العلاقة. أما هو فبلل نهاية الخيط بلسانه وأدخله في

(1) جدة في لغة أوردو.
(2) السمبوسك.

ثقب الإبرة مثلما أمرته أن يفعل. قالت له إنها أتت إلى لندن قادمة من كوجرانوالا في الخمسينيات؛ فقال لها إن جده وجدته وفدا قادمين من سيالكوت. لا، إنه لا يتكلم اللغة البنجابية. لا، ولا يتكلم الأوردو أيضًا. «الإنجليزية فقط؟» وبعض الفرنسية أيضًا. قالت له: «لقد حارب أبي في الجيش الهندي البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى. كان في فرنسا بعض الوقت، وسكن مع أسرة هناك. كان الزوج والأبناء في تلك الأسرة جنودًا أيضًا، أي أنه كان يعيش مع النساء فقط. كان يقول لأطفاله بعد سنين من ذلك Je t'adore[1]. أتساءل بعد موته عمن يكون قد علمه تلك الكلمات. والآن، مدّ ذراعك».

اتضح أن الإبرة التي أدخل الخيط فيها كانت من أجله هو. لقد لاحظت زرًا مرتخيًا في كمه؛ وسرعان ما وجد نفسه ينظر إلى خصلات شعرها الأسود المصبوغ عندما انحنت لتشبك ذلك الزر وهي تتابع كلامها.

قال لها: «شوكريا».[2] فجرت تلك الكلمة مرتبكة خرقاء على لسانه. وبعد لحظة الصمت بدا لها خلالها أن من الضروري أن يضيف شيئًا إلى تلك الكلمة... «يا عمة»، فكافأته بتربيتة أخرى على خده. كان يظن أن كرمها وعاطفتها وترحيبها به مظهر من مظاهر حسن الضيافة الباكستاني الشهير الذي كان أبوه يتنهد أحيانًا ويتحدث عنه مبديًا أسفه لأن حياة طفليه قد صارت «إنكليزية» إلى حد كبير (هذا ما كانت ترد عليه والدة إيمون بالقول إن ذلك الكرم «رائع بشكل مجرد، وأما عندما تعيشه في الواقع فسوف تجده اقتحامًا لحياتك وعبئًا ثقيلًا عليك»)؛ لكنها قالت له عند ذلك: «إذن فقد أرسلتك عصمة لكي تزورنا».

وضع من يده قطعة الساموزا التي صار واضحًا له فجأة أنها قُدمت إليه

(1) أحبك أو أعبدك (في اللغة الفرنسية).
(2) – شكرًا لك في لغة أوردو.

بموجب افتراض غير صحيح. «ليس هكذا بالضبط. في الحقيقة... لا. قلت لها إنني سأرسل المغلف في البريد. لكني وجدت هذا النهار جميلًا ففكرت في الخروج في نزهة طويلة على القدمين وإيصاله بنفسي».

«هل أتيت سائرًا على قدميك؟ المسافة كلها من نوتينغهيل، حتى ترانا!»

«إنها نزهة لطيفة. وأنا أحب اكتشاف أجزاء جديدة من لندن... القناة، في هذه الحالة». قال هذا لأنه بدا له طريقة ناجعة لتبديد ما لديها من سوء فهم مع عدم اضطرار أحد منهما إلى ذكره ذكرًا مباشرًا.

«أوه، لقد أخبرتْك عصمة كم كانت تحب المشي على امتداد القناة».

أمسك بقطعة الساموزا من جديد وقضم قطعة منها. سوف تجعلها عصمة تفهم طبيعة الأمر عندما تتحدث معها. ما كان لديه شك أبدًا في أن العمة نسيم ستسارع إلى الاتصال بها فور ذهابه.

«إنني أعرف عصمة منذ ولادتها. كانت جدتها صديقتي الأولى في لندن. وكنا نعيش بالقرب من هاي رود... شيء مختلف تمامًا عن معيشتنا الآن. لم يكن في المنطقة كلها أي آسيويين آخرين. وفي يوم من الأيام، رأيت على الناحية الأخرى من الشارع امرأة مرتدية شالوار كَميز. عبرت الشارع جريًا، وسط حركة السير، فأمسكت بذراعها وظللنا هناك نتحدث زمنًا طويلًا إلى حد جعل زوجي يخرج باحثًا عني. وعندما انتقلنا إلى هذا الشارع، قلنا لهم: تعالوا معنا. لا يمكن أن نفترق! وهكذا، انتقلوا هم أيضًا. وهنا ولدت عصمة وكبرت. ما أكثر الحزن في حياتها!... لقد رعت التوأمين وهي لا تزال في سن صغيرة حقًا. لقد حان الوقت لأن يعتني أحد بها».

أنقذه صوت خطوات على السلم من معاناة مزيد من الحرَج في هذا الحديث.

«لدينا ضيف. شاب في غاية اللطف. لقد أرسلته عصمة». تراجع

صوت الخطوات على السلم، وخفضت العجوز صوتها: «هذه أنيقة. سوف تنزل بعد أن تصلح زينتها. في أيامي، إما أن تكون الفتاة ممن تغطين رؤوسهن أو ممن تستخدمن مواد التجميل. أما الآن، فكل شخص هو كل شيء في الوقت نفسه».

كان يهم بالذهاب، لكنه مد يده إلى قطعة ساموزا أخرى بدلًا من ذلك. وبعد بضع دقائق، اقترب صوت الخطوات من جديد. كانت المرأة التي دخلت الغرفة أقصر قامة مما توقعه عندما رأى صورتها... قصيرة القامة فعلًا، ومن غير أي شيء يوحي بالشقاوة التي لمحها في تلك الصورة... لكن جمالها ظل على حاله. وقف إيمون، وكان منتبهًا إلى الدسم الذي على أصابعه، وكذلك السؤال الذي ألحَّ عليه... كيف يستخدم هذه الأصابع لفك الحجاب الذي يؤطّر وجهها. حيّته بنظرة حائرة أكدت له كم أن من المستبعد أن تكون عصمة قد أرسلت شخصًا مثله لمقابلة أسرتها. قدمته السيدة العجوز باسمه الأول (لم يقل لها غيره) فلم يتغير شيء في تعابير وجه أنيقة إلا أنها تصلّبت قليلًا.

«إن اسمه يبدأ بحرف إ وليس بحرف آ، يا عمتي. إيمون لون، أليس كذلك؟»

«هل أخبرتك عصمة عني؟»

«ما الذي تريده هنا؟ ولماذا تعرف أختي؟»

«لقد تعرف على عصمة في نورثسامبتون، في مقهى». قالت المرأة هذا وهي تقترب من إيمون وتضع يدها على ذراعه ناظرة إليه نظرة اعتذار لا عن سلوك الفتاة وحده، بل عن شهقتها التي عبرت عن خيبة أملها عندما ذكرت الفتاة اسم عائلته... «لقد مشى طيلة المسافة من نوتينغهيل ليجلب لي M&M's. أتي مشيًا في طريق القناة».

نظرت الفتاة إلى المغلف وإلى الكتابة التي عليه بخط عصمة، ثم نظرت إليه وقد ظهرت الحيرة على وجهها.

«كانت نزهة جميلة. تمر القناة فوق الطريق الدائري الشمالي، يمر فوق جسر مائي هناك. لم أكن أعرف هذا أبدًا. لقد حاول الجيش الجمهوري الإيرلندي نسفَه في سنة 1939. لو حدث هذا، لغمر طوفانٌ منطقة ويمبلي كلها». لم تكن لديه أيّ فكرة إن كانت المعلومة الأخيرة صحيحة، لكنه أرادَ أن يقول شيئًا ملفتًا للنظر بحيث ترى الفتاة أنه قد يكون شخصًا مناسبًا حتى يقع عليه اختيار أختها لشرب القهوة معه، وبحيث ترى أنه ليس مجرد شخص موسر متأنق يبدو نشازًا في هذا المطبخ وفي حياة عصمة أيضًا. «يمكنك أن تري مقطعًا إخباريًا عن ذلك. ابحثي عن قناة فوق الطريق الدائري الشمالي أو شيء من هذا القبيل، وسوف يظهر لك».

«نعم... لأن هذه فكرة جيدة إذا كنت GWM، أليس كذلك؟»

«لست أعرف معنى هذا».

«معناه: أن تبحث في غوغل وأنت مسلم.(1) عمتي، هل أخبرتك عصمة أي شيء عن هذا الشخص؟»

قالت العمة نسيم متذاكية: «لماذا لا نتصل بها الآن؟» لكن الفتاة التي يصير فهمها أكثر صعوبة مع كل ثانية تمر قالت لها: «من فضلكِ، كفي عن محاولة جعلي أتحدث معها. على أية حال، يجب أن أخرج الآن. وأنت يا سيد لون، يمكنك أن تخرج معي بما أنك أنجزت مهمة إيصال الـM&M's».

على الرغم من أصوات الاحتجاج التي صدرت عن العمة نسيم، نهضَ إيمون وتبع الفتاة إلى الخارج. لم تقل له شيئًا إلى أن بلغا نهاية الشارع. وعندها استدارت بحدة على عقبيها فواجهته: «ما الذي يجري؟»

أجابها رافعًا كفيه: «لا أعرف حقًا ما تعنين بهذا السؤال. لقد قمت

---

(1) to Google it When Muslim

بإيصال شيء أرسلته عصمة. التقيتها في إحدى المقاهي مثلما قالت لك عمتك. في ماساشوستس. وصرنا صديقين، نوعًا ما. بريطانيان التقيا خارج البلاد».

توقف إلى جانب أنيقة رجلٌ في بدلة حمراء فاقعة يبدو عليها أنها لم تعرف الغسل منذ سنين كثيرة، ثم مد في اتجاهها قطعة مربعة من فراء قذر وقال لها: «هل سبق لك لقاء قطتي قبل الآن؟»

وقبل أن يتمكن إيمون من التدخل وإظهار فروسيته، مدّت أنيقة يدَها فمسّدت الفراء القذر بحركة رقيقة كما لو أنه شيء ثمين. قالت للرجل: «بالطبع، أنا أعرف مونغ يا تشارلي. فأنا وهي صديقتان منذ زمن بعيد». ضحك الرجل مسرورًا ودس قطعة الفراء تحت سترته، عند قلبه، ثم تابع سيره.

بعد لحظة الرقّة تلك، كانت القسوة في صوتها عندما عاد انتباهها إليه مزعجة حقًا: «هذا لا يوضح السبب الذي جعلها ترسلك إلينا».

«لم ترسلني. لقد اقترحت عليها إرسال المغلف من هنا». لم يستطع تخيل كيف يمكنه أن يوضحَ لهذه المرأة مقدار فضوله لمعرفة جزء ضائع من أبيه؛ فقال لها بدلًا من ذلك: «حسنٌ، هذا محرج، لكني رأيت صورة أخت عصمة وأردت أن أعرف إن كان ممكنًا لامرأة أن تكون بذلك الجمال».

رمته بنظرة التقزز التي يستحقها بالضبط لقاء ما قاله، ثم سارت بخطى واسعة مبتعدة عنه من غير أيّ كلمة أخرى.

***

خرج القطار من محطة بريستون رود، فاستدار في مقعده لينظر إلى البيوت على امتداد السكة الحديدية، ومن وراء حديقة واحد من تلك البيوت وجداره الخلفي، رأى فتاة ترتفع طائرة، ثم تبقى معلقة في الهواء

لحظة، ثم تسقط، ثم تطير مرتفعة من جديد. إنه ترامبولين. مدت يديها وساقيها كأنها نجمة بحر، فرفع يديه محاكيًا حركتها رغم معرفته أنها غير قادرة على رؤيته. واصل النظر عبر النافذة بعد أن ازدادت سرعة القطار وخلّف محطة بريستون رود وراءه.

وعندما استدار أخيرًا وصار وجهه متجهًا إلى الأمام، اقتربت منه امرأة كانت واقفة على مسافة منه في عربة القطار شبه الخالية، ثم جلست إلى جواره.

سألته أنيقة: «هل تعيش وحدك؟»

«نعم».

«خذني إلى بيتك».

***

بعد تلك الجرأة في جملتها الأخيرة، لم تكد تقول شيئًا طيلة الطريق من بريستون رود إلى نوتينغهيل. حاول في البداية أن يملأ الصمتَ بحديث عن عصمة. إلا أن ردَّها جعل من الواضح له تمامًا أن علاقتهما ليست علاقة القرب التي صوّرتها عصمة له. بدأ يقول: «هل أخبرَتْكِ...»، لكنها أجابته سريعًا: «أكتشف الآن أن قائمة الأشياء التي لم تخبرني بها عصمة أطول بكثير مما كنت أظنه»؛ وهذا ما جعل أي كلام إضافي في هذا الأمر مستحيلًا تمامًا.

خلال سيرهما من محطة القطار إلى بيته، كانت تنظر من حولها كأنها سائحة. أما هو فقد أحسَّ بالحرج نتيجة ثراء الحي الذي يعيش فيه بينما هو عاطل عن العمل. ثم ازداد حرَجه عندما دخلا شقته التي دفعت أمه إيجارها وتكلفة ديكورها: شقة فيها مساحة مركزية مفتوحة تضم مطبخًا وغرفة معيشة ومنطقة طعام على مساحة تكاد تبلغ نصف مساحة ملعب. جعل هذا المشهد أنيقة تقول له: «هل تعيش هنا وحدك حقًا؟»

أومأ برأسه وسألَها إن كانت تريد أن تشرب قهوة أو شايًا. طلبت قهوةً ثم استدارت وراحت تسير في شقته وتنظر إلى الصور المؤطّرةَ على الرفوف... صور عائلية، وصورة التخرج، وصورة من حفلة خطوبة صديقيه ماكس وأليس.

سألته وهي ترفع عينيها عن الصورة الأخيرة: «هل لك صديقة من الفتيات في هذه الصورة؟»

كان واقفًا عند آلة صنع القهوة في الناحية الأخرى من الشقة، لكن إجابته المشددة «لا، إنني عازب» كانت كافية لأن تُسمع من الناحية الأخرى من غرفة يبلغ طولها ضعفيّ هذا المكان. انتظر إلى أن عادت إلى المطبخ وجلست على كرسي مرتفع عند طاولة إعداد الطعام قبل أن يسألها: «وماذا عنكِ؟ هل لديك صديق؟»

هزت رأسها نفيًا، ثم غمست إصبعها في الرغوة التي على سطح القهوة لتعرف مقدار عمقها، ولم تلاقِ عيناها عينيه. لماذا أنتِ هنا؟... لم يبدُ هذا له سؤالًا يستطيع طرحه، بل قد يجعلها تذهب، وهذا ما لم يكن يظن أنه يريده رغم صعوبة معرفة ما قد تريده امرأة جميلة صامتة محجَّبة جالسة ترتشف قهوتها في شقتك.

وحتى يقول شيئًا، أشار إلى غطاء رأسها وقال: «عصمة تفضّل العمامات».

فكّت حجابها، ثم طوته بعناية ووضعته على الطاولة بينهما، ثم خلعت القبعة الرقيقة المشدودة التي كانت تحته. هزت رأسها قليلًا فانسدل شعرها الأسود الطويل على كتفيها في مشهد كأنه مأخوذ من إعلان عن شامبو ما. نظرت إليه نظرة ترقب.

كان إيمون يعرف ما يفعله عندما تطلب منه امرأة أن تأتي معه إلى بيته ثم تبدأ خلع ملابسها. لم تكن هذه حالة لم يألفها. لكنه لم يكن يعرف إن

كانت هي تلك الحالة الآن. لكن، إن لم تكن كذلك، فما عساها تكون؟

انحنى إلى الأمام ووضعَ مرفقَه على الطاولة، ثم أراحَ ذراعَه على السطح الزجاجي الفاصل بينهما، راحتها إلى الأعلى، مستقرة على مسافة من يدها كافية لأن تكون دعوة، لكنها أيضًا مسافة تكفيها لأن تتجاهل تلك الحركة من غير كبير حرَج. أفرغت ما بقي من قهوتها بجرعة واحدة، ثم مسحَّت فمَها بظهر يدها فانطبعت عليه بقعة من أحمر شفاهها، ثم وضعت يدَها على معصمه. رغوةُ القهوة وأحمر الشفاه على جلدها. كان منتبهًا إلى ضربات قلبه الصاخبة وإلى النبض في معصمه يقفز مطاولًا يدها. وعند ذلك ابتسمت، أخيرًا. أخذت يده الثانية ووضعتها على صدرها، لكن من فوق القميص. كانت تلك إشارة محيّرة أيضًا إلى أن أدرك... لا، ليس ثديها... لقد وضعت يده على قلبها الذي كان نبضه عنيفًا أيضًا.

قالت له: «إننا متوافقان». فجعله الوعد الذي سمعه في صوتها يرى الحالة مألوفةً، لكنها جديدة على نحو مثير.

***

في الصباح التالي، كان يضغط بأنفه على الأريكة متنفسًا رائحتَها. هذه السطوح كلها التي في بيته... الجدران والسرير والأريكة... تحمل أثر عبيرها. سار من سطح إلى آخر وحواسّه لا تزال مفعمة بها.

تلفّت ناظرًا إلى الغرفة من حوله. كيف يمكن أن تبدو تمامًا مثلما كانت تبدو بالأمس؟ يجب أن تظهر كأن عاصفة قد اجتاحتها. يجب أن تكون فيها مزهريات مكسورة وستائر ممزقة وقطع أثاث منقلبة. يجب أن يكون فيها ما يعكس هذا الشعور بالاضطراب العنيف، بتغير كل شيء. وقف أمام المرآة ومسّ الخدش على كتفه كما لو أنه أثر مقدَّس. لديه هذا، على الأقل! يضم يديه ويرفعهما إلى وجهه متنفسًا فيهما. إنه طقس صلاته الشخصي.

كانت متردّدةً محجِمة بعض الشيء، أول الأمر. ابتعدت عنه خلال قبلتهما الأولى، وبدأت تضع حجابها على رأسها قبل أن تقنعها توسّلاته بالبقاء. ثم انجرفت الأمور في اتجاه آخر فبدت كأنها تظن أن عليها أن تُثبتَ له أنها تريد البقاءَ حقًا مثلما اعتادت أن تفعل فتاة مراهقة كانت تقضّ مضجعه في سنوات مراهقته... واحدة من تلك الفتيات اللواتي تحسّبن أن عليهن إعطاءَ الفتيان الأكبر سنًا كلَ شيء من غير توقّع أي شيء منهم في المقابل. وهكذا، فقد أوقفَها وجعلها ترى أن الأمرَ لا يمكن أن ينجحَ هكذا، فقالت له «أنت لطيف» كأنما كان هذا مفاجئًا لها. ثم بدأ كلٌ منهما يكتشف الآخر على ذلك النحو البطيء السريع الذي يعرفه العشّاق الجُدد... تذوّقٌ واستكشاف وبناءٌ لما كان يتعلمه كل منهما عن الآخر.

استيقظ عند الفجر فاكتشفَ أنها نهضت من السرير الذي قصداه آخرَ الأمر. وعندما سمع صوتَ الدوش في هذا الوقت المبكر، ظن أنها اعتزمت الذهاب من غير أن تودعَه. لكنها خرجت من الحمام فلم تتجه خطواتها في اتجاه باب الشقة. وفي آخر الأمر، خرجَ من السرير وذهب إلى غرفة المعيشة فوجدها تصلّي وقد جعلت منشفةً سجادةَ صلاة لها. لم يكن حجابها أكثر من وشاح ملفوف على رأسها من غير إحكام ومن غير ذلك التثبيت المتقن أو القبعة الضيقة من تحته. لم يبدر منها ما يشير إلى أنها شعرت بوجوده غير انحراف بسيط لكتفيها عندما استدارت مبتعدة عن جسده العاري. كان عليه أن يخرج من الغرفة على الفور، لكنه لم يستطع منع نفسه من النظر إلى هذه المرأة، إلى هذه الغريبة، ساجدة

. لم يكن ما جعله يعود أخيرًا إلى السرير متسائلًا إن كانت ستعود إليه مثله إلا عمق انغماسها في عالم مختلف تمامًا عن عالم الأجساد والحواس.

سألها عندما عادت إلى الغرفة وبدأت تفك أزرارَ قميصها ذي الكمين الطويلين بادئةً من عند رقبتها: «لماذا كنت تصلين؟»

«الصلاةُ ليست تبادلًا تجاريًا يا سيد رأسمالي، بل هي أن تبدأَ يومَك بدايةً صحيحة».

كان لهذه الكلمات أثرٌ حسَنٌ وأثر سيء. أمسك لسانه فلم يقل لها إنه قادر على قول الشيء نفسه عنها. كلما ظهرت إمكانية لبدء الكلام، فإنها تفضل أكثر الأحيان أن تريح رأسها على ذراعيها وتنظر إلى السقف أو تغمض عينيها مديرة ظهرها له وتضغط بعقبَيْ قدمَيْها على ساقَيه بمزيج من الصدّ والألفة الحميمة. ظل ينظر إليها وهي تخلع ثيابها إلى أن لم يبق شيء غير الوشاح الأبيض الذي يغطي رأسها. تدلت نهاية القماش الناعم حتى أسفل ثديها، وكانت النهاية الأخرى ملقاة على كتفها.

سألته: «هل أتركه هكذا؟» لقد تعلّم لتوّه أنها تفضل أن يكون كل جديد تقدّمه له مطروحًا أول الأمر في صيغة سؤال. لم يكن هذا لشَكّها في رغبته مثلما حسب أول مرة، بل لأنه بدا مهمًا لها أن تسمع الإجابة «نعم»، بكل ما فيها من نبرات الرغبة والطلب. لكنه تردّد الآن رغم أن ردود أفعال جسده كانت إجابة كافية عندما لمست حلمة ثديها من خلال القماش القطني الأبيض الرقيق فرأى تضاد اللونين. مد يده إليها، لكنها تراجعت وكررت السؤال. أجابها: «نعم، من فضلك».

إنه الآن يلتقط قطعة النسيج البيضاء عن الأريكة ويلفها حوله كأنها إزار، ثم يضرب صدره بقبضتيه ويطلق أصواتًا كأصوات الغوريلا. قبل

ذهابها، وضعت ذلك الشيء الضيق المحكَم الذي تسميه «القلنسوة» متجاهلة تعليقه عندما قال إن هذا اسم «فائض» مثل أن نقول «تشاي شاي» أو «نان»[1]، ثم أخرجت وشاحًا أزرق من خزانته الجدارية وبدأت تلفه حول رأسها. قال لها: «لماذا تظنين أن عليك فعل هذا؟» فمرت بنهاية الوشاح على رقبته، ثم قالت: «عليَّ أن أختار أي أجزاء أسمح للغرباء بالنظر إليها وأيّ أجزاء لك أنت». لقد أعجبته هذه الإجابة. أعجبته رغمًا عن إرادته، ورغمًا عن ذاته نفسها. قردٌ غبيّ!

بعد الإفطار، استلقيا معًا على الأريكة في بقعة من ضوء الشمس، ربما كانت ضخامة الوسائد أو فكرة أن عليها أن تذهب بعد قليل هي ما جعلها آخر الأمر تتكور ملتصقة به وتضع رأسها على صدره.

قال لها مترددًا: «الحقيقة أن عصمة تتحدث عنك كما لو أن بينكما تقارب كبير».

ظلت صامتة بعض الوقت، فتساءل إن كان ذكر عصمة فكرة سيئة. كان يحس نوعًا غريبًا من الذنب تجاهها، تجاه عصمة التقيّة المحتشمة. لن توافق أبدًا على ما فعلاه هنا. وإن كان يفكر هكذا، فمن المؤكد أن لدى أنيقة الفكرة نفسها أيضًا. مرر أصابعه في شعرها متسائلًا في نفسه عما إذا كان رفض أختها سببًا كافيًا لجعلها لا تعود إليه أبدًا. احتضنها بقوة.

قالت له: «كنا قريبتين جدًا. لكني لم أعد أريد أن تقترب من حياتي. هل أنت على تواصل معها؟»

«ليس بعد أن رحلت عن أميركا. لكني كنت أفكر في أن أكتب لها رسالة صغيرة أخبرها فيها بأنني زرت بيت العمة نسيم. لماذا تسألين؟ هل تفضلين ألّا أكون على تواصل معها؟»

---

(1) نان: خبز في لغة أوردو

«إن طلبت منك هذا، فهل تفعله؟»

«أظن أنني سأفعل أيّ كمية من الأمور السيئة إذا طلبتِ ذلك مني».
قال لها هذا وهو يمرّ بإصبعه على شامة على ظهر يدها... «لكن، لا تعتبري أنني أفعل شيئًا كبيرًا إن قمت بهذا. فهي لم تكتب لي أيضًا. أظن أننا ندرك، كلانا، أنها كانت صداقة من صداقات العطلات حيث لا يكون لمتابعتها بقية حياتك أي معنى». وأما التعقيدات المتعلقة بأبيه وأبيها فلم تكن موضوعًا يمكن أن يجد حاجة إلى إثارته وهما عاريان، مستلقيان معًا.

حلت فترة صمت أخرى، ثم قالت له: «بعد أن أذهب الآن، هل ستكون راغبًا في رؤيتي من جديد؟»

«لا أصدق أنك جادة في طرح هذا السؤال».

«إن كان هذا سيستمر، فأنا أريد منك أن تفعل شيئًا مجنونًا من أجلي. دعني أكون سرّك».

«ما معنى هذا؟»

وضعت راحةَ يدها على وجهه وشدته ببطء إلى الأسفل: «لن أخبر أحدًا عنك. لا تخبر أحدًا عني. سيكون كلٌ منّا سرّ الآخر».

«لماذا؟»

قالت له وهي تدسُّ فخذَها العاري بين ساقيه: «أنا لا أسألك لماذا عندما يتعلق الأمر بنزواتك، أليس هذا صحيحًا؟»

أجابها: «أوه، هذه نزوة إذن!» قال هذا وقد شتتت انتباهَه بداية حركة ترددية لفخذها، شتته احتكاك جلدها بجلده.

«لا أريد أن يرغبَ أصدقائي في معرفة متى يمكنهم التعرفَ عليك. ولا أريد أن تدعوك العمة نسيم إلى تناول الطعام عندها. ولا أريد أن تظن عصمة أن بإمكانها استخدامك للوصول إليّ. ولا أريد أن يفسّر لنا

الآخرون ما نريده. وأيضًا، لا أريدك أن تريد أي شيء من هذا. أريدك أن تريدني فحسب، هنا، معك. قل نعم».

«نعم»... نعم، نعم، نعم.

* * *

اكتشف خلال الأيام القليلة التي أعقبت ذلك أن فكرتَها عن السرية تعني أنه لا يستطيع الحصول على رقم هاتفها، ولا يستطيع الاتصال بها عن طريق الإنترنت. والحقيقة أنه لم يستطع العثور عليها هناك، رغم بحثه. وليس مسموحًا له أن يعرف متى تعتزم المجيء إليه ومتى تعتزم الذهاب. كانت تظهر، ببساطة هكذا، في وقت ما من أوقات النهار فتظل بعض الأحيان عنده وقتًا قصيرًا لا يكاد يكفي لأن يكملا خلع ملابسهما، لكنها تبيت عنده في مرات أخرى. كانت «السرّية» أشبه بعقار منشط للشهوة يزداد قوة مع استمراره فتصير كل لحظة ممتلئةً باحتمال ظهورها. وهكذا، لم يكن هنالك وقت يمر عليه خارج البيت إلا ويجد نفسه راغبًا في العودة إليه. ولم يكن يمضي لحظة من غير أن يسرع إلى الباب كلما تخيل أنه يسمع وقع خطوات أو كلما سمع صوت جرس يرن. سرعان ما وجد نفسه غير قادر تقريبًا على التفكير في أي شيء، إلا فيها. لم يكن الأمر متعلقًا بالجنس فقط، رغم أنه كان يفكر فيه كثيرًا. تلك الأشياء الأخرى أيضًا: تركيزها الشديد عندما تنظف أسنانها بالفرشاة فتنقر بأصابعها على حافة المغسلة لتحصي عدد ضربات الفرشاة إلى الأعلى والأسفل، ثم إلى الجانبين؛ وعادتها في رش جسدها قبل الاستحمام بكولونيا الحلاقة التي يستعملها وزعمها أن رائحتها تظل تحت جِل الحمام لكنها تكون رهيفة جدًا فلا يشم رائحتها غيرها؛ وطريقة تحوّل وجهها إلى شيء يشبه الرسوم المتحركة... عينان ضيقتان وشفتان مضغوطتان معًا، وأنف متغضّن... عندما تأكل شرائح الليمون المملحة التي تتناولها مع شايها الصباحي؛ ودقة تقيدها بوصفات الطبخ عندما

يعضّ سنّها على شفتها السفلى وهي تكيل المقاديرَ حتى عندما تمتدح مهارتَه في الطبخ ارتجالًا. أنيقة تجفف شعرَها بالمنشفة؛ أنيقة متوازنة في جلستها متصالبة الساقين فوق كرسي المطبخ الصغير؛ ووجه أنيقة وقت علَته ملامح الرضا عندما يأخذ قدميها ويدلكهما.

في البداية، كان يخشى احتمالَ أن تختار، ببساطة، أن تَكفَّ عن المجيء إليه في يوم من الأيام. كان في طبعها تقلّبٌ شديد، عاطفيةٌ تارةً وبعيدةٌ تارةً أخرى. بل إنها في مرة من المرات ابتعدت عنه في لحظة جعلته يصرخ قانطًا وقولها له «لا، لا أستطيع»، ثم ارتدت ملابسَها على عجل وخرجت من البيت رافضةً أن تشرح له شيئًا. خُيّل له يومها أن أوامرَ ربها جعلتها راغبة في إنكار ما كان واضحًا أنها غير راغبة في إنكاره؛ وكان يعرف تمامًا أنه غير قادر على الفوز في أية مجادلة في هذا الاتجاه فلم يجدْ شيء يفعله غير البقاء هادئًا والثقة في أن ما لمحه عندها من طبع عنيد جامح يضمن أن ما من كائن مجرّد يستطيع أن يحدد لها قواعد حياتها.

كان يفكر أحيانًا في الاتصال بعصمة، فقط حتى يتحدث مع شخص يعرف أنيقة. فقط حتى يسمع اسمها على لسان شخص آخر. لكن أنيقة لم ترِد ذلك، ولم يكن مستعدًا للمخاطرة بأن يجد نفسه عالقًا في نزاع بين أختين، نزاع اتضح له أنه دائر حول مسألة إرث.

«كان هنالك شيء يخصّني. وكان لها بعض الحق فيه، لكنه كان يخصّني أكثر. إنه شيء من أمنا. وقد أخذته عصمة مني». صحيح أنه ما كان قادرًا على تصديق أن عصمة يمكن أن تسرق شيئًا، إلا أنه استطاع تخيل إقدام عصمة على اتخاذ قرار بيع شيء مما ورثته الأسرة لأسباب مالية وأنها لم تر سببًا يدعوها إلى مناقشة الأمر مع أختها التي كانت تتحدث عنها أحيانًا كما لو أنها لا تزال طفلة في حاجة إلى رعاية أمومية.

سألها: «وما رأي أخيك في هذا؟»

كان هذا الأخُ شبحًا زلِقًا في عقل إيمون، شبح اسمه برويز، حليفٌ أحيانًا، خصمٌ في أحيان أخرى. وكانت زلاقة هذا الشبح آتية من الطبيعة المتقطعة لحكايات أنيقة عنه. ففي قصصها عن طفولتهما، كان شريكًا دائم الحضور في جرائمها كلها، وكان ظلًا لها يتقدمها أحيانًا ويتبعها أحيانًا أخرى من غير أن ينفصل أبدًا عن كونه توأمًا لها؛ وكان في أفكارها الفتى المعترض على علاقاتها («دائمًا مع فتيان أكبر منكِ، بالطبع»)، لكنه يساعدها في إبقائهم سرًا خبيئًا عن أختها وعن العمة نسيم مع استمراره في حالة حب دائم مع واحدة أو أخرى من صديقاتها اللواتي كن مصرّات دائمًا على أنهن يحببنه مثلما يحببن أخًا: كان إيمون يعرف هذا الألم معرفةً جيدة بفضل تيلي، صديقة طفولة أخته ذات الساقين الطويلتين والشفتين المنتفختين كأن نحلة لسعتهما... «لا أريد أن أعرف شيئًا عن هذا»؛ هكذا قالت له أنيقة، فكانت كلماتها بلسَمًا لما روته له عن الفتيان الأكبر منها سنًا. لكن حياتَيْهما تباعدتا بعد المدرسة. فعلى خلاف أنيقة، لم يحصل برويز على منحة دراسية؛ وكان غير راغب في أن يبدأ شبابَه بقروض طلابية تثقل كاهلَه فقرر بدلًا من ذلك أن يذهب مرتحلًا وفق العادة القديمة، عادة الصِّبية البريطانيين الجوّالين. وهنا، اختفى برويز من قصصها.

«لم أخبره عما فعلتُه. سأخبره عندما يعود».

«ومتى يعود؟»

رفعت كتفيّها وتابعت النقرَ على الصور التي في كمبيوتره. راحت تستعرض حياتَه من أيام طفولته حتى الآن: صور الأسرة كلها، وصور صديقاته، واختياراته المتغيرة من حيث ملابسه وتسريحات شعره؛ وكذلك بعض اللحظات التي لم يكن منتبهًا فيها إلى الصورة.

«لا يمكنني تحديد إن كانت علاقتكِ به أفضل من علاقتك بأختك».

كبّرتْ أنيقة صورة ظهر فيها إيمون وذراعه على كتف أبيه. كانا في

قميصين متماثلين قصيرَيْ الأكمام على كل منهما كلمتا Lone STAR[1]. وكان التشابه بينهما واضحًا في كل شيء، من الابتسامة إلى الوقفة. وعلى النقيض من أختها، لم يكن يبدو على أنيقة أن لديها تلك المشاعر الحادة تجاه أبيه من حيث كونه شخصية سياسية. بل كان إيمون يتساءل أحيانًا إن كانت في سن صغيرة جدًا عندما مات أبوها فلم يخبرها أحد عما قاله كارامات لون عنه.

«كان يعرف أن عصمة سوف تسافر، فما كان منه إلا أن ذهبَ بدوره. ليس هذا بالشيء الذي لا أستطيع مسامحته عليه عندما يعود. لكني سأحمله عليه حتى ذلك الوقت».

فاجأه هذا الموقف الذي اعتبره غير منصف تجاه شاب في التاسعة عشرة من عمره أراد أن يرى العالم بدلًا من الجلوس في البيت والبقاء برفقة أخته. لكن أنيقة انتقلت عند ذلك إلى الصورة التالية، صورة أسرة لون كلها متجمّعة أمام الكاميرا في زي هالوين «أسرة آدمز»،[2] فذكّر نفسه بأن نشوء المرء يتيمًا يخلق قَدْرًا كبيرًا من الاعتماد المتبادل بين الأشقّاء لا يستطيع شخص مثله أن يفهمه رغم قوة العاطفة التي تربطه بأخته.

والحقيقة أنه ما كان قادرًا على فهم أشياء كثيرة فيها. كان هذا جزءًا من جاذبيتها وإغرائها، أكثر الأيام؛ لكنه استيقظ ممتعضًا ذات صباح قبل أقل من مضي أسبوعين عِلى لقائهما الأول. كان قد عاد مساء اليوم السابق بعد خروجه لفترة قصيرة إلى المخبز الذي عند زاوية الشارع ليجد ورقةً دستها عبر شق الرسائل الموجود في الباب الرئيسي للبناء. وقد كتبت على تلك الورقة: «أتيت، ثم ذهبت». كان قد ألغى خططَه لذلك المساء

---

(1) Lone هو اسم العائلة (لون). وأما الكلمتان على القميص (Lone STAR) فهما اسم مؤسسة تعليم عالي في مدينة هيوستون الأميركية.
(2) «أسرة آدامز» فيلم سينمائي كوميدي خيالي من أفلام هوليوود.

تحسّبًا لاحتمال عودتها، لكنها لم تعد. وعلى نحو مفاجئ، بدت له تلك السرية كلها التي كان مستمتعًا بها، لعبة مرهقةً.. تُمسك خيوطَها كلها بيدها. ومن غير تفكير تقريبًا، وضعَ في حقيبته ما يكفيه لقضاء أسبوع في الخارج، ثم أخذ القطارَ إلى بيت واحد من الأصدقاء القدامى في نورفولك. أعجبته أولَ الأمر فكرة أنها ستعود إلى بابه مرة بعد مرة من غير أن تجده هناك. وأراد أن يجعلَها تعرف كيف يكون إحساس من ينتظر طيلة الوقت. لكنه اتصلَ بمكتب أبيه عندما كان الجميع نيامًا خلال ليلته الثانية في بيت صديقه، وطلب منهم أن يعثروا له على شركة سيارات تاكسي قريبة يمكن أن تعيده إلى لندن.

وصل قرابةَ الساعة الثالثة فجرًا، وكان في حالة نعاس شديد عندما صعد درجات السلم إلى باب شقته فرأى جسدًا متكورًا عند بابه وقد لفَّ الممسحة التي أمام الباب فجعلها وسادةً له.

جثا إلى جانبها؛ وعندما فتحت عينيها رأى فيهما ارتياحًا فتنَه وأخجلَه في وقت واحد.

وبعد أن دخلا إلى الشقة، ذهبَ مباشرةً إلى غرفة المعيشة وأتى بمجموعة المفاتيح الاحتياطية التي وضعَها في وعاء من السيراميك على الرف فقدّمها إليها قائلًا إنها قادرة على استخدامها متى شاءت، ليلًا أو نهارًا. وضعت رأسَها على كتفه وقالت: «لا تكن لطيفًا معي إلى هذا الحد». سألها عما تعنيه بهذا فأجابته بقبلة بطيئة عميقة.

نشأ شيءٌ جديدٌ بينهما تلك الليلة. عندما استيقظ صباحَ اليوم التالي وسار مسترشدًا بأصوات إعداد الفطور في المطبخ، توقفت أنيقة عن خلط عصير الفاكهة مع الحليب لتريه مخططًا للأوقات التي ليس له أن يتوقع قدومها فيها: أوقات وجودها في الجامعة، أو في المجموعات الدراسية، أو أمسيات أيام الأربعاء التي تصر العمة نسيم على اجتماع

الأسرة فيها؛ إضافة إلى الفترة الممتدة من الثالثة إلى الخامسة بعد الظهر من كل يوم. سألها: «ما قصة هاتين الساعتين؟» فعضّت كتفه وقالت: «ألا يحق للمرأة بأن يكون لها سرها!»

«لا بأس، لا بأس. احذفي بعد ظهر يوم الأحد أيضًا».

قبّلت كتفه حيث عضته قبل قليل: «إنه غداء أسرة لون الأسبوعي في هولاند بارك. هل هو مناسبة متحضرة كثيرًا؟ وهل تقولون أشياء من قبيل 'من فضلك' و'أشكرك' و'آسف' وتتحدثون عن أحوال الطقس؟»

«لماذا لا تأتين معي في يوم أحد ما حتى تشاهدي بنفسك كيف يكون ذلك؟»

تراجعت خطوةً إلى الخلف. لم تكن مرتديةً شيئًا غيرَ قميص قصير الكمَّيْن من قمصانه فجعل تقلُّصُ كتفيها شكلها يبدو هشًا ضعيفًا بعد أن كان مغريًا. يعني هذا أنها كانت تعرف تلك القصة عن أبيه وأبيها. أمسك بيديها بين كفَّيه فطمأنها وطمأن نفسه إلى أنهما قادران على تحمل الخوض في ذلك الحديث الذي كان يعرف أن عليهما أن يخوضا فيه: «أعرف أن هذا سيكون صعبًا عليكِ. لقد أخبرتني عصمة بقصة والدكما. أخبرتني أيضًا بما قاله أبي عنه».

«هل تعرف قصة أبي؟»

«نعم».

«لماذا أخبرتك عصمة؟ نحن لا نتحدث عن هذا مع أي كان».

«يمكنك أن تسأليها إذا عدتِ إلى الكلام معها في يوم ما».

سارت مبتعدة عنده فسكبت لنفسها كأسًا من العصير، ثم تركته عند الخلاط وعادت إليه. لا يزال كتفاها متقلصين، وهي تنظر إليه الآن بنوع من قلة الثقة الذي بدا على وجهها يوم لقائهما الأول.

«عمّن أخبرتك أيضًا؟»

«ماذا تعنين؟»

«لست أسألك عن الأشخاص. أعني... ماذا أخبرتك أيضًا؟ ما الأشياء الأخرى التي قالتها لك عنه؟»

أجابها وهو يمسّ يدها: «كل شيء على ما يرام. وليس في الأمر ما يزعجكِ أبدًا. أنت لم تعرفي أباك. ولن يحكم عليك أحد انطلاقًا من أنك ابنته».

«ولا حتى والدك؟»

جلست على واحد من الكراسي المرتفعة عند طاولة المطبخ وراحت تنظر إليه بجدية كبيرة.

«أبي خاصة، لن يفعل هذا. يقول إن الإنسان هو الذي يحدد هويته بنفسه...» رفع كتفيه ثم خفضهما من جديد... «إلا إذا كان ذلك المرء ابنه! عندها، سوف يدلّله كثيرًا مهما يكن ذلك الابن».

«وهل يدللك؟»

«نعم. أختي تشبهه. وهذا ما يجعل الآمال كلها مبنية عليها. أما أنا، فأحصل على الدلال وحرية التصرف معًا».

«وهل تمانع في هذا؟»

«أمانع كثيرًا. أنت أول شخص يستطيع تخمين أن هذا لا يعجبني».

شبكت قدميها خلف ظهره وشدته إليها: «لست أحمل على أبيك أبدًا أنه قال ذلك الشيء عن أبي. لقد كان محقًّا... نحن جميعًا أحسن حالًا من غير عادل باشا. لكني معترضة الآن على رأيه! فعندما نفكر في الأمر، يتضح أن أباك غير متسامح. لا تعجبني فكرة أن يكون لك أب غير متسامح. وأريد أن أعرف أنه ليس هكذا معك». ظلت تقبّله وهو يتكلم... قبلات خفيفة على فمه ورقبته وخدّه... قبلات محمومة بعض الشيء.

تراجع إلى الخلف قليلًا، وأخذ يديها بين يديه: «لا مشكلةَ أبدًا في الحديث عن هذا. أنت محقة لأنه يمكن أن يكون غير متسامح أحيانًا... مع الأشخاص الذين يخونون بلده خاصة».

«وماذا لو كنت أنت الذي يطلب منه التسامح والصفح؟»

«هل تريدين أن أطلب منه الاستعلام عما قد يستطيع معرفته عن أبيك؟»

لكنه رآها تهزّ رأسَها بحركة نفي قاطع. لا، إنها لا تريد أن تعرف. لم يكن أبوها يعني شيئًا لها... كان يعني شيئًا لجدتها التي أرادت معرفة ما حدث لابنها؛ ولعله كان يعني شيئًا لأمها، أو ربما لعصمة. لكنه لا يعني شيئًا لها، لا يعني شيئًا لأنيقة. كانت في حاجة إلى معرفة شيء عنه هو، عن إيمون. وأرادت أن تكون لديها صورة عن معنى أن يكون المرء ابن كارامات لون... تريد معرفة شيء أكثر مما كشفه لها ألبوم صور.

«إن في أبي اختلاف كبير بين الشخص السياسي والأب. ما من شيء يمكن أن يمتنعَ عن فعله من أجلي».

«هذا جيد». وظهرت في صوتها نبرةٌ جديدة لم يستطع فهمها تمامًا... «هكذا يجب أن يكون الأمر». طوّقته بذراعيها فحاول تجاهل ذلك الارتياح الكبير الذي أحسه عندما عرف أنها لم تكن تتوقع منه أن يطرح موضوع أبيها مع وزير الداخلية. بطبيعة الحال، إذا استمر هذا (كان شديد الرغبة في استمراره) فسوف يكون على إيمون آخر الأمر أن يخبر أبيه بأنه على علاقة مع ابنة أحد الجهاديين. لكن، ليس الآن... ليس بعد. فليقبل بلعبة السرية التي تلعبها أنيقة، ولتظل الأشياء بسيطة أطول فترة ممكنة.

* * *

مرّت أسابيع كثيرة. وتكيفت الحياة مع القواعد التي وضعتها أنيقة. كان يذهب إلى صالة التمرينات الرياضية في الساعات التي يعرف أن

أنيقة لن تأتي خلالها. ويذهب إلى التسوق، ويعرّج على أمه حتى تكتفي بذلك فلا تزوره في بيته. صرف السيدةَ التي تنظف الشقة (فهي تعمل أيضًا في بيت والديه) زاعمًا أن هذا الوضع مؤقت ولن يستمر بعد أن يبدأ كسب المال من جديد؛ ثم استخدم امرأة أخرى اهتدى إليها عن طريق إعلان ملصق على واجهة أحد المحلات. كما بدأ يتعلم لغة أوردو في الأوقات التي يكون خلالها في البيت وحده، فكان سرورها بتزايد عدد المفردات التي يعرفها تعويضًا جميلًا عن صعوبة تلك اللغة؛ ثم ازدادت تلك المفردات عددًا عندما أضافت إليها كلمات لا يمكن لأية دورة تعليمية على الإنترنت أن تضيفها. بدأت ترسل له بالبريد الإلكتروني مقالات أثارت اهتمامَه إلى حد الدهشة لأنها على صلة بقانون العقود؛ وهذا ما كان مبعث سرور لهما معًا لأنهما اكتشفا أن الفترة القصيرة التي أمضاها في عالم العمل قد منحته بصيرةً وأفكارًا قد لا تجدها في الكتب. كانا يطهوان معًا ويتبادلان دورَيْ الطاهي ومساعد الطاهي فيفرح كل منهما بتشجيع الآخر وإعجابه. وإلى جانب هذا كله، تضاءل مزاح أصدقائه معه في ما يتعلق بتلك «الحياة المزدوجة»، وكذلك تضاءل عدد الدعوات التي يوجهونها إليه لمشاركتهم عطلات نهاية الأسبوع في الريف وأمسيات يوم الجمعة في المقهى، والنزهات في الحديقة والخروج لتناول العشاء في مطاعم ضمن دائرة لا يتجاوز قطرها ميلين حيث كانوا يعيشون جميعًا. كان يدرك أن من أهم العوامل المؤدية إلى فشل الصداقة أن يختفي المرء ويغوص في علاقة جديدة مع امرأة ويترك أصدقاءَه هكذا. لكنه صار الآن يشعر أن وجوده مع أصدقائه ليس إلا خطوةً إلى الخلف، إلى حالة انعدام الهدف التي كانت تميز حياته كلها قبل مجيء أنيقة وقبل أن تصير مركز حياته ووجهتها.

قالت له أليس، صديقته السابقة التي صارت الآن خطيبةَ صديقه المقرَّب ماكس:

«أخبرنا عندما تصير مستعدًا للعودة إلينا من جديد».

قالت هذا بنبرة تعاطف حقيقية في أمسية من أماسي الأربعاء حين كان في زيارة لهما مع بقية شلة أصدقاء الدراسة القدامى حيث كان شراب «بيمز» يخفف من أثر أثاث الحديقة غير المريح. وبعد أن شربوا بضع كؤوس، عرف أن أصدقاءه توصلوا إلى أنه في حالة اكتئاب ناتجة عن البطالة، وأن استمرار صعود والده الماضي قدمًا في «فتح العالم» يؤدي إلى تفاقم شعوره بالفشل. كان لقاء منتصف الأسبوع هذا في بروكغرين (وقد جاء بعد اتصال أليس به ومطالبته بتحديد موعد لزيارتهم) محاولة من أصدقائه للتدخل وحمايته من هذه الحالة. اقترحت هيلين اسمَ طبيب يمكن أن يَصفَ له بعضَ أقراص الدواء من غير أن يثير ضجة حول الأمر. ودعاه هاري للانضمام إلى نادي تجذيف في نهر ثيمز؛ وعرض عليه ويل أن يعرّفه إلى امرأة «رائعة» من زميلاته في العمل قائلًا إنها لن تتطلع إلى أي شيء جدّي بينهما؛ كما عرضت عليه أليس عملًا في شركة العلاقات العامة التي تمتلكها أسرتها؛ وأخيرًا وضع ماكس يده على كتف إيمون مذكرًا إياه بأنه مستمع جيد بقدر ما هو جيد في ابتكار طرق كثيرة للهو والتسلية.

قال لهم صادقًا: «أحبكم جميعًا». كان يشعر بالحب تجاه كل شيء: شراب بيمز، وأثاث الحديقة، والتماثيل الساخرة، والسماء الموشحة بأحزمة من ألوان الغروب. «لكني بخير حقًا. كل ما في الأمر هو أنني أفعل ما أفعله خارج نطاق الرادار».

قال ماكس: «لست أدري... ذكرٌ عاطلٌ عن العمل في العشرينيات من عمره من أصول مسلمة تظهر لديه حالة تغيّر سريع في السلوك وينقطع عن أصدقائه القدامى ويتحرك خارج نطاق الرادار. فهل نحن واثقون أيضًا بأننا لن نرى لك لحية في يوم ما؟ أظن أن علينا إخطار السلطات!»

قال هاري: «عليك أن تذهبَ مباشرةً وتخبرَ وزارةَ الداخلية. إنه

يشرب بيمز، على الأقل وهذا ما يجعلنا نعرف أننا لم نخسره تمامًا حتى الآن».

لكن حقيقة الأمر هي أنه ما عادَ يشرب إلا نادرًا. لم تطلب أنيقة منه الانقطاعَ عن الشرب. لكنه اقترب منها حتى يقبّلها ذات مرة فانكمشت مبتعدة عندما شمت رائحة الكحول في أنفاسه. وحتى بعد أن ذهب ونظف أسنانه، قالت له إن الرائحة لا تزال موجودة. قالت: «أنا آسفة. يمكننا أن نفعلَ الأشياء الأخرى. لكن، لا تقبّلني». كان هذا تعبيرًا عن الأمر على نحو لم يترك غير نتيجة ممكنة واحدة. استند بظهره إلى الكرسي ونظر إلى أصدقائه محاولًا تخيّل نفسَه آتيًا إلى هذه الحديقة برفقتها: الحجاب، ورفض الكحول، والسكن في ويمبلي. سوف يكون كل واحد من أصدقائه في غاية التهذيب معها. لكن من المؤكد أن ماكس، أو أليس، سوف يتصل به في لحظة ما من اليوم التالي ويقول له «فتاة جذّابة. آمل أن لا يكون مزاحنا مزعجًا لها». لم يسبق أبدًا أن نجت أية علاقة أقامها واحد من أفراد المجموعة من عبارة «آمل أن لا يكون مزاحنا مزعجًا لها!»

قال وهو يُخرج شريحةَ تفاح من كأسه ويرمي ماكس بها: «ماذا تفعل إن أتيت بلحية طويلة ذات يوم؟»

أطلقت أليس واحدًا من تلك الأصوات الطنّانة المزعجة التي تطلقها عادة (أرادته أن يكون مزعجًا، فكان كذلك) مانعة ماكس من الإجابة، ثم أتت إلى إيمون وشدت رأسه إلى بطنها مداعبة شعره كما لو أنه طفل صغير.

«سوف نطرحك أرضًا ونحلقها يا عزيزي. لا يسمح الأصدقاء لأصدقائهم بأن يصيروا من المولعين بالتقليعات الرائجة». كانت هذه واحدة من الإجابات العفوية البارعة التي كان يجدها مسلية في ما مضى، لكنه صار نافد الصبر تجاهها الآن، صار نافد الصبر تجاه أليس وتجاه

ذلك الخمول الذي يعيشون فيه كلهم. ما الغاية من إحاطة نفسك طيلة الوقت بنسخ أخرى عن نفسك؟

ترك أليس تحتضن رأسه وتشده إلى بطنها الذي يكاد يكون مقعّرًا حتى يتيح لأصدقائه فرصة تبادل أية نظرات قد يجدون حاجة إلى تبادلها، وكان طيلة ذلك الوقت يفكر... قبل أنيقة، كانت أليس، كان هذا الجسد، وهاتان اليدان، وهذه الرائحة. بعد أقل من شهرين من انتهاء علاقتهما، قدّم إيمون مباركته عندما أراد ماكس أن يكون هذا كله له؛ وكان صادقًا في ذلك. كيف تخيّل في يوم ما أن يكون ما أحسّه عاطفة حقيقية، ناهيك عن أن يكون حبًا؟ لم يكن يعرف إلا سطح المشاعر قبل أنيقة. وأما الآن، فقد صار غارقًا إلى حد جعل أي شخص غير أنيقة وجودًا مشوِّشًا غير واضح، مخلوقات بائسة تعيش على السطح، وتخفت أصواتها.

* * *

في مرات كثيرة، كانت تأتي لحظات تخرج فيها أنيقة عن وتيرة العلاقة بينهما. تلك هي الطريقة الوحيدة التي كان يستطيع بها أن يصف لنفسه ما يحدث: فجاءة التحوّل التي تأتي كما لو أن أحدًا يضغط مفتاح الراديو بمرفقه من غير قصد في منتصف لحن فيصير الجاز صمتًا. تصير باردة، أو حزينة، أو غاضبة أحيانًا، وتصير كل محاولة للحديث معها عن ذلك عبثًا لا جدوى منه. في ليلة بعينها، في ليلة غريبة، استيقظ في ساعة مبكرة من الصباح فرآها واقفة أمام السرير تنظر إليه وقد ظهر على وجهها تعبير لا تفسير له. وعندما خاطبها قائلًا لها أن تعود إلى السرير أجابته: «عد إلى النوم وقل لنفسك إنّ هذا كان حلمًا». بدلًا من ذلك، حاول الكلام معها طالبًا أن يفهم المشكلة وقد جعله خوفٌ لم يستطع تفسيره شخصًا حانقًا، فانتهى الأمر بأن خرجت من البيت وخرج في أعقابها، خرج يسير خلفها في الشارع بسرواله الداخلي وشبشبه المنزلي حتى يتأكد من أنها آمنة إلى أن رآها توقف سيارة تاكسي، ثم تجلس فيها وتنطلق.

وبعد أيام معدودة، حدث ما هو أسوأ من هذا. كانا في فترة كسل بعد الظهر، مستلقيين على سجادة وثيرة يُسمِع كل منهما الآخر أغاني من أيام طفولته، ويتبادلان قصصًا عن الطفولة والمراهقة. كانت أنيقة تغيظه إغاظةً لطيفة لأنه يظن أن أيامه تلك كانت حياةً «عادية» على الرغم من ثراء أبيه وأمه اللذين تَظهر صورهما في الصحف دائمًا. وكان أثر الانزعاج الباقي من تلك الليلة الغريبة قد اختفى تمامًا آخر الأمر وصار كلٌّ منهما شاكرًا لهذه العودة إلى أحضان السعادة وهو يرى أن الآخرَ كان سخيفًا بعضَ الشيء. كان فمها على ذراعه، وكانت تنفخ محاولة إصدار صوت كصوت المزمار على نحو متوافق مع الموسيقى عندما رن هاتفها معلنًا تلقّيها مكالمة على سكايب. كانت تتجاهل المكالمات دائمًا بصرف النظر عن المتصل (لكنها نظرت إلى الشاشة عندما سمعت صوت الهاتف فخمّن من تعبير نفور محدَّد يظهر على وجهها أن المتصل عصمة).

قال لها وهو يتظاهر بأنه يهمُّ بإمساكها من كعبها عندما بدأت تنهض واقفة: «لن تردّي عن المكالمة. كفّي عن الاستجابات البافلوفية».(1) لكنه كان يشعر بكسل شديد إلى حد منعه من الاستدارة ومد يده إلى الهاتف. كانت بعد ذلك أغنية يحبها لم يسمعها منذ زمن طويل فرفعَ الصوت وراح يغني معها. مضت بضع لحظات قبل أن يدرك أن أنيقة خرجت من الغرفة، فذهب باحثًا عنها حتى يعتذر لأنه رفع الصوت عندما قامت لترد على الهاتف... فلا بد أن هذا ما جعلها تخرج من الغرفة.

لم يجدها في الصالة، ولا في غرفة النوم. لكن بابَ الحمام كان مغلقًا فسمع عبر ذلك الباب أصواتًا لم يفهم الكلمات التي تشكلت منها. اقترب من الباب ووضع أذنه عليه.

---

(1) نسبة إلى عالم الفيزيولوجيا الروسي إيفان بافلوف (1849 - 1936) الذي اشتهر بتجاربه على ردود الأفعال الشَّرطية.

سمعها تقول: «إنني أتأكد من الأمور هنا».

بدا له أن صوتَها قد اقترب من الباب عند آخر تلك الجملة، فتراجعَ وعاد سريعًا إلى غرفة المعيشة. مر وقتٌ طويلٌ قبل أن تنضمَ إليه هناك. وعندما عادت، كانت عينيها محمرتين كما لو أنها كانت تبكي، لكنهما كانتا تلمعان بشيء يشبهُ السعار، شيء لم يره قبل ذلك إلا لدى مهووسين أو ثملين تمامًا.

قال لها: «من الذي كان معك على الهاتف؟»

أجابته: «ستعرف ذات يوم...» وانفجرت ضاحكة، ثم طوقته بذراعيها... «عما قريب، أرجوك يا ربي، عما قريب».

أحس أنها متعلقة به كأنها ثقلٌ غير مرغوب فيه. وكان في تلك اللحظة قادرًا على تخيّل أنه لا يحبها، كان قادرًا في تلك اللحظة على تخيّل أنه يريد خروجَها من حياته مع أسرارها وغرابتها كلها، ومع تقلبات مزاجها، ومع الضيق المحض الذي تجعله يحسُّه أحيانًا. لكنها ابتعدت عنه عند ذلك، ثم غطت عينيها بكفها. وعندما نظرت إليه من جديد، كانت قد عادت أنيقة التي عرفها. قالت له: «إنني أتصرف بشيء من الجنون، أليس كذلك؟ تحمَّلني، أرجوك، أرجوك». وضعت ظهر يدها على خدّه؛ لمسة لم يعرفها منها قبل ذلك. أمال رأسَه وأسندَه على رأسها... لحظة حب بينهما جعلت العوائقَ كلها قابلة للتجاوز، حتى تلك العوائق التي تلفُّ قلبها.

مندَسًّا بين وسائد الأريكة البيضاء وصوت المطر المتساقط في الخارج، كان إيمون ينظر إلى رجل جالس فوق عربة قطار يصيح بصوت مرتفع (بالأوردو، مع ترجمة مكتوبة) قائلًا: إذا كان الحب يظلل رأسك، فمن المؤكد أنك واقف في الفردوس. كان ذلك شيئًا يمكن أن يحاول إيمون تعلمه عن ظهر قلب، وأن يحاول نطقه بلكنة صحيحة ريثما تصل أنيقة. أما اليوم، فقد كان العالم كله ثقيلًا على كتفيه. أوقف ذلك الفيديو، وعاد إلى المقطع الذي يظهر فيه أبوه مخاطبًا الطلبة في مدرسة في برادفورد التي كان أكثر طلابها من المسلمين. وقد كان من خريجي هذه المدرسة كارامات لون نفسه، وشابان عمرهما عشرون عامًا قتلا في غارة جوية أميركية في سورية خلال السنة الماضية. كان واقفًا هناك، من غير ورقة في يده، وقد ترك المنبرَ وتقدم حتى حافة المنصة. كانت ربطة عنقه المدرسية القديمة تلفت النظر إلى قلة تغير شكله منذ أن كان ممثل المدرسة ذاك المعروضة صورته على الشاشة التي خلفه. لم يكد يتغير فيه شيء غير ذلك الشيب عند صدغيه والشخصية الأكثر عمقًا الظاهرة في قسمات وجهه... «ما من شيء لا يمكنكم تحقيقه في هذه البلاد: الميداليات الأولمبية، وقيادة فريق الكريكيت، والنجومية في موسيقى البوب، والشهرة في برامج تلفزيون الواقع. وإذا لم يعجب أحد شيء من هذا كله، فمن الممكن أن يقبل بمنصب وزير الداخلية. أنتم بريطانيون؛ نحن بريطانيون. بريطانيا ترحب بهذا. وأكثركم يرحب بهذا. وأما من كانت لديه بعض الشكوك، فليسمح لي بالقول: لا تميّزوا أنفسكم في ملابسكم، وفي طريقة تفكيركم، وفي أنماط السلوك العتيقة التي تتعلقون بها، وفي الإيديولوجيات التي تمحضونها ولاءكم، لأنكم ستتلقون

معاملة مختلفة إن أنتم فعلتم هذا... لا بسبب العنصرية، رغم أنها لا تزال موجودة، بل لأنكم مصرّون على اختلافكم عن الآخرين جميعًا في هذه المملكة المتحدة المتنوعة كثيرًا، المتنوعة عرقيًا ودينيًا، في مملكتنا المتحدة هذه. انظروا إلى كل ما تفوِّتونه على أنفسكم بسبب هذا».

مرت أكثر من أربع وعشرين ساعة على خطابه الذي اختتمه بهذه الجمل، ولا يزال الاهتمام الصحفيُّ به مستمرًا. وعلى امتداد الطيف السياسي كله، باستثناء نهاياته القصوى. كان وزير الداخلية يتلقى المديح لقوله الحقيقة، ولعاطفته الجارفة وجرأته التي جعلته مستعدًا لمواجهة المواقف المعادية للمهاجرين ضمن حزبه نفسه وثقافة الانعزال في الجماعة التي نشأ فيها. كان وسم «# أنتم بريطانيون، نحن بريطانيون» شديد الرواج في وسائط التواصل الاجتماعي، وكذلك وسم «# قطيع الذئاب وابنه الآسيوي» و«# قطيع الذئاب». وكان المرء يرى عبارة «# رئيس الوزراء المقبل» في كل مكان.

لو كان إيمون ذلك الشخص الذي كانه قبل شهر من الآن لوجد نفسه فخورًا بأبيه معتزًّا به. أما الآن فإنه يتخيل دائمًا صوتًا يحاكي صوتَ أبيه ويقول « لا تميزوا أنفسكم من حيث طريقة ملبسكم» يرافقه مقطع فيديو لأنيقة تنهض عن سجادة الصلاة وتسير إلى أحضانه خالعةً ثيابَها في الطريق إليه فلا يبقى غير حجابها. لن يكشفَ مقطع الفيديو تلك الأشياء التي تكون أعجب ما فيها في تلك اللحظات: شدة تركيزها، وكم هي قادرةٌ على التحول سريعًا من ربها ثم إليه خلال الوقت اللازم لتلك الخطوات القصيرة؛ وغيابها عن أي إحساس بنفسها في كل ما تفعله في الحب والصلاة، الرأس المغطى والجسد العاري. سمع صوتَ فتح الباب. دخلت أنيقة ونادته من الصالة قائلةً إنها تريد الاستحمام.

ما عاد يأتيه ذلك الشعور بالخوف إذا لم تأتِ عندما يتوقع مجيئها، ولا ذلك الإحساس بالراحة عندما تأتي: إنه اقتناعه بأنه الشخص الذي تريد

أنيقة أن تكون معه. كانت بهجته بذلك سائرة معه خلال تلك الأيام كلها. كانت تصقل كل لحظة من لحظاته، بل حتى هذه اللحظة التي كان فيها متمددًا على الأريكة مصغيًا إلى أصوات المطر المختلفة: نقرات حبات المطر على زجاج النوافذ، واصطدامها بأوراق الأشجار، وارتدادها عن الحجارة. تعلم في صحبة أنيقة كيف يصغي إلى أصوات العالم. كانت تقول له أول الأمر: «اسمع هذا»... شيءٌ بين الأمر والرجاء. وسرعان ما تعلمَ متعةَ أن يكون هو الشخص الذي يقول لها «اسمعي هذا، اسمعي لندن التي لم ندخلها معًا أبدًا: أصوات اصطدام آلة جز العشب بالحجارة الصغيرة عند أطراف الحديقة؛ وتفاوت أوزان السيارات المارة في الشارع، واندفاع الدرّاجات الآلية، وقرقعة عربة نقل، وأصوات عشاق إنكليز سُكارى تحاكي نغماتها، لا نبراتها، أصواتَ سُياح إيطاليين يُفرطونَ في شرب القهوة». اسمعي هذا، صرير إطار السرير بنغماته المختلفة: صرخة الاستياء القصيرة عندما يذهب، وأنين المسرّة الطويل عندما يعود. اسمعي هذا، تَسارع أنفاسي، تَسارع دمي، عندما تلمسينني هكذا. وبناءً على إلحاحها، بدأ يُسجّل مقاطعَ صوتية خلال الوقت الذي يمضيه من دونها، ثم يُسمِعها إياها ويطلب منها تحديدَ تلك الأصوات التي كان يتولى إقامة صلة الوصل بينها كلها حتى يشكل ويحكيَ لها قصة حياته من غيرها: حواجز محطة المترو تُفتَح ثم تُغلق، ومقص الحديقة في يد أمه يقصُّ الورد، وخبطةٌ ثقيلةٌ لباب غرفة الملجأ المحصَّنة المقامة حديثًا في بيت أهله، وصَفٌ من رجال على أحزمة المشي في الصالة الرياضية منهمكينَ في منافسات لا يصرّحون عنها، ومنافسات في السرعة والتحمل؛ وأحاديث ضمن دروس لغة الأوردو التفاعلية؛ ويدُه التي توصله إلى ذروة المتعة عندما يفكر فيها. عندما سألَها لماذا لا تأتي إليه بمشهد الأصوات التي تُميز أيامَها، رفعت كتفيها وقالت إن عليه أن يفكرَ بنفسه في لعبة جديدة حتى تلعبَها لأنه لا يمكنه الاكتفاء باستعارة ما اخترعته من أجله. لكن عقلَه لم يكن يعرف كيف يفعل هذا.

قال لها وهو ذاهبٌ ليقبّلها عندما دخلت الغرفةَ مرتديةً برنُسَ حمّامه المخطط بالأبيض والأزرق محتضنة حملًا من الملابس الرطبة: «هل داهمك المطر؟» ابتعدت عنه ابتعادًا شبهَ فوري رافعةً الملابس الرطبة تفسّر بها ابتعادها. وعندما وضعتها في آلة التجفيف، جلست على كرسي من كراسي المطبخ المرتفعة فذهب إليها حتى يجففَ شعرَها بالمنشفة.

قال لها: «هل أزعجك أحدٌ اليوم بسبب حجابك؟»

مالت برأسها إلى الخلف فأسندته إلى صدره ورفعت رأسَها ناظرةً إليه: «لو كنتَ أنثى في التاسعة عشرة من عمرها، فسوف تصادف نوعًا من أنواع الإزعاج مهما تكن ملابسك. إلا أن ذلك من الأشياء التي يسهل التخلص منها، على الأرجح. تَحدث أحيانًا أشياء تجعل الناس أكثر عدوانية. هجماتٌ إرهابية يكون أوروبيون من بين ضحاياها. ووزراء داخلية يتحدثونَ عن الناس الذين يميزون أنفسَهم من حيث ملبسهم. أشياء من هذا النوع». لم يقل لها شيئًا، لكنه أمسكَ بخصلة من شعرها فشد أصابعَه عليها وترك يدَه تنزلق على طولها والماء يقطر منها على الأرض الخشبية بينهما. «وأيضًا لا... لم أستحم لأن المطرَ داهمني. لقد بصق عليَّ شخص في المترو».

«شخصٌ!! فعل ماذا؟»

أدارت كرسيّها في اتجاهه. «ماذا تقول لأبيك عندما يلقي كلمةً من هذا النوع؟ هل تقول له: أبي، أنت تجعل إلصاق وصمة ما ببعض الناس بسبب طريقة ملبسهم أمرًا مقبولًا؟ هل تقول له: أيُّ غبيّ يقف أمامَ مجموعة من المراهقين فيقول لهم إن عليهم أن يكونوا منصاعين؟ هل تقول له: لماذا لم تقل لهم إن من بينَ الأشياء التي يَسمح هذا البلد للمرء بأن يقومَ بها إذا كان مسلمًا هي أن يتعرض للتعذيب، والتسليم لدولة أخرى، والاحتجاز من غير محاكمة، والاستجواب في المطار،

والتجسس على مساجده، وأن يكون له معلمون يبلّغون السلطات عن الأطفال الذين يريدون عالمًا خاليًا من انعدام العدالة البريطاني؟»

«انتظري، انتظري. كفي عن هذا. إن أبي لا يمكن أبدًا...» لم يسمعها قبل الآن أبدًا تقول أي شيء من هذا... منذ أول لقاء لهما، منذ تلك العبارة التي قالتها عن البحث في غوغل وأنت مسلم، تلك العبارة التي أفلح في إبقائها بعيدة عن ذهنه حتى تلك اللحظة... «أتظنين أنه لا يعرف كيف تكون مواجهة العنصريين؟ إنه يريد أن تصير معاناة الناس الذين مثلك من العنصريين أقل، لا أكثر. هذا ما جعله يقول ما قاله، حتى لو كان لم يستطع العثور على أفضل العبارات لصياغته».

ابتسامة صغيرة حزينة: «الناس الذين هم مثلي؟»

«لقد عبرت عن هذا بطريقة غير صحيحة».

«لا، لا أظنها كانت غير صحيحة. هنالك أشخاص مثلي وأشخاص مثلك. كنت أعرف هذا دائمًا. لماذا تظنني فعلت هذا كله؟ لماذا كنت مصرة على السرية؟ لو كان عليك أن تخبر أسرتَك وأصدقاءَك عني لما استطعت الاستمرار خمس دقائق في حياتك».

«أعرف هذا...» كان هذا الإقرار مفاجئًا لكل منهما... «لكنّ هذا كان في الماضي. أما الآن... إذا انقسمَ العالم إلى أنيقة من جهة وبقية الناس كلهم من جهة أخرى، فلست أشكُ أبدًا في الناحية التي سأختار الوقوف فيها. أو الركوع فيها أمامك... لأن هذا ما أريد حقًا أن أفعله الآن، لكني لا أعرف إن كنت مستعدة لأن أفعله».

«تفعل ماذا؟»

«لقد طلبت الآن أن أطلبَ الزواج منك».

مرت لحظة ظن خلالها أنه قد ارتكب غلطةً فادحة لأن أنيقة كانت تنظر إليه كما لو أنه قال أكثرَ الأشياء جنونًا في العالم كله. وعندها صار فمه على فمها، ويداه على جلدها الذي لا يزال دافئًا بعد استحمامها...

أحسَّ أن كل ما يريده في العالم موجودٌ هنا، في هذه اللحظة تمامًا، في هذه المرأة، في هذه الحياة، في هذا الاكتمال.

***

على الرغم من أنهما لم ينزلا أبدًا إلى الحديقة المشتركة الخاصة بالبناء، فقد صار السطح المستوي الناتئ بضعةَ أقدام تحت نافذة غرفة نوم إيمون (تلك المساحة التي تَقاعسَ عن تحويلها إلى شرفة حقيقية طيلةَ أربع سنين عاشها في هذه الشقة) شرفتهما المفضلة في الأيام التي يَسمح فيها الطقس بالخروج إليها. لكنه اشترى، بعد شيء من الإلحاح من جانب أنيقة، مجموعةً متنوعة من النباتات الطويلة... صبارٌ، وفلفل الزينة، وشجيرات برتقال قزمية... وضعاها على حافة ذلك السقف فصارت المحافظة على الخصوصية خلال وجودهما في الهواء الطلق أمرًا ممكنًا على الرغم من أن تلك النباتات حجبت منظرَ الحديقة في الأسفل.

وفي الصباح الذي أعقب «طلب طلب الزواج»... أعجبتها هذه التسمية كثيرًا... كانا جالسَيْن في الخارج يستخرجان نوى الكرز لصنع المربى. كانت الشمس مشرقة من غير تردد بقدر ما كان اليوم السابق ممطرًا. إيمون في بنطلون قصير بلون الكاكي، وأنيقة في برنس الحمام المخطط بالأزرق والأبيض، لكنه الآن منشمر يكشف عن ركبتيها. كان الإسمنت دافئًا على جلدهما عندما جلسا متربعَيْن على الوسائد ذات الألوان الصاخبة التي كانت أسلوب أنيقة في التعبير عن اعتراضها على الألوان الهادئة في شقة إيمون. ظلت أسبوعين تدخل البيت حاملة تلك الوسائد ونظرتُها الحادة تتحداه أن يأتي بتعليق واحد على حقيقة أنها تتصرف كمن يدّعي لنفسه ملكيةَ المكان... أي على الشيء الذي أراد منها فعله منذ البداية تقريبًا. وضع حبة كرز في فمه، وفكر في تقبيلها وفي انتقال حبة الكرز من فم لآخر، لكنه اكتفى بدلًا من ذلك بالنظر

إليها والتمتع برؤية رضاها الواضح عن الأداء الجيد لأداة نزع نوى الكرز التي سخرت منها قبل أقل من ساعة باعتبارها شيئًا زائدًا عن الحاجة من جملة تلك الأشياء التي يشتريها أثرياء لا يعرفون ما يفعلونه بمالهم غير ذلك. «هذه أداة نزع نوى الكرز. وهي تنزع نوى الكرز. كيف يكون هذا مبالغة مجنونة في التبذير؟» وردًا على ذلك، فتحت أنيقة درجَ المطبخ وراحت تُخرج الأدوات واحدةً تلو الأخرى: «أداة نزع نوى الكرز من أجل نزع نوى الكرز، وأداة تقشير الثوم من أجل تقشير الثوم، وأداة هرس البطاطس من أجل هرس البطاطس، وأداة تقطيع الليمون إلى شرائح من أجل تقطيع الليمون إلى شرائح، وأداة تجويف التفاح من أجل تجويف التفاح». قالت هذا وهي تبتسم له... «ليس المرء في حاجة إلا إلى أدوات المطبخ الأساسية مع قليل من المهارة في استخدامها». لكن، ها هي جالسة الآن تطلق أصواتًا فرحة صغيرة مع كل نواة كرز تدفعها إلى خارج الثمرة بأناقة مستخدمة تلك الأداة التي في يدها. كانت قد جمعت شعرها الأسود في عقدة رخوة خلف رقبتها. ما أشد إغراء فكّ تلك العقدة والنظر إلى الشعر وهو يتهاوى نازلًا، منسكبًا.

«مهما يكن ما تفكر فيه، فالإجابة هي: ليس قبل أن ننتهي من الكرز».

ابتسم لها ابتسامة كبيرة ومدَّ ساقه فوضعها فوق ركبتها وفوق جزء من فخذها، ثم التقط السكين التي كان يستخدمها لشق حبات الكرز قبل دفع النوى بإبهامه. «يذكرني هذا بعطلة صيفية في توسكانيا عندما كنت في العاشرة أو في الحادية عشرة. الكرز والجيلاتو، هذا كل ما كنا نأكله طيلة الصيف، أنا وأختي. هكذا هو الأمر في ذاكرتي، على الأقل».

«ماذا يفعل الناس عندما يسافرون في عطلة؟... غير أكل الكرز والجيلاتو!»

«ألم تذهبي أبدًا في...»

«ذهبت مرة في رحلة إلى روما. كان ذلك قبل وفاة أمي بسنة واحدة.

منحتها وكالة السفر التي كانت تعمل فيها تذاكرَ مجانية... لكن كنت أشعر بأننا في شيء أشبه برحلة مدرسية منه بعطلة في الخارج. كانت أمي تظن أن علينا أن نرى أكثرَ ما يمكن من الأشياء وأن ننفقَ أقل ما يمكن من النقود».

«وكيف كانت... أعني... كيف كانت أمك؟»

«كانت متوترة. متوترة دائمًا. هذا ما قتلها. تقول عصمة إنها كانت مختلفة عن ذلك عندما كانت جدتي لا تزال حية تدفع الفواتير، وعندما لم يكن أبي قد صار إرهابيًا يمكن أن يتسبَّبَ في طردنا جميعًا من بيوتنا إذا قال أحدٌ منا شيئًا خاطئًا أمام شخص لا يجوز أن يقول أمامه شيئًا».

«لا أفهم حقًا كيف نجوت من تلك الطفولة».

«لم يكن إحساسي بأنها شيء يجب أن ينجو المرء منه، إلى أن ماتت أمي. يمكنك الالتفاف حول كل شيء ومواصلة حياتك، إلا الموت. الموت شيءٌ يتعين عليك أن تعيشَ حياتك من خلاله». ابتسمت، ثم رفعت كتفيها وتابعت تقول: «لكن أحدًا لم يخبرني أنني قد خسرت فرصةَ الذهاب في عطلات إلى حيث تُمطر السماء كرزًا وجيلاتو. لو عرفت هذا، لكان غضبي أكثرَ شدة».

«حسنٌ، علينا أن نذهب معًا إلى مكان ما. يجب أن نذهبَ عندما تبدأ عطلتَك الصيفية». قذفته بنظرة الغضب تلك التي اعتاد تلقيها كلما اقترح عليها شيئًا يشتمل على الخروج من الشقة... «هيا الآن، لقد حان وقت دخولنا العالم معًا. يمكننا البدء بماكس وأليس بدلًا من أبي وأمي إذا كنت راغبة في أن تجعلي الأمور متدرّجة. ثم، ألم يحِنْ وقت إخبار عصمة؟ بل لعل الوقت مناسب أيضًا لإخبار شقيقك».

قالت: «ليس بعد».

قذف ساخطًا بنواة الكرز التي كانت في فمه في اتجاه الوعاء بقوة

جعلتها ترتدُّ عنه وتحط على برنص أنيقة تاركةً بقعة قرمزية على خط أبيض من خطوطه.

قالت له وهي تلقي بالنواة على ساقه العارية: «دعنا نعود إلى التظاهر بأن هذه لعبة. ما حاجتنا إلى الناس الآخرين؟ ما حاجتنا إلى مغادرة لندن في عطلة عندما يكون كل ما نريده موجودًا هنا، في هذه الشقة؟»

«لن أقبلَ أبدًا قضاءَ الصيف كله محبوسًا هنا. ولن تبقي أنت محبوسة أيضًا. تعالي معي إلى توسكانيا. تعالي معي إلى بالي. إن كنت لا تريدين أشخاصًا آخرين، فلا بأس. سوف نجد جزيرةً بعيدة في مكان ما».

«إذا حاولنا مغادرةَ البلاد معًا فسوف يَعرف بالأمر الناس الذي يَعملون لدى أبيك». وعندما رأت نظرةَ الحيرة في وجهه قالت: «MI5.(1) إنهم يتنصتون على مكالماتي الهاتفية ويراقبونَ رسائلي النصية ونشاطي على الإنترنت. هل تعتقد أنهم سيظنون صعودي مع ابن وزير الداخلية إلى طائرة ذاهبة إلى بالي أمرًا بريئًا؟»

كان من علامات حبه لها أنّ ذلك الرهاب «الإسلامي» الذي أظهرته في اليوم الماضي لم يجعله يحس اتجاهها شيئًا غير الرغبة في حمايتها. وبلطف قال لها: «يا حبيبتي، أؤكد لك أنهم لا يراقبونَك بسبب أبيك».

«أعرف هذا. إنهم يراقبونني بسبب أخي. وذلك منذ ذهابه إلى الرقّة في سورية العامَ الماضي».

أجابها تلقائيًا من غير تفكير: «لم أفهم هذا».

«بل فهمتَه».

مرَّ بيده على العلامة التي تركتها نواة الكرز على ساقه. كان هذا شيئًا يتشاغل به لأن دماغَه صارَ جامدًا داخل جمجمته فلم يعطه شيئًا يمكن أن يجعلَ ما سمعه قابلًا للفهم.

---

(1) الاستخبارات البريطانية.

«وهل ذهب لكي يقاتل هناك؟»

«برويز، يقاتل؟ يا إلهي، لا! إنه مع الوحدة الإعلامية لديهم».

... الوحدة الإعلامية لديهم!

الراية البيضاء والسوداء، والرجال ذوي اللهجة البريطانية الواقفين تحتها ينتزعونَ رؤوسَ الرجال من بين أكتافهم. والوحدة الإعلامية تسجل ذلك كله!

نهض واقفًا، ثم سارَ إلى حافة السطح. ابتعد عنها إلى أقصى حد ممكن. لم يعرف في حياته كلها شيئًا يشبه إحساسَه الآن... أهو الغضب؟ الخوف؟ ما هو؟ أوقفْ هذا كله! طوَّح بقدمه وركلَ شجرة البرتقال القزمية. لوَّح بيديه فأوقع نبتة الصبّار. سقطت شجيرة البرتقال من غير أن تنقلب فتحطم أصيصها عندما اصطدم بالأرض. ظلت تربتها التي تتخللها جذورها متماسكة وحافظت على شكلها برهة، ثم مالت النبتة إلى الأمام وانهارت وتدحرجت ثمار البرتقال الصغير في أرجاء ممر الحديقة في الأسفل. أما نبتة الصبار، فقد دارت في الهواء خلال سقوطها كأنها غطاس يقفز رأسيًا مادًا ذراعيه إلى الأمام ثم تنكسر رقبته عند اصطدامه بالأرض.

انتبه إلى أن كل من في تلك الحديقة المشتركة رفع رأسه ليرى ذلك الرجل المجنون على الشرفة وتلك المرأة في برنص الحمام التي تقدمت منه فأمسكت بيده وشدته في اتجاه النافذة. سمح لها بأن تقوده، لكنه خلّص نفسه منها بعد أن صار في الداخل وسار إلى المطبخ بخطى واسعة ففتح زجاجة بيرة أفرغها في جرعتين طويلتين اثنتين وعيناه مثبتتان إلى عينيها طيلة الوقت.

قالت له: «قاتِل كرجل، لا كصبي».

«أهذه هي النصيحة التي يتناقلونها من الآباء إلى الأبناء في أسرتك؟»

ظلت تلك الكلمات معلقة على نحو مخيف في الهواء الفائح برائحة البيرة. وضع الزجاجةَ وجلس على أحد الكراسي وراح ينظر إلى بقع الكرز على يدَيْه. كان يسمع من النافذة المفتوحة الصوت المرتفع الذي كان صوت جارهم الخارج من بيته ليرى ذلك الحطام في الممر. جلست أنيقة على الكرسي المقابل له، ومن خلفها امتدت الغرفة الطويلة بتصميمها ذي الذوق الرفيع... خطوط الإنارة في السقف، والأعمال الفنية الغالية. هذا كله من إنتاج أمه. كلُّ جزء منه منسجم مع الأجزاء الأخرى من غير أية شائبة، ما عدا هذه المرأة التي سمح لها بأن تكون هنا.

قالت له: «إنه يريد العودةَ إلى البلاد».

«بل يمكنه أن يمضي حياته مقيمًا في الصحراء التي اختارَها لنفسه، أليس كذلك؟»

«أرجوك يا إيمون».

«أرجوك... ماذا؟ أوه، يا إلهي...» ضغط بإبهام يده على الحافة المسننة لسدادة الزجاجة، ضغط بشدة حتى انبجسَ الدم... «لماذا لحقتِ بابن وزير الداخلية في المترو ذلك اليوم؟»

أمسكت بيده، ثم وضعت إبهامَه في فمها. صار دمه في داخلها. ابتعد عنها قائلًا كلمة واحدة... «لا».

رفعت صوتها وهي تقول: «لحقت بك إلى المترو لأنني وجدتك جميلًا».

«لا تكذبي عليّ». ضربَ بيده على طاولة المطبخ فقفز وعاء الفاكهة من مكانه، وقفزت أنيقة في مكانها أيضًا.

سمعها تقول بصوت منخفض لا يكاد يُسمع: «لحقت بك لأنني ظننت أن ابن وزير الداخلية قادرٌ على مساعدة أخي في العودة إلى البلاد وتفادي توجيه أي اتهام إليه».

أبدًا لم يشعر قبل الآن بألم مثل هذا: «أهذا كلُّ ما في الأمر إذًا؟»

«لا!...» حاولتْ أن تمسك بيده من جديد، لكنه دفعها عنه، دفعها جسديًا هذه المرة... «أعرف أن ما من سبب يدعوك إلى تصديقي. لكن الحقيقة هي... الحقيقة هي...»

«على الأقل، أظهري لي الاحترام الكافي لتجنيبي سماعَ عبارة من نوع 'وَقعت في حبك من القبلة الأولى'. افعلي هذا من أجلي».

ببساطة قالت له: «لقد كنتَ أملًا. كان العالم مظلمًا، وكنت أنت هناك... مضيئًا في ذلك الظلام. كيف يستطيع أحد ألّا يحب الأمل؟»

«حبٌّ مشروطٌ تمامًا بما يمكن أن يمثله من أمل لأخيك».

«لم أكن قادرة على فعل هذا، طيلةَ هذه الأسابيع كلها، لو لم تكن مشاعري نحوك حقيقية. عليك أنت أن تختارَ أن تصدّقني أو ألّا تصدّقني. لن تقنعك أي كلمات أقولها».

«أخرجي من هنا».

خرجت من غير أية كلمة. كان قادرًا على سماع حركتها في غرفة نومهما، في غرفة نومه. وكان قادرًا على أن يتخيلَ جسدَها بوضوح تام وهي تفك حزام برنص الحمام وتنحني لتفتحَ درجَ ملابسها الداخلية الحريرية. ارتدى قميصَه ونزلَ إلى الطابق السفلي حاملًا مكنسةً وسلةَ قمامة، ثم قرع باب الجيران. قال للسيدة رحيمي إنه أوقع النباتات من غير قصد ففاجأه سماع كم كانت نبرة صوته طبيعية... ثم، نعم، من حسن حظه أنه لم يسقط أيضًا، ثم، نعم، لقد سبقَ لها تحذيره من استخدام ذلك السطح من غير أن يضع له سياجًا مناسبًا وإلا فسوف تقع حوادث من هذا النوع. ثم أصر، على الرغم من اعتراضاتها، على مساعدة زوجها غير المعترض في إزالة ذلك الحطام من الممر. وعلى الرغم من كناستِه النشطة المركزة، استغرقَ الأمر زمنًا أطولَ مما توقع لأن شظايا الخزف المتكسرة وكتلَ التراب الصغيرة كانت منتشرة في كل مكان. قال السيد

رحيمي إن شجرةَ البرتقال القزمية قابلة لإعادة الزرع من جديد. أما الصبار، ذلك المسكين، فما عاد صالحًا إلا للكومبوست.[1] ثم تلا ذلك حديثٌ عن حاوية الكومبوست التي وضعتها البلدية وكم هي صغيرةٌ إلى حد السخف، فرمى إيمون بنفسه في هذا الحديث بحماسة كبرى. وبعد ذلك، انتقلا إلى شجرة البرتقال فقالت السيدة رحيمي إن هنالك نوعًا من المربى الفارسي يمكن تمامًا أن تكون هذه البرتقالات صالحة له. قال لها إيمون إن هناك مثلًا قديمًا في نوتينغهيل... «إذا أسقطت شجرة في ممر جيرانك، فإن كل ما عليها من ثمار يكون حقًا مشروعًا لهم، خاصة إذا كان ذلك يحميك من مقاضاتك». كان هذا كافيًا لكسب السيد رحيمي فتذكر إيمون كم هو سهلٌ أن يكون المرء كائنًا اجتماعيًا يحبه الناس وتحيط به البساطة من كل جانب. وفي آخر المطاف، قال السيد رحيمي إنه سيعود إلى متابعة مباراة الكريكيت، فهل يحب إيمون أن ينضمَ إليه. قال إيمون إنه يحب ذلك. لم يسمع بعد أصواتًا تنبئه بأنها خرجت من شقته.

قال السيد رحيمي وهو يقود إيمون إلى الغرفة التي فيها جهاز التلفزيون: «عندما أتيت إلى إنكلترا طالبًا، قررت أنه عليّ أن أفهمَ لعبة الكريكيت حتى أستطيع فهمَ رهافة الطبع الإنكليزي». ثم وضع إصبعَه على شفتيه وأخرج زجاجتّي بيرة من براد صغير. ناول إيمون زجاجةً منهما.. «ثم صادفت إيان بوثام[2] فاكتشفت أن الإنجليز ليسوا بتلك الرهافة التي يريدونَ جعل العالم مقتنعًا بأنها لديهم. أما أنتم، أيها الباكستانيون، فلديكم تلك الحركات والخدع العجيبة عندما تلعبون الكريكيت».

(1) البقايا النباتية المتخمرة التي تُستخدم سمادًا.
(2) لاعب كريكت إنجليزي شهير.

عادة ما تكون استجابة إيمون لعبارات من هذا النوع قول شيء من قبيل، «لم أذهب إلى باكستان أبدًا». أما الآن، فلم يكن راغبًا في قول هذا.

دخلت السيدة رحيمي الغرفة فأخذت الزجاجة من يد زوجها ووضعت محلها كأسًا فيه شيء مُعَدٌّ من اللبن. قال لها السيد رحيمي شيئًا باللغة الفارسية، وكان في نبرة صوته شيءٌ من العتب المحِب الرقيق. لقد تزوجا منذ ثلاثين عامًا رغم عدم موافقة أسرتيهما: فارقٌ طبقيٌ غير قابل للتجاوز في نظر أسرته، أكثر من أي فارق آخر. قالت والدة السيدة رحيمي إن من الأفضل له أن يتزوجَ سُنّية من العراق. إنها الأم نفسها التي صارت الآن تمضي شهورًا في لندن وتقصُّ على كل من يحب أن يستمعَ إليها كيف تهملها بقية كنّاتها إهمالًا شديدًا بالمقارنة مع هذه الكنة التي عاملتها تلك المعاملة السيئة أول الأمر.

نهض إيمون واقفًا واعتذر. قال إن عليه أن يذهب. قال أيضًا إنه آسف لأن دفءَ جيرانه وحسن ضيافتهم أنسياه أنه ينتظر زائرًا. ذهب وترك السيد والسيدة رحيمي جالسيّن في غرفة التلفزيون؛ وكان السيد رحيمي يشرب من زجاجة إيمون، أما السيدة رحيمي فكانت ترتشف البيرة من الزجاجة التي صادرتها من زوجها.

صعد السُلمَ قافزًا كل درجتين معًا، ثم نادى أنيقة وهو يفتح بابَ الشقة. ظن أنها ذهبت عندما لم يسمع إجابة، لكنه وجدَها جالسةً على حافة سريرهما، ورأى أنها لا تزال في برنص الحمام الذي بقّعه الكرز.

جلسَ إلى جانبها من غير أن يمسَّها. مدت يدها في اتجاهه. رأى في يدها هاتفَها وعلى شاشته صورة إعدادات الأمان التي تضمن عدمَ قدرة أحد على رؤية اتصالاتها ورسائلها من غير إدخال رمز المرور. كتبت الرمزَ وفتحت صورة. صبي على رأسه سماعات يستدير في اتجاه الكاميرا مبتسمًا ابتسامةً واسعة وهو يشير بإبهامه إلى الأعلى. كان له لون

جلد أنيقة وعظامها الدقيقة. لكن هذه الملامح التي تجعلها تبدو عنيفة كأنها فهد، أعطته مظهرًا هشًا. عينان ناعستان، وكتفان ضيقان. لو كان واقفًا في غرفة مع أختيه فسوف تتجاوزه عيناك متجهتين مباشرة إلى جمال أنيقة وإلى جاذبية عصمة. قالت من غير داعٍ وهي تميل في اتجاهه:

«هذا هو برويز. هذا هو شقيقي التوأم. لقد أمضيت كل يوم من الأشهر الستة الماضية في قلق شديد عليه. وهو يريد العودة إلى البلاد الآن. لكن والدَك غير متسامح، غير متسامح خاصة مع الناس الذين هم مثله. هذا يعني أن أخي لن يعود. والحقيقة أنني لا أعرف ما الذي أستطيع فعلَه... نصفي هناك دائمًا، يتساءل إن كان حيًا، يتساءل عما يفعله، وعما فعلَه أيضًا. لقد تعبت كثيرًا من هذا. أريد أن أكون هنا، أن أكونَ هنا كُلّي. أن أكونَ هنا معك».

هذا ما ستقوله لو كانت مستمرة في محاولة التلاعب به فحسب. وهذا ما ستقوله لو أنها واقعة حقًا في حبه.

لقد قالت السيدة رحيمي ذات مرة: «أتظن أن الزواجَ مكوَّنًا من الأشياء الكبيرة؟ إنه مكوَّنٌ من أشياء صغيرة. هل يستطيع الزوجان العيش مع المجادلات المتعلقة بأعمال المنزل؟ وهل يستطيعان العيش مع تفضيلاتهما المختلفة فيما يخصّ مشاهدة التلفزيون؟» فكّرَ في أنيقة وهي تفتح أدراجَ مطبخه وتسخر من أداة نزع نوى الكرز التي تنزع نوى الكرز، ومن أداة تجويف التفاح التي تجوّف التفاح. حياةٌ مكوَّنة من أشياء صغيرة كانت تتشكل بينهما.

قالت له: «لقد فعلت ما ينهي علاقتنا، أليس كذلك؟»

أحاطها بذراعيه وقبّل قمة رأسها قائلًا لها وهو يحس الارتياح يسري في جسدها وفي جسده: «لا. أخبريني كل شيء عن أخيك».

****

كانت أمه قد نبهته إلى ما جرى من زيادة التدابير الأمنية بعد الانتباه الواسع الذي أثارته كلمة والده في برادفورد، لكن تحذيرها لم يخفّف من غرابة رؤية عملاء قسم الحراسات الأمنية منتشرين حيث كانت الأشجار في أسفل الحديقة. هذا يقلل احتمال قدرة أي إرهابي على الدخول من غير أن يلاحظه أحد... هكذا قالت أمه على الهاتف عندما سألته إن كان يستطيع المرور لتناول الفطور عندها. قالت له أيضًا إن الأصوات التي يسمعها في الخلفية ناتجة عن بيت الشجرة الذي أحبه في طفولته لأنهم يفككونه الآن. لم يستشعر في صوتها قلقًا عندما تحدث معها على الهاتف، لكنه رأى الآن دوائر داكنة حول عينيها الكستنائيتين. كانت عاقدة ذراعيها على صدرها وقد دسّت كفيها تحت إبطيها كما اعتادت أن تفعل حتى لا يرى أحد أظافرها المقصوصة قصيرًا إلى حد غير مألوف بعد أن قرضتها بأسنانها. كانت أمه بالنسبة لأبيه أشبه ببورتريه دوريان غراي[1]: يظهر عليها كل ما يفترض أن يحسه من قلق.

أخطأت تيري لون نظرة الانزعاج التي رأت ابنها يلقيها في اتجاه عملاء الشرطة، وأدارت ظهرها إليهم فدسّت شيكًا مصرفيًا في جيبه. وعندما هزّ رأسه وأعاد الشيك إليها، قالت وهي ترفع حاجبيها: «هل تقصد القول إن هذا ليس هو السبب الذي جعلك تأتي في هذه الساعة المبكرة؟ لا أقصد أن يكون هذا اتهامًا... فأنت تعرف أن مساعدتك تسرّني».

وضع سترتَه على كتفَيْ أمه، لا استجابةً إلى أية إشارة منها بأنها تحس بردَ تلك الساعة الباكرة من الصباح بل إظهارًا لعاطفته تجاهها. «أنت رائعة. لكن هنالك بعض السندات التي اشتريتِها لي منذ سنوات قد حان وقت استحقاقها الآن. وعلى أية حال، فسوف أعود إلى العمل عما

(1) صورة دوريان غراي: رواية شهيرة لأوسكار وايلد تحولت إلى فيلم، وقد ترجمها لويس عوض، ونشرتها دار التنوير.

قريب. تُرى أليس متناسبًا مع شخصيتي العمل في شركة علاقات عامة. فلديها وظيفة في انتظاري».

لم يكن واثقًا من أن هذا ما يريد فعله، لكنه كان يعرف أنه غير قادر على الذهاب إلى العمة نسيم على النحو الذي ارادته أنيقة من غير أن يكون له عمل.

«لا بأس، أنت تعرف آرائي في الوظيفة من أجل الوظيفة في حد ذاتها، لكن خطتَك هذه ستسر والدك». قالت له أمه هذا فأتاحت له فرصةً لسؤالها عن مكان أبيه الآن.

«إنه في مكتبه، بالطبع. انظر إذا كنتَ قادرًا على جرّه إلى الخارج بينما أذهب لإلقاء نظرة على الورود».

نظر إليها لحظةً وهي تسير مبتعدة إلى شجيرات الورد. تيري لون التي ولِدت في عائلة أوفلين في أمهرست بولاية ماساشوستس، واحدةٌ من أنجح اختصاصيي التصميم الداخلي في أوروبا ولها سلسلة متاجر تحمل اسمها، متاجر ممتدة من هلنسكي إلى دبي. عندما كانت في السادسة عشرة، أخرجَها أبُوها وأمها من المدرسة قبل أسابيع من نهاية الفصل الدراسي حتى تسافر إلى لندن معهم آملينَ أن تشفيها زيارة مدينة «الثقافة الحقيقية» من اهتمامها المتزايد بالحركة النسوية المقلقة التي كانت شديدة النشاط في كلية سميث القريبة منهم. وصلوا إلى لندن ونزلوا في فندق سافوي في التاسع والعشرين من نيسان سنة 1978، وفي صباح اليوم التالي، بينما كان والداها لا يزالان نائمَيْن بعد سفرة طويلة بالطائرة، ذهبت الفتاة المطيعة على ساحة ترافالغار لترى المتحف الوطني فرأت هناك آلاف الأشخاص مجتمعين من أجل مسيرة «موسيقى الروك ضد العنصرية» التي كانت على وشك الانطلاق من تلك النقطة في اتجاه منتزه فكتوريا للاستماع إلى فرقة «ذا كلاش» وغيرها من الموسيقيين والمغنّين الذين يرفعون أصواتَهم أعلى من صوت الأغاني العنصرية

لأنصار الجبهة الوطنية. قال لها شابٌ إسبانيٌّ له شعرٌ طويل متدلٍّ على كتفيه من فوق سترته الجلدية السوداء التي غطتها ملصقاتٌ أراد منها أن يجعل من ينظرون إليه يعرفون أن «النازية ليست شيئًا ظريفًا» وأن «العنصريون سيئون في الفراش»: «هل أنت قادمة معنا؟» ساروا برهة من الزمن قبل أن تكتشف أن والديه كانا من باكستان في حقيقة الأمر... بلدٌ لم تسمع به من قبل. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، عندما استطاع الجانب المطيع من شخصيتها أن يفرض نفسَه ويذكّرها بأن عليها العودة إلى أهلها، أصرّ الشاب على مرافقتها حتى فندق سافوي رغم مخاطرته بتفويت مناسبة «ذا كلاش». وعندما انفجرت باكية لأنها موشكة على توديع شخص أعجبَها إلى هذا الحد، أقسَمَ لها على أنه سوف يتزوجها ذات يوم. ثم مرت سنتان أمضياهما في المراسلة إلى أن انتسبت إلى مدرسة تشيلسي للفنون؛ وكان في ذلك الوقت قد تركَ الجامعة واستبدل بسترته الجلد بدلة رسمية فوجدت ذلك التغيّر مخيبًا للأمل ومصدر راحة في الوقت نفسه.

اقتلعت تيري لون تويج وردًا أصفر اللون وضغطت نعومته على قمة أنفها. الآن فقط، فهم إيمون كيف يمكن أن تقررَ أنها تريد الزواجَ من شخص ما خلال ساعات بعد الظهيرة من غير أن تكون جرعة مخدرات عاملًا رئيسيًا في ذلك (توصل إلى هذه الفكرة مع أخته إيميلي منذ سنوات). تساءل إيمون إن كانت تمنت في حياتها لو أنها أكملت سيرَها في اتجاه المتحف الوطني. لم يكن أبوه وأمُه غير سعيدين معًا؛ لكنهما كانا في حالة أشبه بالانفصال. كانت أمه تتابع التزامَها اليومي بعملها مثلما صار والده شديدَ الانشغال إلى حد لا يسمح له بالذهاب في عطلات ولا حتى مشاركتهم الفطور... بدا ذلك متناسبًا على نحو ما مع الحالة التي بلغها زواجهما. وفي هذا اليوم خاصة، تمنى إيمون لو أنهما كانا أكثرَ شبهًا بالسيد والسيدة رحيمي.

نظر في أرجاء الشرفة من حوله وحاولَ تخيل مناسبة في وقت لاحق من هذا الصيف يمكن أن تجتمعَ فيها أسرتان جالستان إلى العشاء في أمسية لطيفة. كارامات وتيري وإيميلي وإيمون، وأنيقة وعصمة والعمة نسيم، بل ربما برويز أيضًا. اعترف لنفسه بأنه ليست لديه أية فكرة عن كيف يمكن أن ينتقلَ العالم من هذه اللحظة إلى تلك اللحظة المتخيَّلة: كان يعرف فقط إن عليهم جميعًا أن يجدوا طريقةً لجعل ذلك يحدث.

دخل البيتَ واتجهَ إلى مكتب والده الذي في القبو: غرفةٌ مفتقرة إلى بصمة أسلوب أمه المتقشف في التصميم بخشبها الداكن ومصابيحها القوية وانعدام النوافذ فيها. لقد تركت سنوات الدراسة الليلية أثرَها على كارامات لون الذي يصير أكثرَ إنتاجية في غياب أي شعاع أو بصيص من الضوء الطبيعي.

«منذ متى يطرق ابني البابَ قبل أن يدخل؟» قال هذا وهو يقف ويقبّل إيمون ويحتضنه... شكلٌ من التحية ظل محرجًا له سنوات طويلة إلى أن توقفَ شعوره بالحرج من تلقاء نفسه ذات يوم.

«منذ أن بدأ والدي يأتي إلى البيت بوثائق في غاية السرية. هل يكتبون عليها حقًا سري للغاية؟»

«لا... إن عليها عبارة: إذا لم تكن شخصًا هامًا بما فيه الكفاية لأن تكون قراءة هذه الوثيقة مسموحًا لك فسوف تموت قريبًا! تكون هذه الجملة مكتوبة بأحرف صغيرة جدًا وإلا فلن يبقى على الورقة مساحة لأي شيء آخر. لماذا أنت مستيقظ منذ الآن، فضلًا عن كونك هنا؟»

«هنالك شيء أريد أن أتحدثَ عنه معك. هل يمكننا أن نجلس دقيقة؟»

أشار إلى أبيه بأن يعود إلى كرسيّه الجلد القديم، ثم جلسَ قبالتَه على حافة المكتب: وضعيةٌ ظلَ وقتًا طويلًا يتخذها خلال مجادلات حادّة مع أبيه (مواضيع دروسه في الثانوية العامة، وذهابه في رحلة مع ماكس،

والترتيبات المتخَذة من أجل إجهاض صديقته) خلال تلك الفترة من مراهقته عندما كان كارامات لون لا يزال برلمانيًا في الصف الثاني، وعندما كان لا يزال لديه وقتٌ لممارسة الأبوة أكثرَ من الوقت الذي لدى زوجته. كان إيمون وأخته يذهبان إلى تيري كلما أرادا الحصولَ على ألعاب جديدة، أو سيارات، وفيما بعد شقة لكي يعيش كلٌ منهما وحده: كانت لهما معها علاقة صلبة واضحة فيها خياران فقط، نعم ولا... نعم أكثر الأحيان. وأما في علاقة الأب وابنه فكان كل شيء أكثرَ تجريدًا: حبٌ من حيث الأساس تعلوه طبقاتٌ من مشاعر متضاربة تجعل أمه وأخته مرهقتَيْن دائمًا نتيجة صعودها وهبوطها. كان أبوهُ يقول: «مَن هذا الفتى الإنكليزي المتعجرف الذي له وجهٌ يشبه وجهي؟» يقولها منزعجًا أحيانًا، ومعتزًا أحيانًا أخرى. وكان ابنه يجيبه: «إنني من صُنعِك أنت، فلا تلم إلا نفسَك»؛ فيجيبه أبوه بعبارة «ليس في هذا شيء أُلام عليه يا حبيبي، يا روحي» أو «هذا ما صنعته أمك، لا أنا».

قال إيمون: «إنني أقابل فتاة». فرأى حاجبَيْ أبيه يرتفعان قليلًا.

ذات صباح، عندما كان إيمون على علاقة بأليس، انفتحَ باب غرفته فجأة ودخلَ كارامات لون وهو سائرٌ بركبتين مرتجفتين تحت ثقل سمكة هلبوت ضخمة حملَها تحت ذراعيه. وقد التصقت شرائح من الجليد بجلده. لقد وضعَ السمكةَ الضخمة على سرير ابنه ولم يقل له إلا «إليك بديلًا». قبل ذلك، لم يره أحدٌ في الأسرة كلها يقوم بفعل على هذه الدرجة من الفظاظة. أُصيبت إيميلي وتيري بالفزع والاشمئزاز، وسرت في البيت كلمات «كاره النساء» و«خنزيرٌ شوفيني». تظاهرَ إيمون بالوقوف معهما، ولم يعترف بأن فعلةَ أبيه قد سرَّته وبأن تلك الفعلة قد وضعت حدًا نهائيًا لعلاقته بأليس رغم أنه لم يوافقه الرأي تمامَ الموافقة إلا بعد علاقته بأنيقة... نعم، لقد كانت أليس سمكةً باردة حقًا.

قال إيمون: «لا تنظر إليّ هكذا. إنها ليست كالأخريات».

«وكيف هذا؟»

«على سبيل البداية، هي ليست من هذه المنطقة».

«أليست بريطانية؟»

«ليست من غرب لندن».

«استقبل أبوه هذه المعلومة بنخرة غير متحفّظة، ذلك الصوت الذي كان ابنه وابنته يحاران دائمًا في قدرته عن الامتناع عن إطلاقه في حياته العامة... «لا بأس، هذا تغيير. فمن أين هي؟ تشيلتهام؟ ريتشموند؟ يا إلهي، لا تقل لي إنها من جنوب النهر؟»

«من ويمبلي».

بدت الدهشة على والده، وبدا عليه السرور لأن الدهشةَ أصابته. أمسك إيمون بثقالة الورق التي تحمل تمثالين صغيرين لأسد ووحيد القرن، ثم أدارها بين يديه بحياء قليلًا وقد أزاحَ كلَ ما يشغل باله جانبًا وهو يخبر الرجلَ الذي يحبه أكثرَ من أي شخص في العالم عن المرأة التي أحبَها أكثرَ من أية امرأة في العالم. قال له إن اسمَها أنيقة، نعم إنها باكستانية. نشأت أمها في كراتشي وكان أبوها بريطانيًا من الجيل الثاني أتى والداه في الأصل من غوجرانوالا. تيتمت في الثانية عشرة من عمرها فربّتها أختها. بريستون رود، جميلة، شديدة الذكاء، يا أبي... وهي تدرس القانونَ في مدرسة لندن للاقتصاد. عمرها تسعة عشر عامًا فقط، لكنها أكثرَ نضجًا من ذلك، بكثير. نعم، الأمر جاد تمامًا. ييه عشق هاي.[1] أمسك أبوه بيده وشدَ عليها عندما نطقَ هذه الكلمات بلغة أوردو وابتسم له ابتسامةً عريضة.

«حسنٌ، إن كان حبًا فمن الأفضل أن تأتي بها إلينا. ما رأيك في يوم الأحد القادم؟»

---

(1) إنه الحب (بلغة الأوردو).

«هنالك شيءٌ يجب أن تعرفه. إنها... حسنٌ، مسلمة».

«وكم هي 'حسنٌ مسلمة' على وجه التحديد؟»

«إنها تصلي. لا تصلي خمسَ مرات في اليوم، بل مرةٌ كلَ صباح... أول ما تفعله بعد استيقاظها. وهي لا تشرب الخمرة ولا تأكل لحمَ الخنزير. كما أنها تصوم شهرَ رمضان، وتضع حجابًا».

«آها! لكنها لا تجد مشكلةً في...» ضم كفيه معًا ثم باعدهما قليلًا.

«ماذا؟ في فتح كتاب؟»

«بل في الجنس».

«أبي! لا، ليست لديها مشكلة في ذلك. ليست هنالك أبدًا أية مشكلة في ذلك. أما إذا كنت تريد أن أعلمك بعض حركات اليدين التي تشير إلى الجنس، فجرب واحدةً من هذه».

«شكرًا لك. هذه يمكن أن تكون مفيدة في البرلمان».

«هذا يعني أنها ليست سمكة هلبوت. يسرني أن أسمعَ هذا». ابتسم بالطريقة التي أكسبته لقبَ الذئب.

«أنت تتلقى هذه الأنباء بطريقة أفضل كثيرًا مما كنت أتوقع».

«ماذا؟ أتظنني أجد مشكلةً في علاقتك مع فتاة مسلمة؟ إنني أواجه مشاكلَ أكبرَ بكثير مع كل تلك الفتيات ذوات الأسماء المزدوجة اللواتي لا يُضيّع آباؤهن دقيقة قبل إخباري بصلة عائلاتهم القديمة مع الحاكم البريطاني في هذه المقاطعة أو تلك في الهند، وكيف ساعدوه في تحقيق ذلك النصر. كيف ساعدوه في إخماد العصيان... كيف ساعدوه في إخماد العصيان! يقولون ذلك كلَه بطريقة تبدو مهذبة تهذيبًا لا شائبةَ فيه، لكن كل من يسمعهم يدرك أنهم يحاولونَ جعلي أفهم أن ابني ليس مناسبًا لبناتهم».

انتظر إيمون ريثما ينتهي أبوه من هذا الاستطراد. لو كانت لدى والد

أليس المسكين أية فكرة عن حجم الإساءة التي سببها لسميّه[1] عندما استخدمَ عبارة «المساعدة في إخماد العصيان». (هذا ما قالته أليس، فكان هاري الشخص الوحيد الذي نظرَ إليها نظرةَ استغراب؛ إلا أن هاري كانت لديه نسخته الصغيرة الخاصة من هذه القصة نفسها). «على أية حال، إذا كانت في التاسعة عشرة فقط، فأنا أتوقع أن من الممكن إقناعها بترك الحجاب بعد مضي بعض الوقت. اطلب من أختك أن تأخذها إلى صالون الشعر عندما تأتي لتزورنا في مرة قادمة. إنني أمزح! أنت تعرف أنني كنت فتى مسلمًا مؤمنًا. لم أسبب بذلك أي أذى لأي إنسان، إلا لنفسي».

«الحقيقة أنني لم أكن أعرف هذا. أعني... أعرف أن والديك كانا يجعلانك تذهب إلى المسجد وتصوم... وكل تلك الأشياء، لكني لم أعرف أنك كنت مؤمنًا حقًا».

«ألم تكن تعرف. نعم، لقد كنت مؤمنًا. هكذا ربّاني أهلي. ولا أزال أتلو آية الكرسي عندما أمرُّ بلحظات من التوتر الشديد... إنها تريح نفسي».

«هل هي دعاء؟»

«أجل. اسأل صديقتك عنها. بل... لا تسألها. أُفضّل ألّا تذكر لأحد ما قلته لك».

«لست مضطرًا إلى إخفاء أشياءَ من هذا النوع».

«لن أكون مرتاحًا تجاه وزير الداخلية الذي قال جهارًا إنه ملحد، لكنه يتلو في السر أدعيةً إسلامية. ألن يكون لديك الشعور نفسه؟»

«هل يبدو عليَّ عدم الارتياح؟»

«يبدو عليك التوتر منذ بداية هذا الحديث. اسمع يا ولدي، إنها

---

(1) أي أن لوالدي إيمون وأليس الاسم نفسه.

صديقتك. أما أنا، فسوف يكون سلوكي معها جيدًا جدًا، كعادتي دائمًا. أما ما يمكن أن أقوله عندما تنتهي علاقتك بها، فتلك مسألة أخرى».

«لا يزال هنالك شيءٌ آخر. إنه فتى كانت قريبة منه أيام المدرسة. لقد ذهب إلى سورية لا أقصد القولَ إنه ذهب في مهمة إنسانية...»

«برويز باشا».

«كيف تعرف هذا؟»

«أعرف أسماءَهم جميعًا. وأعرف أين نشأَ كل واحد منهم. أعرف من كان كلُّ واحد منهم قبل ذهابه. هنالك واحدٌ فقط من بريستون رود. إنه آخر مكان في إنكلترا أتوقع أن يحدث فيه هذا النوع من الأمور. لكن ذلك الفتى كانت له ظروفٌ استثنائية. الإرهاب متوارثٌ في أسرته. هذا يبين لنا أن علينا أن نعملَ كثيرًا جدًا لاقتلاع هذه الأمور من جذورها. إنني أعني هذا حرفيًا. القبض على الجذور نفسها وشدها لإخراجها. إخراج الأطفال من هذه البيئات قبل أن يبلغوا سنًا تسمح بأن يسري هذا السم فيهم».

«لا، الأمر ليس هكذا».

«ما هو الذي ليس هكذا؟»

نهض إيمون واقفًا. كان الجوّ شديدَ الدفء في هذا المكان... إلى حد مزعج. وكان الكلام الذي رتبَه في رأسه قد بدأَ يتفكك بفعل تلك الحقيقة البسيطة نفسها... وجودَه في حضور والده. (يعرف أنه مخطئ. لقد جرى غسل دماغه، لكنه يفهم الآن، لكنه يريد العودة الآن. لم يشارك في أي نوع من أنواع القتال، ولم يجنّد أحدًا. إنه في التاسعة عشرة فحسب. لا مبررَ لتدمير حياته من أجل هذا الأمر. لم يظهر اسمه في الصحف أبدًا: يمكنك أن تجعل الأمر يظل هكذا. وهو ليس في حاجة إلا إلى جواز سفر جديد حتى يعود بهدوء إلى البلاد من غير أن توجَّه إليه أية اتهامات. يظن أصدقاؤه كلهم أنه في باكستان طيلةَ هذا الوقت. ولم يعرف أحد بالأمر أبدًا. هذا هو الحل الأفضل للجميع... تخيّل القصة

التي سيرويها الإعلام إذا عرف أحدٌ أن ابنك يعتزم الزواجَ من شقيقة شاب ذهب إلى الرقة. لن تستطيع أبدًا مواجهة هذه الضربة).

ثقي بي!... هذا ما قاله لأنيقة. إنني أعرف أبي. أعرف كيف أعرض الأمرَ حتى أجعله يوافق. لكن هذا ليس عرضًا للأمر، بل هو تهديد. كيف يمكنه أن يفعلَ هذا بالرجل الذي قدم إليه دائمًا حبًا غيرَ مشروط على الإطلاق؟ ولماذا ينظر إليه أبيه على هذا النحو الغريب؟... كأنه أدرك أن ابنَه قد جاء إليه حاملًا الخيانة في قلبه!

«قلت لي إنها تيتمتْ عندما كان عمرها اثني عشر عامًا، ثم ربتها أختها، أليس هذا صحيحًا؟»

«صحيح».

«تمامًا مثل برويز باشا».

«نعم، هذا صحيح. إنها شقيقته التوأم».

«يا إيمون!...» التف ذراع أبيه حول رقبته... نصف خنق، نصف عناق... «أنت، أيها الولد الغبي. يا ولدي الغبيّ».

جان... هكذا خاطبته مقبّلة عينيه، مقبّلة فمه، مقبّلة خدَّيْه، مقبّلة أنفه، عندما قال إنه سيكلم والدَه بالأمر. جان يا حياتي، إنها الكلمة التي يقولها أبوه له الآن وهو ممسكٌ بابنه. وبحركة مفاجئة أيضًا، تركه كارامات لون وتراجعَ خطوةً إلى الخلف ثم مسحَ وجهَه بيده. وحيث كان الأب واقفًا، ظهرَ له الآن وزير الداخلية.

«لن تكونَ لك أية صلة بهذه الفتاة بعد الآن. وسوف أضع إجراءات أمنية من أجلك».

«أبي! انظر... قابلها فقط. ما رأيك؟ سوف آتي بها إلى هنا. الليلة. هذا المساء، وسوف... ما الشيء الغريب في هذا؟»

«هذه الإجراءات الأمنية كلها من حول البيت؛ ثم تأتي فتاةٌ على صلة بتنظيم القاعدة وبتنظيم الدولة الإسلامية لترقص هنا بين ذراعَيْ ابني!»

«لا تتحدث عنها هكذا مرة أخرى، أبدًا! إنها المرأة التي أريد الزواجَ منها».

لم يتحرك شيء في وجه والده. قال له: «ابقَ هنا».

«وإلا ماذا؟... هل ستعتقلني؟» لكن وزير الداخلية خرجَ من الغرفة قبل نهاية السؤال. خرجَ وأغلقَ البابَ من خلفه.

جلس إيمون في كرسي أبيه ونظر إلى شاشة الكمبيوتر التي كانت عليها نافذة إدخال كلمة المرور. تصفح مجموعةَ المقتطفات الإخبارية المأخوذة من صحف هذا الصباح. تمنى لو أنه لم يترك هاتفَه في جيب سترته التي وضعها على كتفي أمه. كانت أنيقة في شقته الآن تنتظر أن يتصلَ بها ليخبرَها بما جرى. لقد أعطته رقمَ هاتفها آخر الأمر، لكنه اكتفى بتسجيله في هاتفه ولم يفكر في حفظه غيبًا. ليته لم يضحك عندما اقترحت أمَه أن يكون لديه خط هاتف أرضي!

يمكنني الذهاب متى شئت... ظل يكرر هذا لنفسه. على الأقل، يمكنني الصعود إلى الأعلى حتى آكلَ شيئًا.

مرت به لحظة رضا وجيزة عندما أدرك أنه قادر على استخدام هاتف أبيه للاتصال بخدمة الاستعلام عن الأرقام الهاتفية وسؤالهم عن رقم بيت أسرة رحيمي.

عندما أجابته السيدة رحيمي، قال لها بصوت متكسر: «هذا إيمون. من فضلك، هل يمكنك إسدائي معروفًا كبيرًا؟ هنالك صديقة في شقتي، في الأعلى. هل يمكنك أن تطلبي منها النزول؟ من الضروري أن أكلمَها الآن».

«هل تعني تلك الفتاة الجميلة التي تضع حجابًا؟ إنني آسفة، لقد ذهبت قبل لحظة. ذهبت مسرعة وكادت تصطدم بي عندما كنت خارجةً لإلقاء القمامة. بدا عليها أنها في عجلة شديدة من أمرها. هل أنت بخير؟»

سار إلى الأريكة ثم استلقى عليها وتكورَ على نفسه مثل حيوان يحاول حمايةَ الأجزاءَ الضعيفة في جسمه. مرّت بضع دقائق، ثم دخلت أمه إلى غرفة المكتب. (لا، لم تأتِ له بهاتفه. لا، عليه أن يبقى هنا حتى يقررَ أبوه غير ذلك). قالت له أن يغمضَ عينيه، ثم راحت تُمسِّد ظهرَه إلى أن غفى. وعندما استيقظ شاعرًا بأنه نام زمنًا طويلًا، وجد والدَه جالسًا خلفَ مكتبه. كان ينظر إليه.

قال أبوه: «إنها غلطتي». جلس إيمون وفرك وجهَه بيديه محاولًا أن يفهمَ معنى تلك العبارة.

كرر أبوه بصوت حزين: «إنها غلطتي. لقد اعتدت القول إن أمك من فعل ذلك؛ لكني أنا من لم يكن يريد لك أبدًا أن تعرف كيف يكون إحساسك عندما تُغلَق الأبواب في وجهك... أن تجدَ نفسك مضطرًا إلى القتال حتى تشق طريقك. لم أظن أن هذا يمكن أن يجعلك واثقًا من نفسك إلى هذا الحد، أن يجعلك تشعر بالاستحقاق الزائد إلى هذا الحد... لم أكن أظن أنه سيمنعك من السؤال الذي يجعل فتاة من هذا النوع تجد وقتًا من أجل فتى أنهى المدرسةَ قبل وقت قصير وصارَ يعيش منفصلًا عن أمه لمجرد أنه قادرٌ على ذلك، صبيٌّ لا يعدو طموحَه تجاوز النتائج المتقدمة التي حققها في ألعاب الكمبيوتر».

«ماذا فعلتَ؟»

«لم أفعل شيئًا. لقد كان عناصر الشرطة الذين جرى استدعاؤهم عندما سافر أخوها قلقينَ عليها. قالوا إن من الواضح إنها كانت مصدومة بما فعلَه، لكن انزعاجها لأنه لم يقل لها شيئًا بدا أكثرَ من انزعاجها لسفره في حد ذاته. رأوا أنها قد تكون معرضةً لخطر محاولة الذهاب والانضمام إليه. وهكذا، كان هنالك من يراقبها، من أجل سلامتها هي. لكن من الواضح أنه لم تكن هنالك أية اتصالات هاتفية بينكما، ولا أية رسائل نصية، ولا تواصل من أي نوع يمكن أن يوحي بأنها على صلة

بابني. لم يكن هنالك شيءٌ من شأنه أن يطلق جرس الإنذار. وهذا ما يطلق جرسَ الإنذار الآن. انظر إلى هذا...». وضعَ هاتف إيمون على الطاولة... «ثلاثة وعشرون اتصالًا من أنيقة باشا».

نهض إيمون واقفًا وقال: «هنالك شيءٌ غير طبيعي».

«هذا ما نحن متفقان عليه... على الأقل».

برويز

5

دخل الرجلان متجرَ الإلكترونيات في اسطنبول بهيئة واثقة تمامًا، بهيئة من يملك المكان، هيئة شبه متطابقة لديهما رغم أن ملامحهما الآسيوية الجنوبية كانت تشير إلى أنهما أجنبيان. ثوباهما الأبيضان، والشعر المتدلي حتى الكتفين، واللحيتان الطويلتان... ملامح زادت التأكيد على أنهما رجلان شكلهما يوحي بسلطتهما وقدرتهما الكبيرة على التصرف في المكان. سار الرجل الأصغر سنًا حتى الجدار الذي كانت المايكروفونات معروضة عليه، وراح يستعرض العلبَ الفارغة المصفوفة هناك، أما زميله، فقد اتكأَ على طاولة البيع التي كان البائع واقفًا من خلفها، وراحِ ينقل هاتفَه من يد إلى أخرى وهو ينظر إلى بقية زبائن المحل. سرعانَ ما خرجَ الزبائن واحدًا بعد الآخر فتركوا الرجلين والبائع وحدهم في المحل الذي يشبه كهفًا عميقًا.

قال الأصغر سنًا: «انظر إلى هذه! مايكروفونات (Røde SVMX) و(Sennheiser MKH8040) و(Neumann U 87)».

«آها. عليك فقط أن تأخذ ما طلبه أبو رئيس، ودعنا نذهب. أكاد أموت جوعًا».

مد البائع يده تحت طاولة البيع وأخرج صندوقًا: «أجهزة الصوت (788T). ألم يتلقَّ أبو رئيس رسالتي؟ الأجهزة موجودة عندي منذ أكثر من أسبوعين».

بجسده ذي العضلات البارزة، استدار الرجل الأكبر سنًا صوب البائع وقال له: «أتريد مني إخبار 'أبو رئيس' بأن عليه أن يرقص في الرقة عندما تطقطق بأصابعك هنا في اسطنبول؟» شحب لون البائع وبدأ يتمتم بكلمات اعتذار. لكن الرجل القصير الأصغر سنًا لم يلبث أن أطلق شهقة فرح عندما حمل صندوق أجهزة 788T بين يديه وراح يروزه مقدّرًا وزنه.

«آسف يا فاروق. إن على هذا أن ينتظر بعض الوقت. قال لي «أبو رئيس» إن عليّ تجربة أنواع مختلفة من المايكروفونات حتى أرى أيها أفضل أداء».

ذهب إلى جدار عرض المايكروفونات وبدأ يتناول العلب الفارغة عن الرفوف ويلقيها خلفه، في اتجاه البائع الذي صاح قائلًا: «أخبرني أيّ مايكروفونات تريد! أنت تخرّب واجهة العرض».

قال فاروق بصوت يوحي بالقرف: «أنا ذاهب إلى ذلك المقهى عند الزاوية. لديك نصف ساعة قبل أن نتوجه إلى المطار».

«لا بأس. اشترِ في طريقك بعض الطعام من أجل المتطوعين الجدد. مضت ساعات منذ وصولي ولم تعطني شيئًا آكله».

ابتسم فاروق ابتسامة عريضة: «وهل أنت طفل يا برويز؟ طفل يخاف أن يطلب قطعة خبز يأكلها؟»

«لم يعد اسمي برويز بعد الآن».

قال الرجل الأكبر سنًا بنبرة فيها شيء من السخرية: «ما شاء الله».

قال الأصغر سنًا وهو يضع يده على قلبه: «ما شاء الله».

* * *

بدأت رحلته التي أوصلته إلى متجر الإلكترونيات في اسطنبول في ليلة من ليالي الخريف الماضي عندما دخلت عصمة المطبخ وقالت إنها

ذاهبة إلى أميركا. هذا ما كان يعني أن وقت مغادرتهم بيتهم، ثلاثتهم، قد حان.

ما كان في أول ذلك المساء أي شيء يوحي بما سيأتي. مرت أسابيع قليلة منذ أن بدأت أنيقة الدراسةَ الجامعية التي لم يبدأها برويز؛ لكن نظامَ حياتهم القديم تغير وصار شيئًا من الماضي. وهكذا كان لديهم يومها نوعٌ من جو احتفالي لأن أنيقة موجودة في البيت تطهو لهم طعامَ العشاء للمرة الأولى منذ أسابيع وتنظر في كتاب الطبخ المبقّع بالزيت وقد اكتسى وجهها ذلك التعبير المعتاد: تركيزٌ شديد كما لو أن من الممكن أن تكون الوصفة قد تغيرت منذ طبّقتها للمرة التاسعة والأربعين حتى الآن، حتى المرة الخمسين. كان برويز يساعدها ويقطّع البصل مرتديًا نظارات السباحة حتى لا تتساقط دموعه. وكانت مكبرات الصوت صادحة بمجموعة الأغاني التي رتبها ابن عمهم عازف الغيتار في كراتشي: التشينتا والغيتار الجهير والدهولاك والدرامز... ومن خلال ذلك كله، صوت سكين برويز تُقطّع البصلَ الهش وتصطدم بصلابة لوح التقطيع الخشبي من تحته، وكذلك رنين سوارين رقيقين في معِصم أنيقة وهي تكيل المحتويات وهمهمة البراد الخفيضة وصوت قطار يدخل محطةَ بريستون رود تمامًا في اللحظة نفسها التي يغادر فيها قطارٌ آخر؛ وإلى جانب هذا كله ثرثرة التوأمين. كان كلامهما الليلة متركزًا على صياغة أنيقة للنص التعريفي ببرويز على أحد مواقع الزواج الآسيوية على الإنترنت: شابٌ وسيمٌ يملك بيتًا ويحب أختَه... «يبدو هذا شيئًا موحيًا بسُفاح القربى!» شابٌ قبيح يملك بيتًا ويحب أخته «يبدو هذا شيئًا يائسًا!»... شاب وسيم يملك بيتًا ويحرص على علاقاته الوثيقة مع أفراد أسرته «لماذا أنت مصرة على هذه الجملة الأولى؟ ما رأيك في شاب كئيب الوسامة يمتلك بيتًا؟» لا، لن يفهموا من عبارة «كئيب الوسامة» إلا

أنك داكن الجلد. «ما رأيك في هذه... هيتكليف[1]... كان أيضًا شخصًا عنيفًا مجنونًا بعض الشيء». نعم، لكنك تعرف من تتوجه إليهم: 'داكن الجلد' هي المشكلة الحقيقية.

دخلت عصمة الحديث تسبقها رائحة مواد التنظيف وقالت إن المشكلة الحقيقية هي الانعدام الكامل لوجود أية آفاق مهنية لدى أخيهما. أزاح برويز لوح التقطيع جانبًا، ثم نزع عنه نظارة السباحة وأمسك بهاتفه الذي لم تظهر على شاشته أية رسالة من أصدقائه في بريستون رود (الأصدقاء الذين صاروا متفرقين الآن، جغرافيًا وعاطفيًا، بفعل متطلبات حياة كل منهم بعد انتهاء المدرسة). قالت عصمة: «اخفض صوتَ الأغاني واصغِ إلى ما سأقوله». جعله مظهرها الجاد يفعل ما طلبته منه رغم أن ردةَ فعله المعتادة كانت أن يستجيبَ برفع الصوت، لا بخفضه. انتبهت أنيقة إلى مظهرها الجدّي أيضًا، ووضعت يدَها على يد أختهما وقالت لها: «أخبرينا».

لقد حصلت عصمة على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأميركية. وسوف تسافر في منتصف شهر كانون الثاني. أعلنت هذا كله مثلما قد تعلن امرأة أخرى خبرَ خطوبتها: معتزّة، خجلة، قلقة تجاه ردة فعل أسرتها تجاه الخبر الذي لم يكن أحد يتوقعه.

تقدمت أنيقة منها وضمّتها بين ذراعيها: «صحيح أننا سنشتاق إليك، لكننا فرحين كثيرًا من أجلك. ونحن فخوران بك أيضًا. أليس هذه صحيحًا يا برويز؟»

---

(1) هيتكليف شخصية من شخصيات رواية «مرتفعات ويذرينغ» لإيميلي برونتي. ونتيجة شهرة الرواية، صار هذا الاسم مستخدمًا للإشارة إلى شخصية البطل الرومانسي المعذَّب الذي تؤدي عاطفته الجارفة إلى تدميره وتدمير من هم حوله.

«أميركا!» بدت تلك الكلمة غريبة في فمه... «هل حصلت على التأشيرة حقًا؟»

«أعرف، أعرف... أنا أيضًا لم أكن أتوقع أن يمنحوني إياها».

عندما تحدثت أولَ مرة مع أخيها وأختها عن الرسالة التي كتبتها لها د. شاه واقترحت عليها فيها (بل أمرتها، تقريبًا) أن تتقدمَ إلى برنامج الدكتوراه، قال لها برويز: «ما الغاية من هذا؟» فوافقته عصمة على الفور: «صحيحٌ، إنه محق». لم يكن توقّع برويز صحيحًا، ولم يكن توقّع عصمة صحيحًا أيضًا عندما قالت إن عدمَ وجود احتمال للحصول على التأشيرة يجعل الأمرَ كله عبثًا. وكانوا كلَهم مدركينَ تمامًا أن تفكيرَهم في أبيهم كامنٌ تحت ذلك الحديث كله. إلا أن أنيقة كانت مصرّة على أن تتقدمَ عصمة بطلب التأشيرة. قالت: «العالم يفاجئك أحيانًا. والأهم من هذا أنك، إن لم تحاولي، فسوف تتساءلين دائمًا عما كان يمكن أن يحدث». وبعد ما يكفي من إلحاح أنيقة، قالت عصمة أخيرًا إن امتناعها عن محاولة تقديم الطلب سوف يبدو نوعًا من الجحود تجاه د. شاه. من الواضح أنها كانت تمتلك قدرةً على مواجهة خيبات الأمل أكثر مما كان برويز يعرف وأكثرَ مما كان يظن في ذلك الوقت.

قالت أنيقة: «إذن، فما الذي نفعله بالبيت؟»

ضرب برويز على كتف أخته التوأم: «سوف آخذ غرفتَها، إنني في حاجة إلى استوديو، وقد صارَ وجودك في البيت أقل من وجودي بكثير».

نظرت الأختان، كلٌ منهما إلى الأخرى، ثم نظرتا إليه معًا. ذكرت عصمة رقمًا. كان ذلك هو المبلغ الشهري لمصاريف الأسرة. كان تستحضر هذا الرقم كلما أرادت تذكيرَ برويز بأن ما يكسبه من عمله بائعًا في محل الخضار والفاكهة ليس كافيًا، وكذلك لتذكيره بأن الزمنَ الذي يمضيه في تجميع المقاطع الموسيقية بدلًا من البحث عن فرص

عمل حقيقية ليس إلا مضيعةً للوقت. لم تكن مقتنعة بأنه جيد في هذا الميدان إلى حد يسمح له بالعثور على عمل يحبه، ولم ترَ أن اهتمامه بالصوتيات يمكن أن يكون استثمارًا للمستقبل مثلما هي شهادة القانون التي تعمل أنيقة من أجلها. كانت أنيقة قد قالت ذاتَ مرة: «هي لا تظن أن حياتَنا تسمح لنا بالحلم». قالت هذا بطريقة بدت كأنها استنكارٌ لموقف عصمة، وكأنها تبريرٌ له أيضًا.

تابعت عصمة تقول إن وضعَهم كان مقبولًا حتى الآن. لكنها لن تحصل من الجامعة في أميركا إلا على ما يكفي لعيشها هناك، تمامًا مثلما تحصل أنيقة من منحتها الدراسية هنا ما يكفيها أساسيات العيش فقط. سوف يصير تسديد أقساط البيت أمرًا مستحيلًا.

قال لها: «إذن، لا تسافري». رمته أنيقة بمكعب من البطاطس فنطحه برأسه قاذفًا به في اتجاهها من جديد. حركةٌ انعكاسية أكثرَ منها لعبًا.

فتحت عصمة خزانةَ آنية الطعام وبدأت تضع الطعامَ والكؤوس على الطاولة استعدادًا للعشاء. لكنها توقفت في وسط ذلك وقالت إن العمةَ نسيم تتقدم في السن وإنها في حاجة إلى مساعدة في البيت. صحيح أن بناتَها وأحفادَها يأتون كثيرًا لزيارتها، إلا أنها تجد صعوبةً في تدبّر أمورها. وسوف يكون وجود أيد إضافية في بيتها مساعدة كبيرة لها. بهذا الشكل، طرحت العمة نسيم هذا الخيار.

سألها برويز: «أيُ خيار؟»

«ننتقل جميعًا إلى بيت العمة نسيم، ونبيع هذا البيت». قالت أنيقة هذا كما لو أنها تتحدث عن مسألة صغيرة من قبيل شراء زوج جديد من المناشف. لكن الصدمةَ بدت على عصمة: قالت إنها لم تفكر إلا في احتمال تأجير هذا البيت. فمع افتتاح المدرسة الفرنسية الجديدة في ويمبلي السنةَ المقبلة، سوف ترتفع أسعارَ العقارات أكثر فأكثر، مما

يعني أن من الحماقة بيعَ البيت الآن. وعلى أيّ حال، فسوف تكون لديها شهادة الدكتوراه بعد بضع سنوات. وسوف تصير أنيقة محامية، وعندها يمكن أن يعودوا للعيش في هذا البيت. في الأحوال العادية، يشعر برويز بالانزعاج عندما يظل مستبعَدًا من الحديث الدائر. لكن أنيقة رفعت كتفيها في تلك اللحظة ردًا على كلام أختها فمرّ برويز بواحدة من تلك اللحظات المخيفة التي تنكشف فيها أمامَك صفةٌ في شخص تظن أنك تعرفَه جيدًا فتُحسُّ كما لو أنها استولت عليه بينما لم تكن منتبهًا.

سوف تتركهم أنيقة. هذا معنى رفع كتفيها. فهي لا تعتزم مواصلةَ الحياةَ في هذا البيت بعد الجامعة والبقاء «أختًا» فيه بدلًا من أي شيء آخر يمكن أن تتيحَه لها شهادة القانون.

قال برويز لعصمة: «لا يمكنك اتخاذ قرار في هذا الأمر الذي يخصّنا جميعًا». لكن ضميرَ الجمع 'نا' كان من غير وزن لأن أختَه الشقيقة المنشغلة بمساعدة أختها الكبرى في إعداد المائدة رفضت أن تنظرَ إليه.

قال لها مبتعدًا عن الطاولة: «خائنة». ثم أمضى في البحث عن مفاتيحه وهاتفه ومايكروفونه وقتًا أكثرَ مما يلزم لأي منهما لكي تستوقفه، لكنهما لم تفعلا هذا، فلم يعد لديه خيار غير الخروج رغمَ أن الليل في الخارج لم يكن يبدو مغريًا بما يكفي للخروج.

أمسيةٌ خريفية فيها نذُرُ الشتاء أكثرَ من بشائر الصيف. تسلل البرد عبر سترته التي لم يحسن اختيارها. وسرعان ما تحبحب جلده من تحتها. بسبب الغيوم، كانت مصابيح الشوارع تجعل سماءَ الليل حمراء شاحبة. وصارت أصوات العالم من حوله أعلى قليلًا مما تكون عادة. في واحدة من المناسبات الأولى التي صار فيها مدركًا أن سمعَه حاد، سأل برويز أستاذَه في المدرسة عن السبب الذي يجعل صوتَ الطائرات يبدو أكثر ارتفاعًا في الأيام الغائمة، فأجابَه الأستاذ بأن هذا غير صحيح، وضحك

منه زملاؤه كلهم. لكن الأستاذ عادَ في اليوم التالي وقال له إنه كان محقًا في ملاحظته.

أوقفته غلاديس، صديقة أمه القديمة، بعد أن سارَ مسافةً في الشارع وسألته عن حملة المكتبات التي كانت جارية تلك الأيام. سألته أيضًا إن كان جرس الباب لديه قد رنّ بصوت مختلف في أي وقت من الأوقات هذا اليوم. لقد رن جرس بابها بصوت مختلف وحلَ محل النغمة المعتادة شيءٌ يشبه صوتَ الصنوج. لم تجد أحدًا عندما ذهبت لتفتح الباب فعادت إلى بيتها وشغّلت جهاز التلفزيون فظهر فيه ذلك الروحاني الذي تحب مشاهدته وقال إنه إذا رنّ جرس بابك بصوت مختلف فهذا يعني أن الشيطانَ هو الطارق... لا يجوز أن تفتح له الباب.

قال لها مبتسمًا: «وهل تظنينَ أن الشيطانَ في بيتك الآن يا غلاديس؟ تعرف عصمة بعض الأدعية التي تُخرِج الشياطين».

«آمل أن أكتشفَ حقيقةَ الأمر عندما أمضي إلى فراشي الليلة. أبقِ أختك بعيدة عني!»

حياها برفع ثلاثة أصابع إلى جبهته على غرار تحية الكشافة ولاحظ تلك الخطوط التي ازدادت عمقًا حول عيني غلاديس عندما ضحكت. لم يكن فارق السن بينها وبين أمه يتجاوز بضعةَ شهور.

ترك غلاديس تفكر في ذلك الشيطان، وسار متجهًا إلى شارع بريستون رود الذي كان هادئًا بعد أن أغلقَت معظم متاجره أبوابها. ومثلما يفعل دائمًا، مالَ برأسه صوب الخط المنحني الذي يرسمه قوس الستاد الرياضي. ثم مسَّت أصابعه بحركة عاطفية بابَ مكتب كاتب العدل الذي استضافَ مكتبةً مؤقتةً في إحدى مراحل حملة المكتبات. وبعد ذلك تابعَ سيرَه في اتجاه الملعب الرياضي... كان هطول المطر قد استمرَ معظم النهار؛ ولعلَه يستطيع الآن أن يُدخلَ شيئًا من التطوير

على مقطع «أحذية على عشب رطب» ضمن مجموعته الصوتية التي كان يعمل على جعلها خلفيةً للعبة فيديو كانت قد فازت بعدة جوائز من جوائز الصوتيات. سوف يبدأ أوائلَ العام المقبل بإرسال إنتاجه إلى شركات ألعاب كبيرة وصغيرة و... أرجوك يا ربي!... سوف يبدأ تقاطر الطلبات على عمله.

كان يمشي عبر موقف السيارات فتوقفَ قليلًا ليوصل مايكروفونَه ذا الغلاف المصنوع منزليًا إلى هاتفه من غير أن ينتبهَ إلى السيارة المتوقفة وحدها هناك. انفتحت أبواب السيارة وترجّلَ منها فتيانٌ من فريق كرة القدم الذي يلعب في هذا الملعب. أحذيةٌ رياضية من ماركات معروفة، وأثواب بيضاء طويلة ولحى من النوع الذي تسميه أنيقة «لحى بيئية»: تقول إنها كبيرة إلى درجة كافية لأن يعيش فيها نظام بيئي بأسره. كان هؤلاء الفتيان يتجوّلون في الحي متخذين مظهر مثيري المشاكل من غير أن يفهموا أنهم لم يُسدوا لأنفسهم أيَّ صنيع من خلال الاسم الذي اختاروه: «استغرله». اختصار لـ«استغفر الله» في اللغة العربية. وعندما اعترضوا عصمة في الشارع ذاتَ يوم وقالوا لها إن على الأخوات أن يزددن احتشامًا في ملابسهن سألتهم: ما الذي تستغفرون الله من أجله بالضبط؟ لكن إجابتَهم أوضحت تمامًا أنهم لا يملكونَ أية فكرة عن معنى «أستغفر الله».

قال له أحدهم: «هاته» وهو يمد يدَه المفتوحة في اتجاه هاتف برويز ومايكرفونه. فقال له برويز: «سأقول لأمك».

أنزل الصبي يده (اسمه عبد الله، وهو من أصدقاء برويز في الطفولة) وغمغمَ بشيء عن أن هاتفَ برويز قديمٌ على أية حال، إلا أن الفتى الواقف إلى جانبه، وهو صبيٌّ أكبرَ منه سنًا وليسَ من الحي تقدمَ من برويز وضربَه بركبته بين ساقيه. وعندما انطوى برويز على نفسه متألمًا أخذ الهاتف من يده ملقيًا بالمايكروفون الثمين جانبًا كأنما ليبرهن على غبائه.

ظل برويز مستلقيًا على الأرض في موقف السيارات منتظرًا زوالَ الألم، بينما صعد الفتيان إلى سيارتهم التي زعقت عجلاتها منطلقة فمرّت به. هذه التركيبة الصوتية: صوتٌ متصاعدٌ، صدى قصير، وتردد بطيءٌ طويل. لا شيء مما لم يسمعه من قبل. كم يكره حياتَه وهذا الحي وهذه الحتمية في كل شيء، الحتمية التي لا سبيلَ إلى ردها.

***

صادفَه فاروق في اليوم التالي واقفًا بين الصناديق الفارغة خلفَ متجر الخضار والفاكهة وهو يحاول إزالةَ شظية خشب انغرست في كف يده.

«السلام عليكم»... خاطبَه بصوت غير مألوف باللكنة العربية الزائفة التي تنبئ بشخص غير عربي يحاول جاهدًا أن ينطقَ الكلمات نطقًا صحيحًا. فرفع برويز رأسه ليرى شخصًا قصير القامة لكنه متين البنيان. كانت عضلاته البارزة تُشوّه السترةَ الجلدية المغلقة بإحكام على جذعه. شخصٌ في حدود الثلاثين عامًا تتدلى حلقات شعره الطويل إلى كتفيه محيطةً بلحية ليست «بيئية» ولا واحدة من تقليعات اللحى الشائعة، بل هي لحيةٌ رجولية فحسب. كان له سحرٌ فوريٌ يُعوِّض أيَّ خلل في لكنته. مد يدَه لبرويز بواحدة من سكاكين الجيش السويسري وقد برز منها ملقطٌ صغير... كانت في حركته لباقةٌ مفاجئة. أخذ برويز الأداةَ وحاول أن يلتقط شظيةَ الخشب بها. لكن حركةَ يده اليسرى كانت خرقاء مرتبكة فراح يقرص جلده من غير طائل. تقدم الرجل من غير أن يقول له شيئًا، وأخذ الملقطَ منه ووضعَ يدَه تحت يد برويز لكي يثبتها، ثم أخرجَ الشظية الخشبية مبتسمًا لبرويز وغمّزَ له بعينه. وبعد ذلك ضغطَ بإبهامه على نقطة الدم التي ظهرت فأغلق الجرح الصغير.

«لقد أخذ ابن عمي الغبيّ شيئًا يخصك. إنني أعتذر. لم يعرف من أنت». أدخل يدَه في جيب سترته فأخرج الهاتف المسروق وأعادَه إلى برويز. من أنا؟ أراد برويز أن يطرحَ عليه هذا السؤال. لكنه كان يعرف

الإجابة. إنه شقيق أنيقة. عندما كان الفتيان الأكبر سنًا، الذين يموت المرء رغبةً في أن يكون صديقًا لهم، يعيرونَه أيَّ انتباه، فذلك دائمًا لأنه شقيق أنيقة. لكنها لم تُعجَب أبدًا بأولئك الذين كان برويز يحاول دفعَها في اتجاههم بل كانت تُفضل الفتيانَ الأكثرَ هدوءًا ممن تستطيع أن تتأمّر عليهم.

«هل تعرف أختي؟»

بدا له أن هذا السؤال لم يعجب الرجل. «لا شأن لي بالأخوات! إنني أعرف 'أبو برويز'!»

«أنا برويز، لكني لا أعرف أحدًا باسم 'أبو برويز'».

«ألا تعرف اسم أبيك؟»

حاول برويز أن تكون ملامح وجهه محايدة، لكن شيئًا من الحيرة ظل ظاهرًا فيها. من عساه يكون هذا الرجل... جهاز الاستخبارات البريطاني؟ الفرع الخاص؟ لقد بدّوا، هم أيضًا، شديدي الود عندما أتّوا إلى بيتهم تلك المرة خلال طفولته. دخلَ أحدهم غرفتَه ولعبَ معه بسيارات السباق على المضمار الذي كان يَشغل المساحة كلها بين سريره وسرير أنيقة؛ ثم أخذ ألبوم الصور الذي أرسلَه والد برويز وخرجَ من الغرفة. لقد أعادوا معظم الأشياءَ التي أخذوها. لكنهم لم يعيدوا صورَ عادل باشا متسلقًا الجبالَ أو جالسًا بالقرب من النار أو خائضًا في جدول مائي... وحيدًا بعضَ الأحيان، وفي صحبة رجال آخرين في أحيان أخرى، ولكنه كان دائم الابتسام، ودائمًا يحمل بندقية معلقة من كتفه أو مستقرة في حضنه. كتب أبوه على الغلاف الداخلي لذلك الألبوم «عندما تصير كبيرًا، يا بني»، وهذا ما جعل أم برويز غاضبة لأسباب لم يفهمها. وعلى الرغم من تدخل جدته لمنع كنتها من أخذ ألبوم الصور منه عند وصوله، إلا أنه كان يشكُّ دائمًا في أنها قد أخبرت رجلَ الاستخبارات الودود عنه مما جعلَه يأخذ تلك الصور لعادل باشا ويحذفها من حياة ابنه. كان

شيئًا محرِجًا أن يتذكرَ في هذه اللحظة أنه بدأ في سن مبكرة ينظر إلى أمه القلقة المتوترة دائمًا ويقول في نفسه: لا عجبَ في أنه تركها ورحل.

«لم أعرف أبي أبدًا». كان هذا ما علّمته أمه أن يقوله، مرة بعد مرة. كان الناس في الحي يتهامسونَ عن عادل باشا، وكان يعرف هذا. اعترضته مجموعة صبيان في ملعب المدرسة ذاتَ يوم وسألته إن كان صحيحًا أن أبوه جهاديٌ وإن كان حقًا ما يُقال من أنه قُتل في غوانتانامو. أجابهم بصوت خافت: «لم أعرف أبي أبدًا». ذهبَ الصبية إلى أنيقة وطرحوا عليها السؤالَ نفسه. رفعت كتفيها واستدارت مبتعدةً عنهم. كانت قد أتقنت إظهارَ الازدراء منذ أن كان عمرها تسع سنوات؛ لكنها صارت فيما بعد تهمس لأكثر أصدقائها ثرثرةً: «هذا يجعله يبدو كأنه شخص من الأفلام، أليس كذلك؟ هذا أكثر إثارة للاهتمام من أب مات بالملاريا في كراتشي».

قال الغريب: «كان حزينًا لأنك لم تعرفه أبدًا. لقد قاتلَ مع أبي. سمعت قصصًا كثيرة عن 'أبو برويز'، ذلك المقاتل العظيم».

«لم يكن اسم أبي هكذا. اسمه عادل باشا».

«لقد كان هذا...» قال الرجل كلمةً غريبة لم يفهمها برويز... «إنها التسمية الفرنسية 'للاسم الجهادي'. كلمة بمعنى 'البطل الكبير' تقريبًا... هكذا أفهمها رغم أن هنالك من الإخوة من لا يحبها. لكن، نعم... إنه أبوك. عندما ذهب حتى يقاتل من أجل الحق، أطلق على نفسه اسم «أبو برويز». كانت تلك طريقته في إبقائك قريبًا منه. وهكذا كان كل من يقول اسمه - يقوله أعداؤه بخوف، وإخوانه بحب، ورفاقه باعتزاز - فإنه ينطق اسمك أنت أيضًا».

بذعرٍ، شعر برويز بالدموع تطفر إلى عينيه في صحبة رجل لا يمكن، على الأرجح، أن يصرخَ حتى إن مرت دبابةٌ على ساقيه. لكنه لم يرَ في ملامح الرجل أيُ شيء يوحي بأن دموعَه قللت من شأنه لديه. بل جذبَ

برويز إليه واحتضنَه إلى ثوبه الذي يفوح برائحة الكولونيا وقال له: «يسعدني أنني وجدتك، يا أخي».

في ذلك اليوم، عاد برويز إلى بيته مع سرٍّ جميل متّقد في قلبه. أعدَ طعامَ العشاء، ولم يأخذ طبقَه ليجلسَ أمام التلفزيون بينما تتناول أختاه طعامهما على طاولة المطبخ. ومازحَ عصمة قائلًا إنها ستكتسب لهجةً أميركية عندما تعيش في ماساشوستس.

سألته أنيقة: «ماذا أصابك؟» فشعر برضا كبير لأن في حياته زاويةً سرية لا تعرف أختاه عنها شيئًا.

***

اتصل فاروق في وقت متأخر من تلك الليلة.

قال له: «لقد كنت أفكر فيك طيلة اليوم. كنت أقول في نفسي: لماذا أرى ابن 'أبو برويز' لا يعرف عن أبيه إلا الشيء القليل؟»

لم يجد برويز كلمات يجيب بها على هذا السؤال. أبدًا، لم يكن هذا السؤال سؤالًا قبل الآن. لقد كبر وهو يعرف أن والده سرٌّ مخجل، سرٌّ يجب إخفاؤه عن العالم الخارجي، وإلا فسوف تظهر في شارع بريستون رود كله لافتاتٌ تقول 'هل تعرفون حقًا من هم جيرانكم؟' وسوف يُرمى بالحجارة على نوافذهم، ولن تتلقى شقيقتاه دعوات إلى بيوت زميلاتهن في المدرسة، ولن تَقبل أية فتاة مرافقته. عاش ذلك السر سرًا في البيت أيضًا. كانت أمُه وعصمة تكنان تجاه عادل باشا غضبًا أكبر من أن تعبر عنه أية كلمات؛ أما أنيقة، فقد كان ما لديها من غياب تام للمشاعر أو للفضول تجاه أبيهم قد صار أول علامة واضحة تشير إلى أنه وشقيقته التوأم شخصان اثنان، لا واحد. كانت جدته الشخص الوحيد الراغب في الحديث عن ذلك الغياب في حياتهم؛ وقد كان جزءٌ من القرب بينهما ناتجًا عن أنها اعتادت أن تدعوه إلى غرفتها أحيانًا وتروي له قصصًا

هامسةً عن الصبي الوسيم ذي الروح العالية والعينين الضاحكتين، عن الصبي الذي ربّته. لكن قصصها كانت دائمًا قصصًا عن الصبي، لا عن الرجل الذي صاره. وكانت تقول كلما حاول برويز أن يجد سبيلًا إلى اكتشاف ما صاره أبوه عندما جاء ابنه إلى هذا العالم: «أوه، حدث شيء ما. لست أدري».

لكنه قال الآن: «لأن أحدًا لم يخبرني أبدًا».

«وهل تريد أن تعرف؟»

«بالطبع».

«لا تجب على السؤال بهذه السرعة. فبعد أن تعرف، سيكون عليك أن تفكرَ في ما يعينه أن تكون ابنًا لذلك الرجل. ولعلَ من الأكثر سهولة ألّا تفكر فيه أبدًا».

لقد كان ينظر دائمًا إلى الأولاد مع آبائهم نظرةَ طمع ناشئ عن جوعه إلى الأبوة. وكلما أبدى واحدٌ من أولئك الآباء شيئًا من اللطف تجاهه... يد توضع على رقبته من الخلف، وكلمة «ابني»، ودعوة إلى مباراة كرة قدم... كان يتراجع وينكمش على نفسه وجِلًا مستحيًا على نحو مرتبك ازداد مع مرور السنين، وكذلك مع ازدياد التباعد بين عالمَيْ الأولاد والبنات. وهكذا، فقد مرت به أوقاتٌ لم يكن فيها توأم أخته بل الذكر الوحيد في البيت، الذكر الذي يعرف تلك الأسرار كلها التي تكشف عنها امرأة لأخرى، لكن من غير أن يعرف شيئًا من الأسرار التي يتعلمها الأبناء من آبائهم.

قال لفاروق... خرجت كلماته هامسة: «إنني أفكر فيه كل يوم».

«جيد، أنت رجل جيد. متى ينتهي عملك غدًا؟»

* * *

هكذا بدأ الأمر. في وقت ما من الصباح، كلَ صباح، كانت تأتيه رسالةٌ

نصية من فاروق تحدد مكانَ لقائهما: محل كباب أحيانًا، وزاوية شارع في أحيان أخرى. لكن اللقاء كان يجري أكثر الأحيان في محل للمراهنات في هاي رود. كان برويز يجده هناك عادةً عندما ينتهي عمله. لكنهما كانا يتحدثان ويتحدثان بصرف النظر عن مكان اللقاء. أو الأحرى أن فاروق كان يتحدث وبرويز يصغي إلى تلك القصص عن أبيه، القصص التي كان على الدوام توّاقًا إلى سماعها... لم تكن قصصًا عن ولد طائش أو زوج مهمل، بل عن رجل شجاع يحارب الظلمَ ويرى إلى ما يتجاوز كذبة الحدود الوطنية، ويرفع معنويات رفاقه في أوقات المشقة والظلمة. هنا كان أبو برويز، أول من يجتاز جسرًا فوق هاوية عميقة بعد هزة أرضية، رغم تواصل الهزات الارتدادية، حتى يوصل الإمدادات إلى العالقين في الناحية الأخرى. وهنا كان أبو برويز يستخدم عقب بندقيته الكلاشنكوف سلاحًا عندما نفذت منه الطلقات. وهنا كان أبو برويز يغّمس رأسَه في جدول جبلي لكي يتوضأ فتتدلى من لحيته قطعَ الجليد... بردٌ يجعله يرقص على ضفة الجدول كما لو أنه عادل باشا في ديسكوتيك، وليس أبو برويز في الشيشان يهتز رأسه فتتصادم نوازل الجليد الصغيرة المتعلقة بلحيته مصدرةً صوتًا موسيقيًا كأنها جرس. من بين تلك القصص كلها، كانت هذه القصة تستحضر بأكبر قدر من الوضوح صورةَ الأب الذي لم يعرفه أبدًا: الجدول المندفع، وكتل الجليد المتراقصة، ورجال من حوله يتحدّون الماء البارد مثله حتى يقدموا للمحارب الصلب 'أبو برويز' أوركسترا ترافقه.

قال فاروق: «إنه الأب الذي يتمنى كل ابنٍ أن يكون لديه مثله».

أجابه برويز وهو يمر على خطوط كفه بدبوس قنبلة يدوية أحضره فاروق معه إلى محل الكباب: «لكنه لم يكن أبًا لي أبدًا»... هل كان ذلك دبوس قنبلة يدوية حقًا؟

«أتظنه كان شخصًا يريد هذا العالم كما هو. لا، لكنه كان يرى العالم

على حقيقته. وبما أنه رآه، فقد فهم أن للرجل مسؤوليات أكبر من المسؤوليات التي تريد زوجته وأمه تقييده بها».

وحتى يقدم له العون في فهم تلك المسؤوليات الأكبر حجمًا، راح فاروق يحدثه عن التاريخ: ذعر عالم النصارى الذي كان ينظر إلى صعود الإسلام، وألف سنة من تفوّق المسلمين وسيادتهم التي لم يبددها شيءٌ آخر الأمر إلا العثمانيون الأشبه بالخصيان، والمغول الذين غاب سبيل الأخلاق عن أنظارهم، ثم شهوة الدم التي انتقم بها النصارى لأنفسهم بعد قرون عاشوها في مذلة: الإمبريالية بأساسها العنصري المتذرع بـ«مهمة نشر المدنية»، ومن بعدها تلك النكتة السمجة عندما تظاهروا بأنهم «منحوا» الاستقلال لكنهم لم يفعلوا أكثر من تبديل النماذج الاقتصادية من خلال خلق دول عميلة ورسم حدود غبية تافهة مصمَّمة من أجل إثارة القلاقل وعدم الاستقرار. بدا له أن ما من شيء في العالم الإسلامي لا يعرفه فاروق: باكستان والهند وأفغانستان والجزائر ومصر والأردن وفلسطين وتركيا والشيشان وكشمير وأوزبكستان. وكلما بدأ برويز يفقد تركيزَه، كان فاروق ينقل الحديثَ إلى عالم كرة القدم (كان من أنصار ريال مدريد أما برويز فمن أنصار أرسينال، إلا أنهما كانا متفقَيْن على عظَمة أوزيل[1])؛ أو كان ينقله إلى أصغر ما في حياة برويز من تفصيل («ماذا تناولت من طعام على الغداء؟ وهل مرّت بك شخصيات أثارت اهتمامك في محل الخضار والفاكهة؟ دعني أستمع إلى تسجيل جديد من تسجيلاتك... سوف أستطيع أن أحزرَ اسمَه هذه المرة»)؛ أو إلى برنامج تلفزيون الواقع الأميركي الذي كان فاروق من متابعيه الدائمين المخلصين مما جعل برويز يبدأ متابعتَه أيضًا حتى يتحدث معه عنه.

(1) لاعب كرة قدم ألماني من أصل تركي. يلعب ضمن فريق أرسينال وفي منتخب كرة القدم الألماني.

لكن، ومهما يكن موضوع الحديث بينهما، فقد كان يعود دائمًا إلى ما يشغل موقع القلب في حياة فاروق، إلى ما يشغل موقع القلب في دروسه كلها: كيف يكون المرء رجلًا.

قال له فاروق ذات عصر عندما كانا جالسَيْن جنبًا إلى جنب في المقاعد المكورة الخضراء في محل المراهنات يتابعان مجموعة من الشاشات فيها كلاب سلوقية تجري في حلبة سباق ورجال ينضحون عرقًا في منطقة أخرى من العالم وهم يلعبون الكريكيت: «الذنب ذنب أختيك». كان صوت الشاشات مغلقًا. وكان هذا يتيح لحظات ممتعة من تخيّل تراتب تلك الأصوات وتبدلها كأن تنطلق الكلاب من أقفاصها في اللحظة نفسها التي يفتح فيها شخص ثملٌ بابَ البيت بقوة، أو عندما يبدأ مصباحٌ معلقٌ عارٍ أزيزَه ويبدأ حَكَم الساحة في أحد الملاعب طردَ ذبابات تطير حول وجهه. كان فاروق قد وضع ثلاثة هواتف على ساق برويز، بين الركبة والحوض؛ وكلما ظهرت رسالة نصية على شاشة واحد منها، كان ينحني فيلقي نظرةً على الرسالة ثم يذهب إلى الطاولة ويضع رهانًا جديدًا. كان ذلك تدريبًا جيدًا حتى يتوقف برويز عن التململ في جلسته. هذا ما قاله فاروق عندما فعل ذلك أول مرة. كانت ساقا برويز تظلان متوترين توترًا شديدًا خلال هذه الجلسات في محل المراهنات إلى حد يجعله يجد صعوبة في المشي بعد ذلك. تابع فاروق كلامه: «أختاك تريدانك في البيت دائمًا... تريدان أن تقوم بالتسوّق، وأن تجز العشب في الحديقة. وهذا ما جعلهما تحاولان إبقاءك صبيًا... طفلًا في حاجة إلى أم. تلك الأخت الكبرى خاصة؛ وأنت تعرف ما أعنيه! تلك التي تزعم أنها مسلمة صالحة وتظن أن من حقها تقرير إن كان في وسعك أن تعيش في بيتك أم لا. قل لها ما هو مكتوب في القرآن الكريم: 'الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض'. يقضي شرع الله بأن تكون أنت، لا نساؤك، من يتصرف ببيتكم».

«نساؤك». أدار برويز هذه الكلمة في فمه بينما ذهب فاروق لوضع رهان آخر. أعجبَه إحساسَه بهذه الكلمة. لكن ذلك لم يكن يعني أنه على درجة من الغباء تجعله يحاول الاستشهاد بالقرآن أمام عصمة، خاصة عندما يتعلق الأمر بأدوار الرجال وأدوار النساء. لقد كان مسلمًا بالطبع، ومؤمنًا بالله. كان يذهب إلى المسجد من أجل صلاة العيد، ويقتطع نسبة اثنين ونصف بالمئة من دخله من أجل الزكاة، ثم يقسم هذا المبلغ مناصفةً بين «مؤسسة النجدة الإسلامية» و«حملة المكتبات». وأما فيما يتجاوز ذلك، فقد كان الدين عنده (منذ طفولته الأولى) حيّزًا لم يعش فيه بل صرف نفسه عنه في ظل تفوق عصمة. لكن صحبةَ فاروق جعلته يرى أن هنالك شيئًا اسمه «نسخة مخصية من الإسلام تموّل الحكومة البريطانية مساجدَها لأنها تريد إبقاءَنا كلنا خانعين مذعنين لها». وما كان قليلًا ذلك الرضا الذي أحسه بعد أن عرف هذا.

«أين أنت هذه الأيام؟» هكذا سألته أنيقة ذات ليلة وهي تتسلق السُلمَ الذي أسنده إلى جدار سقيفة الحديقة ليصعد إلى سقفها حاملًا هاتفَه وسماعتَه الرأسية ومايكروفونه الموجّه الذي اشتراه مستعمَلًا وكان منبع اعتزاز وبهجة لديه. هذا مكان الجلوس الأثير لديه منذ الطفولة لأنه يمنحه رؤيةً واضحة للقطارات الداخلة إلى محطة بريستون رود والخارجة منها. كانت أجسام القطارات ظلالًا في الظلمة، لكن نوافذ العربات الطويلة تكشف عن لقطات مضاءة سريعة من حياة تمر أمامَه. وفي أحيان كثيرة، كانت هنالك ثغرات واضحة في تقاليد السلوك القطيعي: رجلٌ يوجه لكمةً، أو قبلةً شديدة التركيز إلى حد يصير معه المكان لا أهمية له سواء كان عربة قطار أو غرفة نوم، أو شخص يضغط بكفه على الزجاج مائلًا في اتجاه الصبي الجالس فوق سقيفة الحديقة كما لو أن القدرَ أرادهما معًا لكن عجلات مؤامرة ما ترفض السماحَ بذلك. منذ قرابة سنتين خلتا، بدأ برويز العمل على مشروع سيكون عندما ينتهي تسجيلًا صوتيًا طوله 1440 دقيقة بحيث يُشغله المستمع المثالي الذي تصوره برويز منذ

منتصف الليل حتى منتصف الليل الذي يليه: لقطةٌ صوتية لكل دقيقة من دقائق اليوم يسجلها من مجثمه هذا على امتداد 1440 يومًا.

أوقف التسجيل، ونزع سمّاعتَه عن رأسه، وخربشَ شيئًا في دفتر ملاحظاته. قد يكون شيئًا لطيفًا أن يترك تسجيل تلك العبارة «أين أنت هذه الأيام؟» بين الثامنة وثلاث عشرة دقيقة والثامنة وأربع عشرة دقيقة. كان صوت أنيقة الصوت البشري الوحيد في هذه الملفات الصوتية التي وضع لها اسم «محطة بريستون رود مسموعة من فوق سقيفة الحديقة».

«إنني هنا. أنت التي لا يكاد المرء يراكِ في هذا المكان».

«أعني أين أنت هنا؟...» ومدت يدَها فنقرت على رأسه... «وهنا أيضًا». وضعت يدَها على معصمه، على مكان النبض فيه، بطريقتها الطفولية القديمة؛ لكنه لم يستجب لها. «... هل الأمر متعلقٌ بالانتقال إلى بيت العمة نسيم؟ أعرف أن خسارةَ هذا المكان تحزنك، لكننا سنظل في الحي، على الأقل».

لقد قالت «سنظل»، لكنه لم يكن يعرف كم من الوقت ستكون موجودة هنا. لا يكاد يمر أسبوع لا تمضي فيه ليلة على الأقلِ في بيت جيتا. إنه يعرف أنيقة معرفة كافية لأن يدرك أنها تمهد الطريق للمبيت خارج البيت أكثر فأكثر... ثم إن مبيتَها لن يكون عند جيتا في كل مرة!

قال لها: «هذا بيتنا».

طقطقت بلسانها على سقف فمها: «أنت شديد العاطفية دائمًا. يجب أن تنضم إليَّ في محاولة إقناع عصمة بضرورة بيع البيت. ستصير هكذا قادرًا على الذهاب إلى الجامعة لأننا سنحصل على المال وسوف يعوّضك هذا عن خسارة مزيد من الأشياء المسموعة من فوق سقيفة الحديقة، أليس هذا صحيحًا؟»

«لم يعطوك منحة دراسية إلا لأنك مناسبة لما يروّجون له عن

الاشتمال[1]' و'التنوّع'!» قال هذا وهو يحس نفسه مجروحًا إلى الحد الكافي لأن يجاهر بالعاطفة التي تمكن فاروق مؤخرًا من استخراجها من أعماق لاوعيه.

شدت على أذنه بين إبهامها وسبابتها: «منذ متى صرت أبيَض الجلد إلى هذه الدرجة؟»

«يجب إبعاد النساء المسلمات، الجميلات منهنّ خاصة، عن الرجال المسلمين. ويجب احتجاز الرجال المسلمين ومضايقتهم وإلقاؤهم على الأرض والدوس على رقابهم».

«لم يحدث لك أبدًا أيُ شيء من هذه الأشياء».

«كم مرة أوقفتني الشرطة في الشارع وفتشتني؟.. بالمقارنة معك أنت؟»

«مرتان. مرتان فقط يا برويز. وقد قلت لي بنفسك في المرتين إن ذلك لم يكن شيئًا مهمًا. عليك أن تكف عن النواح على الأمر بعد حدوثه». قفزت عن السلم بتلك الثقة الجسدية التي كانت تجعل أنفاسه تتقطع دائمًا خوفًا على سلامتها... «عصمة محققة، وأنت تعرف هذا. لقد حان الوقت لأن تكبر».

في ما مضى من أيام، كان يقفز خلفَها فيتحول الأمر إلى مباراة في الصراخ تستمر إلى أن يُرهقا نفسَيهما فيتصالحان. أما الآن، فقد ظلَ في مكانه ينظر إلى هذه الحيوات كلها ضمن إطارات النوافذ الضيقة المنزلقة على السكة الحديدية في الظلمة، وترك جرحَه يتقيّح حتى يخبر فاروق عنه في اليوم التالي ويتلقى من صديقه الجديد ما يشفي نفسه.

* * *

---

(1) قواعد الاشتمال: أي أن هناك قواعد في القبول الجامعي تشجع على دمج الطلاب الأجانب أو تنصّ على وجود نسبة منهم في تعداد الطلاب في كل عام.

عندما دفع برويز بابَ شقة فاروق غير المقفل ففتحه، شمَ رائحةَ دهن الدجاج الآتية من مطعم الوجبات السريعة في الأسفل، وشم رائحةَ كولونيا مألوفة أيضًا. كان زجاج إحدى النوافذ يرتجّ ضمن إطاره لا بسبب أية ريح بل نتيجة الاهتزازات المنبعثة من حركة السير في الشارع في الأسفل. أخبره صوت فاروق الجهير أن يكف عن انتظار دعوة تأتيه على طبق من ذهب، وأن يدخل.

كان أثاث المكان مؤلفًا من ثلاث فرشات مكوَّمة عند الجدار واحدة فوق الأخرى، وكرسيَّيْن بلاستيك أخضرَيْن يواجهان شاشةَ تلفزيون مسطحة متصلة إلى منصة ألعاب فيديو. وكان في منطقة المطبخ فرن مايكروويف وغلاية ماء كهربائية، كما كان باب الخزانة الجدارية المفتوح يسمح برؤية قمصان وبناطيل سود فيها. رأى كيسَ ملاكمة معلقًا إلى مسمار ضخم في السقف، وسمعَ صوتَ صرير خافت صادر عن تأرجح الكيس. كان في الأرض مسمارٌ ضخم أيضًا، مسمارٌ مماثل للذي في السقف، لكنه لم يُدرك الغاية منه. تذكّر رسائلَ فاروق النصية (تلك التي لم يعرف كيف يجيب عليها)، رسائل تحدثت عن رغبته في تعليق نساء برنامج تلفزيون الواقع الأميركي بالسلاسل، فأشاح بوجهه عن المسمار. رأى لوح كيٍّ عليه مصباح قراءة وزوج من قفازات الملاكمة. وعلى الأرض تحته، رأى مكواةً مستقرة على قاعدة بحجم صندوق خبز.

قال فاروق معتزًا عندما رأى نظرة برويز إلى تلك المكواة: «إنها فيراري المكاوي! ليس لها إلا وضعية واحدة، وهكذا فإن من المستحيل أن تحرق ملابسك. إذا أردت كي شيء فآت به إلى هذا المكان. اجلس، اجلس. اعتبر نفسك في بيتك. بل أنت في بيتك. لا، اجلس على الكرسي، على الكرسي». جلس برويز وحاول تمسيد طيات قميصه. ابتسم فاروق وربّت على جانب رأسه، ثم ناوله فنجانًا من الشاي.

قال له: «انتظرني، سأعود بعد بضع دقائق». ثم سار خارجًا.

ارتشف برويز الشاي من فنجانه... خفيفٌ جدًا... ثم نظر من حوله في تلك الشقة محاولًا العثورَ على المزيد مما يمكن أن ينبئه بشيء عن حياة صديقه. «يار»... تلك الكلمة بلغة الأوردو التي وجدها أكثر تعبيرًا من كلمة «صديق» عن رأيه في فاروق. بل حتى أن هنالك تعبير أحسن من هذا... «جيغاري دوست»[1]... صداقة شديدة عميقة مزروعة في نفس الإنسان؛ صداقة لا يمكن اقتلاعها من غير أن تتركَ من خلفها جرحًا مؤلمًا، بل جرحًا عميقًا يمكن أن يكون مميتًا.

رأى صورةً ملصقة على الجدار فوق لوح الكَيّ... ثلاثة رجال يضع كلٌّ منهم ذراعَه على كتفي الآخر ومن فوقهم لوحةٌ عليها كلمة «المغادرون» في مطار من المطارات: عادل باشا، وأحمد الذي يعمل في محل الملبوسات... هو الذي أقنع والد برويز بالذهاب معه إلى البوسنة سنة 1995... ورجل ثالث قصير القامة ممتلئ الجسم. لا بد أنه والد فاروق. إنه الرجل الذي حارب أقل من أسبوع في البوسنة قبل أن يجري عائدًا ليصير مخلوقًا محطمًا تصيبه نوبات ذعر ليلية... ليصير شخصًا يسبب الحرَج لابنه الشاب. لم يكشف فاروق عن هذا كله إلا قبل بضعة أيام فقط... «كان أحمد الذي يعمل في متجر الملبوسات يأتي في زيارات. وكان يأتي كلَ مرة بقصص أكثرَ فأكثر عن بطولة الرجل الذي صار اسمه 'أبو برويز'، قصصٌ لم يكن أبي يريد سماعَها أبدًا، لكني سمعتها كلها». لقد انتقل أحمد من المنطقة قبل بضع سنين ولم يكن برويز يعرف عنه إلا أنه الرجل الذي كانت أم برويز تجتاز الشارع إلى الجهة الأخرى حتى تتجنب لقاءه.

مد يدَه ولمسَ ذراعَ أبيه في الصورة. بحثَ في وجهه عن معالم

(1) في لغة أوردو. تعني رفيق القتال أو رفيق الحرب أو رفيق النضال.

التشابه بينهما. لكن شكلَه كان أقرب إلى عائلة أمه، وكذلك أنيقة. ليس من المنصف أبدًا أن تكون عصمة الوحيدة التي لها وجه أبيها العريض وشفتاه الرقيقتان. مال مقتربًا من الصورة، الصورة الوحيدة لأبيه التي رآها بعد انطلاقه في ذلك الطريق الذي سيصير حياتَه كلها. بدا أبوه مستثارًا متحمسًا. لقد مرت سنين طويلة منذ أن رأى برويز صورةً فوتوغرافية لأبيه لم تتحول إلى جزء من ذاكرته. وجد نفسَه يحدق إلى مساحة ضيقة من جلد أقل سمرة على معصم والده. أين هي ساعته؟ هل خلعَها حتى يجتاز أجهزة رصد المعادن في المطار ثم نسي أن يعيدَها إلى يده؟ هل كانت في المطارات أجهزة كشف المعادن في ذلك الوقت؟ لعله لم يكن قد أدرك، لحظةَ التقاط الصورة، أنه ترك ساعتَه في منطقة التحقق الأمني. عندما يدرك ذلك، سيعود ليأخذَها، وقد يكون على وجهه تعبير القلق الخفيف الذي يعرفه برويز من صورة عيد الفطر التي كان فيها مشيحًا بوجهه جانبًا مبتعدًا عن الكاميرا. فكَّر في صوَر أبيه كلها، في الصور التي كانت قبل ذهابه إلى البوسنة، وفي الصورة القليلة بعد ذلك. نعم، لقد ظلت تلك الساعة ذات السلسلة الفضية موجودة لديه بعد ذلك. كان «نصرًا» له أن يستطيعَ تذكر هذا وأن يتمكنَ من تجميع هذه الحقائق الصغيرة معًا.

ظل واقفًا هناك يتذكر أباه لوقت لم يعرف إن كان طويلًا أو قصيرًا قبل أن ينفتحَ الباب من جديد ويدخل منه شخصان غريبان؛ إلا أن ملامحَ وجه واحد منهما كان فيها من الشبه العائلي بملامح وجه فاروق ما يكفي ليستنتج برويز أن هذين القادمين ليس إلا ابنَيْ عمه اللذين يعيشان معه. ظلت كلمات الترحيب التي قالها بدلًا من الإجابة. بدلًا من ذلك، سار الشابان إلى المسمار المغروس في الأرض فوصلا إليه سلسلة معدنية.

قال له أحدهما بصبر نافد: «تعال». فاقترب برويز منهما غير واثق من المساعدة التي يريدانها. لكنه سرعان ما وجدَ نفسَه ملقىً على الأرض

وقد جثم أحد الشابين فوق ساقيه وجثم الآخر على صدره فثبتاه تمامًا. ربط الجالس على قدميه السلسلةَ من حول كاحليه، وصفعَه الجالس فوق صدره لكي يوقف مقاومته. ثم أداره الاثنان وأنهضاه قليلًا فجعلاه في وضعية القرفصاء واستخدما السلسلةَ نفسها لربط معصميه إلى كاحليه. صرخ مناديًا باسم فاروق فضحك الاثنان بطريقة جعلته يتوقف عن الصراخ.

«ما الذي تريدان فعله بي؟»

أجابه واحدٌ من الشابين: «لقد فعلنا ما نريد وانتهينا».

نهضا معًا، وذهبا إلى التلفزيون، ثم شغلا لعبةَ فيديو ورفعا الصوت كثيرًا بحيث لا يكون أحدٌ قادر على سماعه إن أراد هو الصراخ من جديد. لم يمض وقتٌ طويل قبل أن يفهم ما عناه الشاب بقوله إنهما فعلا ما أراداه. كانت السلسلة قصيرة إلى حد يجعل من المستحيل عليه أن ينهضَ واقفًا أو أن يجلسَ على الأرض. ما كان قادرًا إلا على البقاء جاثمًا في وضعية القرفصاء. وراح الضغط يزداد على ظهره دقيقةً بعد أخرى. ثم لم يلبث ما كان إحساسًا بعدم الراحة أن تحولَ إلى ألم ينبع من ظهره وينزل عبر ساقيه. كانت السلسلة تجرحه عندما يحاول الحركة، أو عندما يحاول أن يجدَ طريقةً لأن ينقلبَ على جانبه. ومن خلف ذلك الألم، كان يعذّبه عدم فهمه ما جعله يستحق هذا وعدم معرفته ما يمكن أن يفعلَه حتى يجعله يتوقف. سمع صوتَه راجيًا متوسلًا، لكن الرجلين لم ينظرا إليه. لم يأخذ مصمّم الصوت في لعبة الفيديو استخدام مكبرات الصوت الرخيصة في حسبانه، فصارت خشخشة الصوت وتشوّهه أصعب احتمالًا من أصوات إطلاق النار وصرخات الموت. جرب اللجوءَ إلى الأدعية، لكنها لم تفِده شيئًا.

غادر ضوء النهار الغرفة. لعلها غيوم، أو لعله المساء... لم يستطع تحديد ذلك. حتى راحة فقدان الوعي ظلت تتفلت منه. كانت عقارب

من نار تسير تحت جلده مجنونة تحاول الفرار... كانت تجري من كتفيه إلى أسفل ساقيه وتلسعه من غير توقف. كان كلُّ صرير صادر عن مكبرات الصوت يَكبر ثم يكبر إلى أن يصيرَ قوةً مادية تهاجم أذنيه. كان يصرخ ألمًا، وظل يصرخ ألمًا زمنًا طويلًا جدًا.

ضغط أحد الشابين على زر التوقف. اندفعت الأصوات العادية، أصوات كل يوم، فعانقته... اهتزاز النوافذ، وحركة السير في الشارع، وصوت أنفاسه. سار الرجلان إليه، وفكا وثاقَه. شعر بالانفراج لحظة وتكوَّم جسده على الأرض، لكنهما رفعاه وحملاه إلى مجلى المطبخ الممتلئ ماءً ثم غمرا رأسَه فيها.

هذا يعني أنه سوف يموت. هنا، فوق مطبخ محل وجبات الدجاج الذي لا يبعد عن بيته أكثرَ من ميل واحد. كيف ستحتمل شقيقتاه موتَه بعد كل ما خسرتاه؟ أخرج الرجلان رأسَه من الماء فعب الهواء حتى امتلأت رئتاه، ثم غطّساه في الماء من جديد. ثم استمر هذا. قال لنفسه إنه لن يتنفسَ في المرة المقبلة، لكن جسده كان يريد الحياة. أخرجا رأسه من الماء فكان الهواء هذه المرة عابقًا برائحة كولونيا فاروق. استعد للغطسة التالية، لكنهم حملوه إلى الفراش ورموه عليه... وجهه إلى الأسفل.

مست يدٌ رأسَه مَسًّا رفيقًا، وسمعَ صوتَ فاروق مفعمًا بالحزن: «الآن، بدأت ترى».

كانت الدموع استجابة برويز الوحيدة. فأدار فاروق رأسه ورأى أن ذلك الرجل الأكبر منه سنًا كان يبكي أيضًا.

قال له فاروق: «ظلوا شهورًا يفعلون هذا بأبيك».

كان الشابان قد خرجا من الشقة. ولم يعد فيها إلا فاروق واقفًا يمسّد ذراعَ برويز ويساعده في الجلوس. عندما تحرك فاروق ناهضًا، مد برويز يده وأمسك بساقه.

قال فاروق: «لا، لن أتركك مرةً أخرى، سوف أجلب شيئًا من المطبخ».

كان برويز قادرًا على إدارة رأسه لرؤية ما يفعله فاروق. لكنه لم يستطع إلا أن يبقى كما هو، وأن يتنفسَ ويشعر بطعنات الألم تتحرك من ظهره إلى رئتيه إلى ساقيه. عاد فاروق فوضعَ زجاجة ماء حار على ظهره، ثم ناوله قطعة آيس كريم مغلفة بالشوكولاته. بدأ برويز يقضم الآيس كريم ويحس الحلاوة تنتشر وتمتد في فمه... تذكّره بالسعادة.

عندما انتهى من لعق كل ما علق بالعود من آيس كريم، أخذ فاروق الصورة عن الجدار ثم وضعها بين يديه.

«كم تعرف عما كانوا يفعلونه بالسجناء في باغرام».

هز برويز رأسه. وما كان قادرًا على إجابة غير هذه.

«ألم تحاول أبدًا معرفة ذلك؟»

هز رأسه، لكن بحركة أبطأ من السابق لأنه شعر بالخجل من نفسه الآن. كانت المعرفة هناك دائمًا، إلى جانب زاوية عينه تمامًا، معرفة تلك الأشياء التي يصفونها بأنها «أساليب الاستجواب المشددة»، لكنه لم ينظر إلى ذلك عن قرب أبدًا لأنه لم يكن يريد أن يسأله أحد عن السبب الذي يجعله مهتمًا بمعرفة الأمر. هذا هو التبرير الذي كان يقدمه لنفسه دائمًا.

وضع فاروق يده على كتفه. «لا بأس. لقد كنت طفلًا، طفلًا وحيدًا. لم تكن مستعدًا لهذا. لكن الوضع تغير الآن، أليس كذلك؟»

طفل... وحيد! لم يشعر أبدًا أنه وحيد. كانت أنيقة موجودة دائمًا. لقد ظلت موجودة حتى عندما صارت مختلفة. نظر إلى مسمار الحديد المغروس في الأرض وفكر في قول أنيقة إن عليهم أن يبيعوا البيت. كانت بذلك القول تقطع السلاسل التي تربطهما معًا فتلقيه في الظلمة

من غير أن يرافقه صوت نبض قلبها... للمرة الأولى منذ أن انقبضَ قلبه مذعورًا وجدَ القلبَ نفسه ينقسم إلى حجرات ويصير عضوًا له قدرة على الإحساس، ثم ارتاح عندما عرّف أن هنالك قلبًا آخر يعيش لحظة الخوف نفسها، يعيش كل لحظة إلى جانبه.

نهض واقفًا. لا تزال ساقاه خائرتان. «عليَّ الذهاب».

وقف فاروق معه ثم شده إليه واحتضنه: «صرت قويًا بما يجعلك قادرًا على احتمال هذا. أنت ابن أبيك رغم كل شيء».

ابتعد برويز عنه وسار خارجًا من غير أن يقول شيئًا. كتب لشقيقته التوأم وهو ينزل درجات السلم: عودي إلى البيت من فضلك.

بعد بضع دقائق فحسب، كان عائدًا إلى البيت في الباص رقم 79 عندما أتاه ردها: هل الأمر طارئ؟ تنتهي دروسي في الثامنة.

أسند رأسَه إلى نافذة الباص وراحَ ينظر إلى العالم المألوف وهو يمر به. كانت كلمات «مختلّ نفسيًا» و«حقير»... تلك هي الكلمات التي وصفت بها أنيقة فاروق. وقد جعلته يقسم بروح أمه على أنه لن يقابل ذلك الرجل بعد ذلك. لكن شعورَه بأنه في غير مكانه الصحيح كان يتنامى كلما ابتعد به الباص عن شقة فاروق. بدأ ألم ظهره يتراجع، وتذكر كيف استدار إلى صورة أبيه على الجدار قبل أن يصيرَ الألم غير محتمل، قبل أن يمنعَه الألم من التفكير في شيء غير معاناته، نظر إلى صورة أبيه فلمعت في رأسه تلك الفكرة: إنني أنت، للمرة الأولى!

كتب يجيبها: ها ها... أختبر إخلاصك فحسب. لا تتركيني ليلةً أخرى مع الطعام الجاهز من الخارج ومع عصمة.

يا أحمق... لقد أقلقتني. يجب أن أقدم ورقة العمل غدًا، ولهذا سأعمل عليها في المكتبة حتى وقت متأخر. سأنام الليلة عند جيتا.

أعاد الهاتف إلى جيبه. كان بالقرب من مقدمة الباص رجل ينقر بخاتم

زواج في إصبعه على القضيب المعدني الأصفر. كان ذلك الصوت، صوت المعدن على المعدن، أشبه بصوت سلاسل تتفكك.

***

جلس برويز على الكرسي الصغير بالقرب من آلة المحاسبة في متجر الخضار والفاكهة ومسح فمه بظهر يده وقد أحاطت به كذبة كبيرة. الأسبرج، والموز، والبامية، والفلفل الحار، وفلفل عين الطائر، والملفوف، والسامفيري، والقرع. كان نات، صاحب المتجر، يقول إن العالم منقسم إلى نوعين من الناس: من يأكلون طعامًا طازجًا على الدوام، ومن لا يأكلون الطعام الطازج. ومع كل موجة جديدة من المهاجرين القادمين إلى الحي، كان نات يستعلم عما يأكله الوافدين الجدد، ثم يضيف إلى بضاعته ما يناسبهم. الباكستانيون، والقادمون من غربي الهند، والألبانيون... كان نات يعرف كيف يتعامل معهم جميعًا. وكانت رفوف محله غاصة بالمواد الطازجة وبالألوان وبوعد بوجبات عائلية وبجيران مرحّبين مضيافين.

وضع برويز هاتف نات على الميزان ففوجئ بخفة وزنه. كان ثقيلًا بين يديه كأنه قضيب حديد. لقد أخذه من جيب معطف نات الشتوي المعلق في الغرفة الخلفية عندما ذهب نات إلى المقهى المجاور ليتناول فطوره المكوَّن من الشطائر والشاي. ضبط متصفح الإنترنت على وضعية «التصفح الخاص»، ثم كتب في شريط البحث «سوء المعاملة في باغرام»، ثم قرأ ونظر إلى الصور إلى أن صار عليه أن يجري خارجًا ويتقيأ في صندوق فارغ تفوح منه رائحة الملفوف.

لقد كان دائمًا يحكي لنفسه قصة ليست آتية من مصدر يستطيع تذكره الآن: تقول تلك القصة إن غوانتانامو مكان تحدث فيه أشياء شديدة السوء، وإن موت أبيه قد وفّر عليه الذهاب إلى هناك، على الأقل. كذبة ذكية

صغيرة، كذبة أنيقة مرتبة مثل أكداس الخضار والفاكهة التي رتبها بعناية هذا الصباح كما لو أن وضعية كل إجاصة كانت شيئًا يستحق الاهتمام.

عاد نات إلى المحل، ولم يكد ينظر إليه حتى قال له: «ماذا حدث؟»

نهض برويز واقفًا وأجابه: «أشعر بأنني لست على ما يرام، هل أستطيع الذهاب؟»

«بالطبع تستطيع. هل أتصل بعصمة؟ وهل أنت في حاجة إلى شيء من الصيدلية؟»

هزّ برويز رأسه غير قادر على احتمال هذا اللطف من نات.

صار في شقة فاروق بعد برهة وجيزة. سار إلى السلاسل وحملها بين يديه. كان فولاذها البارد مسالمًا في كفيه... حلقات متعلقة إحداها بالأخرى.

«اربطني من جديد. أريد أن أحس ألم أبي».

أجابه فاروق: «أيها المحارب الشجاع».

أما برويز فركع منتظرًا استئناف العذاب.

***

سألته أنيقة: «هل صرت أخيرًا مستعدًا لأن تخبرني عنها؟» كانت جالسة على مسند الأريكة فمسّت بقدمها كاحل برويز بحركة مستفهمة بينما كان راقدًا واهن القوى تحت بطانيته الزرقاء المفضلة وقد وضع زجاجة ماء حار عند ظهره.

«من هي؟»

«حقًا؟ هل ستقول لي إنك مستلق هنا يبدو عليك الحزن بسبب من كنت تذهب للقائها كل عصر، تلك التي تظل تكتب لها الرسائل النصية حتى ساعة متأخرة... منذ... منذ أسبوعين؟ أم لعل المدة أكثر من أسبوعين! من هي؟ وما سبب هذه السرية كلها؟»

«ولماذا القانون؟»

«ماذا؟»

«لماذا كان هذا ما قررتِ فعله بحياتك؟ ما أهمية القانون، وما فائدته؟ كيف تمكّن القانون من مساعدة أبينا؟»

نظرت إليه ورفعت حاجبيها... من غير أي انزعاج وقالت: «يمكنك الاكتفاء بالقول إنك لست مستعدًا بعد لإخباري عن تلك الفتاة. هل هي متزوجة؟ أوه، يا ربي، لا تقل لي إنها واحدة من تلك العائلات المجنونة التي تقتل بناتها بذريعة الشرف! هل هي كذلك؟»

«لماذا تتظاهرين بأنني لم أسألك سؤالًا حقيقيًا؟»

«لكنك لم تسألني سؤالًا حقيقيًا في واقع الأمر. أصلًا، ما علاقة عادل باشا بحياتنا؟»

استدار مبتعدًا عنها وضغط وجهه على وسائد الأريكة قائلًا لها: «أنت لست أكثر من بنت. أنت لا تفهمين شيئًا».

أمسكت بقدمه بين كفيها وضغطت بإبهاميها على باطنها. قالت له: «لا تترك قلبك كسيرًا».

«اخرسي. اتركيني وحدي. أنت لا تعرفين شيئًا أبدًا».

* * *

بعد بضعة أيام من ذلك، جاء شخصٌ لجمع التبرعات من أجل حملة المكتبات. كان برويز مشاركًا في تلك الحملة خلال سنوات مراهقته كلها، بل منذ أن أعلن المجلس المحلي أن مكتبةَ الحي التي اعتادت أمه أن تأخذَه إليها مع أنيقة مرةً في الأسبوع على الأقل سوف تُغلق أبوابَها. شارك في توزيع النشرات الدعائية، وفي كتابة رسائل إلى صحيفة المجلس، وفي حضور الاجتماعات مع غلاديس حيث كانوا يناقشون الاستراتيجيات الممكنة. وعندما صار واضحًا أن المجلسَ ماضٍ

قدمًا في تنفيذ خطته لإغلاق المكتبة، انتقل برويز إلى المرحلة الثانية من الحملة التي تضمنت إقامةَ مكتبة يديرها متطوعون والعمل على استدامتها. وقف يغني بعضَ الأناشيد والترانيم عند مدخل محطة المترو لكي يجمع مالًا، وقدم المساعدةَ في نقل الكتب التي تبرّع بها سكان المنطقة، وتطوعَ للعمل في المكتبة كل أحد. لكن قلقَه كان يزداد مع اقتراب يوم جمع التبرعات. كان قلقًا من أن يراه واحد من فتية مجموعة «استغرله» واقفًا مع جلاديس عند كشك المعجنات يبيع حلوى البراونيز بالشوكولاته التي صنعتها أنيقة وحلوى «إسفنج فكتوريا» التي صنعتها العمة نسيم وفطيرة التفاح التي قدّمها نات، فيذهب ويخبر فاروق بأن برويز باشا يظن أن مكتبة الحي هي القضية التي ينبغي أن يكرس وقته من أجلها في هذا العالم الذي يشتعل ظلمًا. وجد أن الطريقة الوحيدة التي تُمكّنه من الحد من الأضرار هي أن يخبر فاروق بنفسه.

وجد فاروق في شقته يكوي ملابسه الداخلية. وكانت نافذة الشقة الصغيرة مفتوحة حتى تسمح بدخول ضياء الشمس في هذا اليوم الدافئ على نحو غير متوقع، وكانت تسمح كذلك بدخول الهواء المشبع برائحة دهن الدجاج. كانت عند قدميه سلة فيها كومة من ملابس مغسولة حديثًا. وعلى كتفيه، كان ضياء الشمس يرسم ما يشبه كتّافيات عسكرية. كان في مزاج صاخب مبتهج إذ راح يعلم برويز كيف يدرج الملابس المكوية على شكل لفافة ويسأله إن كان يعرف أن تلك هي الطريقة المثلى لمنع تجعدها من جديد. كان يسخر من «الحمقى» الذين يطوون الملابس بدلًا من ذلك. وجد برويز نفسه يتخيل فاروق واقفًا يعمل مع عصمة في محل تنظيف الملابس وهما يتبادلان نصائح عن إزالة البقع.

بدأ برويز يتحدث مترددًا عن حملة المكتبة التي وصفها بأنها «عادة» يحملها معه منذ مراهقته. رفع فاروق المكواة وأشار إلى نقطة في وسط لوح الكَيّ.

قال له: «ضع يدك هنا. ضعها مفتوحة، ولتكن راحتها إلى الأعلى. سوف أضع المكواة عليها».

راحت أنظار برويز تتنقل بين المكواة الساخنة ووجه فاروق؛ لكنه لم يرَ في ذلك الوجه ما يشير إلى أنه مازح. كان وجهًا منتبهًا ينتظر إطلاق حكم عليه. تقدم برويز ووضع كلتا يديه على لوح الكي مرغِمًا نفسه على البقاء هادئًا بينما رفع فاروق المكواة ونظر إليه نظرةً ماكرة ثم ابتسم عندما لم يخف برويز ولم يتراجع. ثم مس راحتي يديه بمقدمة المكواة ذات الشكل الإسفيني. كانت المكواة حارة، لكنها لم تكن حرارة غير محتملة.

«إنها تستخدم ضغط البخار أكثر مما تعتمد على الحرارة. وهي ليست مؤذية حتى للجلد الرقيق». قال فاروق هذا كأنه بائع يمتدح سلعة. وضع يدَه على رقبة برويز من الخلف ثم قبّله من جبينه... «أيها المقاتل المخلص».

تابع الكي؛ أما برويز فوضعَ يديه في جيبيه.

قال فاروق: «المكتبة! لها أهمية بالطبع. مثلما يهتمون بنظام الرعاية الصحية الوطني، ومكتسبات دولة الرفاه، وكل تلك الأشياء. هل تعرف أن هذا البلد كان بلدًا عظيمًا؟»

«ومتى كان ذلك؟»

«ليس قبل زمن طويل مضى. عندما فهموا أن دولة الرفاه شيء يجب أن تبنيه لا أن تحطمه. وعندما كانوا يَنظرون إلى المهاجرين باعتبارهم بشرًا ينبغي الترحيب بهم، لا ردّهم على أعقابهم خائبين. تخيل كيف يكون الأمر لو أنك عشت في أمة من هذا النوع. لا، لا تكتفِ بالابتسام. إنني أطلب منك أن تفعل شيئًا: تخيل هذا».

هز برويز رأسَه غير واثق لأنه لم يكن متأكدًا من طبيعة السؤال.

«هنالك مكانٌ كالذي وصفته لك، مكانٌ يمكننا الذهاب إليه الآن. إنه مكانٌ يلقى فيه المهاجرونَ القادمين إليه معاملةً تليق بالملوك، بل ينالون مكتسبات أكثر مما يتلقاه السكان المحليون، وذلك اعترافًا بكل ما تخلّوا عنه حتى يذهبوا إلى هناك. مكانٌ لا أهميةَ فيه للون البشرة. المدارس والمستشفيات مجانية هناك. والمرافق والخدمات نفسها متاحة للأغنياء والفقراء على حد سواء. هناك، حيث يكون الرجال رجالًا. هناك، حيث لا يجد أحدٌ نفسَه مضطرًا إلى دخول محلات المقامرة المحرَّمة حتى يكسب عيشَه بل يستطيع إعالةَ أسرته بكرامة. هناك، حيث يجد شخصٌ مثلك نفسه يعمل في استوديو من أحدث المستويات ويعيش كالأمراء. تكون لك فيللا خاصة بك، وتكون لك سيارتك. هناك يمكنك الكلام عن أبيك من غير خوف أو خجل، بل باعتزاز».

ضحك برويز. لم يرَ فاروق بهذه الروح الخفيفة المرحة قبل الآن، لم يره مازحًا هكذا. قال له: «فلماذا ننتظر هنا إذن؟ دعنا نسير على الطريق ذي الحجارة الصفراء،[1] أو لعل الأرنب الأبيض[2] سيأخذنا إلى ذلك المكان؟»

«أي أرنب أبيض؟ ما الذي يجعلك تتحدث عن الأرانب بينما أحاول أن أقولَ لك شيئًا بالغَ الجدية؟»

«آسف! هل تتحدث عن مكان حقيقي؟»

«أنت تعرف المكان الذي أتحدث عنه. إنه دولة الخلافة».

رفع برويز يديه كمن يدافع عن نفسه: «ماذا بك أيها الزعيم؟ لا تمزح معي هكذا».

فصل فاروق المكواة عن التيار الكهربائي، ثم ارتدى بنطلونًا عمليًا

(1) الطريق إلى الأماني في رواية «ساحر أُوز» للكاتب الأميركي ل. فرانك باوم.
(2) الأرنب الأبيض شخصية في كتاب لويس كارول «أليس في بلاد العجائب».

فضفاضًا وفوقَه قميصًا قصيرَ الكميّن: «لقد كنت هناك بنفسي. كنت عائدًا لتوي عندما التقينا. من الذي تريد تصديقَه في ما يتعلق بحقيقة دولة الخلافة؟ أتريد تصديقَ الأشخاص أنفسهم الذين قالوا إن لدى العراق أسلحة دمار شامل، الناس الذين عذبوا والدك باسم الحرية... أم تريد تصديقي؟»

أحس برويز كأن قلبَه صار يشغل جوفَ صدره كله ويضرب على أضلاعه ضربًا عنيفًا جعله ينظر إلى قميصه ويعجب لأنه لا يتحرك. صارت تعابير وجه فاروق لطيفة من جديد.

«صدّق الدليل الذي تراه عيناك. انتظر قليلًا». مضى إلى زاوية المطبخ، ثم عاد منها بعد برهة قصيرة حاملًا جهازًا لوحيًا. قال له: «لا تقلق، فلن يعرفَ أحدٌ أنك تنظر إلى هذا... ليس الجهاز متصلًا بالإنترنت الآن. سوف أنهي الكي. وإذا كانت لديك أية أسئلة، فاسألني».

جلس برويز على الفرشات الموضوعة بعضها فوق بعض. ووضع الجهازَ اللوحي على ركبته. كان فاروق قد شغل متصفح الصور حتى يريه صورةَ الراية البيضاء والسوداء التي رآها أولَ مرة منذ بضعة شهور فقط وتعلم سريعًا أن يدير وجهَه سريعًا عن صورتها في الصحف التي يقرأها الناس في المترو حتى لا يظن أحد أن الفتى المسلم ينظر إلى تلك الراية باهتمام أكثر مما ينبغي له. رفع رأسَه ونظر إلى فاروق الذي أشار له بإصبعه أن يقلب الصور. بدأ برويز ينتقل من صورة إلى أخرى. رجالٌ يصطادون الأسماك معًا ومن خلفهم شروق شمس جميل؛ وأطفالٌ على الأراجيح في ملعب للأطفال؛ ورجلٌ على حصان أسود جميل يسير في مدينة؛ وصناديق من الخضار الطازجة مصطفة في الشارع؛ وكهلٌ تبدو عليه القوة والعافية تحت عريشة من عناقيد عنب لا تزال خضراء يمد يدَه ليقطف واحدا منها؛ وشبابٌ من أقوام مختلفة جالسون معًا على سجادة مبسوطة في أحد الحقول؛ ورجالٌ واقفون يوجهون بنادقَهم على رؤوس رجال راكعين؛ ومشهدٌ مسائيٌ في شارع صاخب بالحياة... أضواء

السيارات ومصابيح كهربائية متألقة؛ وفتيانٌ في بركة سباحة كبيرة؛ وأطفالٌ صبيان وبنات مصطفون إلى جانب قلعة منفوخة مهتزة في مدينة ملاهي؛ وعيادة للتبرع بالدم؛ ورجال مبتسمون يكنسون شارعًا بدا نظيفًا قبل الكنس؛ وعش طيور؛ وجثة طفلة مدمّاة.

لم يدرك برويز أنه قال شيئًا عندما رأى الصورة الأخيرة؛ لكن لا بد أنه قال شيئًا لأن فاروق سأله: «ماذا؟» ثم جاء إليه لينظر إلى ما يراه. قال له: «إنهم الكرد، أولئك الذين يراهم الغرب أبطالًا. هم من فعل هذا. كان اسمها ليلى. وكان عمرها ثلاث سنوات».

«وماذا عن الرجال الراكعين ينتظرونَ الإعدامَ في تلك الصورة الأخرى؟»

«إنهم الرجال الذين فعلوا هذا بها؛ أو هم ليسوا مختلفين عنهم أبدًا».

«وماذا عن الصور الأخرى؟ هل هي صورٌ حقيقية؟»

«هي حقيقية طبعًا. انظر!...» عاد إلى صورة الرجال الذين يصطادونَ الأسماك فرأى برويز أن واحدًا منهم... الرجل صاحب العضلات البارزة المتوترة تحت ثقل شد الخيط الذي يحاول لفه على بكرة صنارة... إنه فاروق!

«حسنٌ، هنالك كذبة صغيرة في هذه الصورة. تلك السمكة العملاقة التي تظن أنني قد اصطدتها... لم تكن إلا سترة مشبعة بالماء. هنا، نصطاد الأسماك في نهر الفرات. ألا تريد أن تأتي معي لاصطياد الأسماك في نهر الفرات... لاصطياد الأسماك مع إخوانك الآخرين؟ هذا هو أبو عمر؛ وذلك هو إلياس الروسي؛ وهذا هو حبيبي أبو بكر الذي استشهد على يد الجيش السوري الحر».

«هذا يعني أن ذلك كله ليس صحيحًا!... ما يقولونه عن كل ما يجري من عنف.. العنف موجهٌ إلى جنود الأعداء فقط؛ أليس هذا ما تقوله لي؟»

أطلق فاروق زفرةً ثقيلة، ثم جلس إلى جانبه وأحاط عنقَه بذراعه: «ماذا يعلمونكم في دروس التاريخ؟»

الثورة الفرنسية. كان ذلك درس فاروق لهذا اليوم. إنها مهد التنوير والليبرالية والديمقراطية، وحجر الأساس لها كلها، فضلًا عن كل الأشياء التي تجعل الغرب متفوقًا ذلك التفوق المتعجرف تجاه بقية العالم كله. فلنتفق على أن نقبلَ لحظة أن المُثُل التي أتت بها الثورة الفرنسية كانت مثلًا حسنة: الحرية، والمساواة، والأخوة... من عساه يستطيع قولَ شيء ضدها؟ حسنٌ... يستطيعُ فاروق دحضَ تلك المُثُل، لكن ذلك سيكون موضوع الدرس في يوم آخر. وأما في هذه اللحظة، فلنقبل تلك المثل ولنعتبرها مُثُلًا حقيقية. لكن، ماذا كان يمكن أن يحل بهذه المُثُل لولا حُكم الإرهاب الذي رعاها وغذّاها بالدم، وقضى على أعدائها كلهم، في الداخل وفي الخارج... أولئك الأعداء الذين كانوا خطرًا على اليوتوبيا الجديدة؟... ثم إن حكم الإرهاب فعل ذلك أمام الملأ جميعًا. قد يكون هذا مما يُؤسف له لأن الإنسان يفضل اصطيادَ الأسماك مع رفاقه على قطع رؤوس الأعداء. لكن ذلك كان ضرورة. انتهى الإرهاب آخر الأمر بعد أن أدى وظيفتَه في حماية الوضع الجديد، الوضع الثوري، الذي كان يحاصره الأعداء لخشيتهم من قوته الأخلاقية.

«وهكذا، يكون السؤال المطروح عليك كالتالي: هل ستحمي الثورةَ الجديدة؟ هل ستقوم بالعمل الذي كان أبوك واحدًا ممن يقومونَ به لو أنه ظل حيًا؟»

تحولت عينا برويز من فاروق إلى الشاشة. وراح يُقلب ما بقي من صور. رأى أرضَ نظام وجمال وشبابًا وحياة. بندقية كلاشنكوف مستريحة على أحد الكتفين، ويد أخ على الكتف الأخرى. كان ذلك كوكبًا آخر... كان كوكبًا سيجد نفسَه فيه دائمًا فتىً قادمًا من الأرض.. لا تعرف رئتاه كيف تتنفسان في هذا الجو الرائع المذهل.

* * *

لكن رئتيه صارتا، شيئًا فشيئًا، لا تعرفان كيف تتنفسان هواءَ لندن. كان

ضباط جهاز الاستخبارات البريطاني MI5 موجودينَ في باغرام؛ هكذا قال له فاروق، ثم قدمَ له الدليل الذي يؤيد ما قاله. إنها حكومتك، الحكومة التي تأخذ الضرائب من أسرتك وتزعم أنها تُمثِّل الشعب. لقد كانت تعرف بما يجري هناك. كيف يمكنك العيش في هذا المكان والقبول به بعد كل ما صرت تعرفه الآن؟ كيف يمكنك العيش في هذا السراب، في وهم الديمقراطية والحرية هذا؟ أيُ رجل أنت، بل أيُ ابن أنت؟

الآن، صار هذا السؤال يلاحقه طيلةَ يومه. وصار يرى في كل مكان أدلةً على العفن والفساد والأكاذيب والخداع. لقد سمحت أختاه لنفسيّهما بأن تصيرا جزءًا من هذا أيضًا: واحدةٌ تستعد للسفر إلى أميركا، إلى الأمة التي قتلت أباهم وقتلت غيرَه مئات الآلاف من الآباء المسلمين. وأما الأخرى فهي تساند الكذبةَ القائلة إنهم في بلد يتمتع مواطنوه بحقوق وبمحاكم استئناف.

وخلال الليل، كان يغوص أكثرَ فأكثر متعمقًا، مستخدمًا مخدّمات بروكسي التي قال له فاروق إنه قادرٌ على الاعتماد عليها، في قصص على الإنترنت عن كلاب تغتصب السجناء في باغرام، وصور لأجساد معذَّبة، وتقارير طبية عن الأشكال المختلفة لما يمكن أن تسببه «أساليب الاستجواب المعززة» من أذيّات للجسد وللعقل. وفي إحدى الليالي، استلقى في سريره بعد أن وجّه مصباحِ القراءة إلى عينيه مباشرة ووضع على أذنيه أقوى سمّاعة لديه، ثم شغّل موسيقى شديدة الصخب. لم يتحمل أكثرَ من عشرين دقيقة قبل أن يبدأَ البكاء ويصير في حالة يرثى لها فيعيد الظلمة والصمت إلى غرفته.

وعلى نحو متزايد، صار يتوقف في منتصف أبسط الأفعال التي يؤديها خلال النهار، مناولة أحد الزبائن كيسًا من الكرفس، أو انتظار الباص، أو حمل فنجان من الشاي إلى شفتيه. كان يحس هذا كله باطلًا ويحس زيفَ حياته كلها.

«عليك أن تتركها. ليست جيدة لك». ظلت أنيقة تقول له هذا غير قادرة على تخيل أي عذاب أسوأ من عذاب علاقة حب فاشلة. ضبطها أكثر من مرة تجرب تركيبات مختلفة من كلمات المرور من أجل هاتفه، لكنه كان قد غير كلمة المرور من تاريخ ميلادهما المشترك إلى اليوم الذي شهد أول لقاء له مع فاروق.

وذات يوم، جعله فاروق يرى صورة عرفها على الفور. كان في الصورة رجل أبيض راكع على الأرض الرملية قبيل إعدامه... صورة تختصر للعالم كله بربرية دولة الخلافة. عندما رأى هذه الصورة أول مرة أحس حزنًا على ذلك الرجل الذي كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يحاولَ لأن يبدو جريئًا بمواجهة النصل على عنقه... رجلٌ كانت جريمته الوحيدة هي الأمّة التي ولد فيها. أما هذه المرة، فقد كانت ملابس الرجل أكثر ما فاجأه: اللون البرتقالي نفسَه الذي كان لبدلة السجن التي مات فيها أبوه. اتسعت نظرته الآن، وما خلف إعدام فرد راكع في الصحراء.. رأى رسالةَ الخلافة التي يحملها موت هذا الرجل: نفعل بكم ما تفعلون بنا!

هكذا إذًا هو الإحساس بأن تكون لك أمّة تُشهر سيفَها نيابةً عنك وتقول لك إن الخنوع ليس الخيارَ الوحيد. يا الله... كيف يجعل هذا السعادة تسرّي في النفس سريانَ الدم في العروق!

* * *

ثم وجد نفسَه يستعد للرحيل.

وأما كيف حدث هذا على وجه التحديد، فما كان قادرًا أن يقول.

كان منشغلًا بالتغيّر الجاري فيه انشغالًا لا يسمح له بالتوقف والنظر إلى ذلك التغيّر. مر الآن زمنٌ طويل منذ آخر مرة تحدثَ فيها مع فاروق عن كرة القدم وتلفزيون الواقع وتفاصيل الحياة في متجر الخضار والفاكهة. صار لديهما موضوعٌ واحدٌ فقط؛ ثم فهمَ آخر الأمر أن ذلك الموضوع كان قَدَرًا ومُنتهى.

«هل أنت واثق من أنني أستطيع العودة إذا لم يعجبني الأمر؟»
«تستطيع العودةَ بالتأكيد. ألا ترى أنني قد عدت؟»
«لم تخبرني أبدًا عما جعلك تعود».
«كان عليَّ تدبير بعض الشؤون العائلية. ثم أتيت أنت».
«ماذا تعني بهذا؟»
«كان عليَّ أن أسافرَ منذ أسابيع. لكني قلت في نفسي إنك قد تأتي معي إذا انتظرت قليلًا».
«هل بقيت من أجلي؟»
«نعم».
«وهل ستساعدني حقًا في العثور هناك على بعض من عرفوا أبي؟»
«سأفعل هذا».
«أنت أفضل صديق عرفته في حياتي».
«بل أنا أخوك».
«صحيح. أعرف هذا. شكرًا لك».

* * *

اتصل بابن عمه عازف الغيتار في كراتشي (إنه ابن العم الذي كرهَه في المناسبة الوحيدة التي التقاه فيها فقال له: «أنا باكستاني أما أنت فلست إلا باكي-»[1]). قال لابن العم ذاك إنه سوف يقبل اقتراح امرأة عمه بأن يمضي بضعة شهور في كراتشي ويعمل في عرض موسيقي ذي شعبية حتى يحصل على شهادات خبرة احترافية في هذا المجال. رتب أوراقَه وجزءٌ من عقله مصدِّقٌ أنه ذاهب إلى كراتشي؛ ثم حجزَ مقعدًا في طائرة ذاهبة إلى كراتشي عبر اسطنبول بحيث تصل إلى العاصمة

(1) تستخدم هذه الكلمة في باكستان وما جاورها من بلدان جنوب آسيا للإشارة إلى المتحدّرين من تلك المنطقة لكنهم يعيشون في الغرب، في بريطانيا خاصة.

العثمانية القديمة بعد قليل من وصول طائرة فاروق. وعندما حدثته أنيقة عن أنها ستزوره في كراتشي خلال عطلة عيد الفصح، وجدَ متعةً في وضع الخطط معها وقد انكبَّ رأساهما معًا على خريطة باكستان. مسجد بادشاهي، ومدفع كيم، وخرائب تاكسيلا، ومتحف بيشاور الذي يضم أكبرَ مجموعة غاندهارا في العالم. وكذلك الاستوديو الموسيقي في كراتشي حيث جرى تسجيل الأغاني التي كانا يصغيان إليها منذ إطلاقها قبل بضع سنين... في ذلك الاستوديو سوف يعمل برويز عما قريب.

«إذا أعجبني الوضع هناك، فقد أظل حينًا من الزمن. يمكنك أيضًا أن تأتي لزيارتي»؛ قال هذا لعصمة في ليلة من ليالي شهر كانون الأول قبل أن يحين موعد سفره. كانت رائحة عجة ماسالا(1) هي ما جعله يقول لها هذا. وقد كانت تعدّها من أجل عشائه الأخير في البيت.

كفّ برويز عن الأكل في عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة بعد وفاة أمهما. كان غير قادر على تفسير ما أصابه لأنه لم يعرف السببَ الذي جعله يرفض أي طعام تقدمه له العمة نسيم أو بناتها، أو حتى أنيقة التي كانت أكثرهم عجزًا عن فهم ما يجري. لقد كانت عصمة، التي تكره الطبخَ أكثرَ من أي عمل من أعمال المنزل، هي من جاءت إلى غرفته حاملة في يدها طبقًا من عجة ماسالا التي كانت أمّه تعدّها من أجل إفطارهم في كلِ يوم سبت. قطّعتها إلى أجزاء صغيرة وصارت تطعمه إياها بالشوكة قطعةً بعد قطعة.

نظرت إليه نظرةَ دهشة، ثم ابتسمت له تلك الابتسامة التي تدّخرها عادةً لأنيقة وحدها. قالت له: «أحب أن أذهبَ لزيارتك».

جعلته ابتسامتها يخرج من الباب ويخطو في ليل كانون الأول البارد. رأسه مرتدٌّ إلى الخلف ووجهه متجهٌ إلى السماء وعيناه تُحصيان النجوم.

---

(1) خلطة توابل مستخدمة في باكستان ومناطق كثيرة من الهند.

حاول منعَ دموعه من الانهمار. وهناك، في الخارج، وجدته أنيقة بعد وقت قصير.

قالت له: «عليك أن تتخلصَ من ذلك الشعر الذي نما على وجهك». لعلها لاحظت أو لم تلاحظ يده التي ارتفعت إلى وجهه سريعًا فمسحت الدموع عند اقترابها... «فقد يختلط الأمر على موظفي الأمن في مطار هيثرو فيظنّون أن ذقنك هذه دلالة على تطرف ما وليست مجرد نزوة أو تقليعة. وقد يقررون عدم السماح لك بالصعود إلى الطائرة الذاهبة إلى باكستان. سيفعلون هذا خاصة أنك ذاهب عبر اسطنبول. من المحتمل أن يعتبروك جهاديًا!»

ضحك بصوت مرتفع أكثرَ مما تستدعيه تلك النكتة. لمست أختَه ذراعَه: «هل أنت واثقٌ من رغبتك في الذهاب؟ تعرف أنني لا أتركك تذهب إلا لأن من الواضح تمامًا أن عليك أن تبتعد عنها. ألن تقول لي اسمها أبدًا؟ أعدك بأنني لن أضربَها ضربًا شديدًا».

«إنني ذاهبٌ لكي أطوِّر آفاقي المهنية حتى يتحسن وضعي في موقع الزواج الآسيوي ذاك. إلا أن العبارةَ التقديمية يجب أن تظلَ على حالها: شابٌ وسيمٌ يملك بيتًا ويحب أخته».

تقدمت منه حتى كادت المسافة بينهما تنعدم، ثم أراحت رأسَها على كتفه: «أنت راحل، وعصمة راحلة. فما الذي سأفعله هنا وحدي؟»

أمسكَ بطرف أذنها بين سبابته وإبهامه. كان يعرف أنها تريد قولَ هذا منذ أول مرة أعلن فيها عن اعتزامه السفر. ما من مخلوق حيّ يمكن أن يتركَها من أجلها قبل أسابيع فقط من موعد وداعها أختها الكبيرة التي ربّتها... التي ربَّتهما معًا... وكانت أمًا لهما بعد وفاة أمهما. لكن للأموات مطالبهم التي يستحيل أن يصمَّ أذنيه عنها.

* * *

بدأت الطائرة تتحرك على مدرج المطار. تجاهلَ التعليمات القاضية بإغلاق الهواتف وراح يصغي إلى التسجيل الصوتي الذي وضع له اسم «توأمان يتحدثان على سطح السقيفة».

كان صوتها يقول:

صار الوقت متأخرًا؛ حتى العصافير أوت إلى أعشاشها.

يا إلهي، إنني أقاطعك من جديد!

ألم تستطع العثور على هواية تحملك على الانعزال أقل من هذه الهواية؟

أين أنت هذه الأيام؟

بصرف النظر... العشاء جاهز.

يمكنك أن تدخل البيت.

انفصلت عجلات الطائرة عن الأسفلت. أرسلَ المقطع الصوتي المسجَّل إلى حسابها على الإنترنت، ثم حذفَ رقمَها من هاتفه.

الفصل السادس

دفع برويز للرجل في متجر الإلكترونيات بالليرات التركية التي كان يحملها في حقيبة الظهر، ثم سأله كما لو أنه تذكّر الأمر في تلك اللحظة فقط إن كان يبيع هواتف فيها بطاقات تشغيل تسمح بإجراء مكالمات دولية.

قال له: «إن على الواصلين حديثًا أن يتصلوا بأهلهم. وهنالك دائمًا من يبكي على الهاتف وتتساقط دموعَه عليه. ولهذا السبب، أنا لا أريد إعطاءَهم هاتفي بعد الآن».

قال البائع وهو يستدير في اتجاه طاولة عرض ذات سطح زجاجي يَظهر من تحته عددٌ من الهواتف: «لست في حاجة إلى معرفة شيء عن شؤونك. انظر...»

أخرج جهازًا يشبه قطعةَ قرميد صغيرة. كان ذلك هاتفًا عائدًا إلى الزمن الذي لم يكن فيه مطلوبًا من أي هاتف أن يُوفرَ شيئًا أكثرَ من الاتصالات والرسائلَ النصية؛ لكن برويز كان واثقًا من أن هذا النوع من الهواتف لم يظل موجودًا حتى الآن إلا لأن من يعيشونَ في المناطق ذات معدلات الجريمة المرتفعة يحملونَه كنوع من طعم حتى يعطونَه لمن يحاولون سلبَهم. قال البائع بنبرة توحي بالكرم: «إنه مجّاني، هدية»، ثم أدخلَ شريحةَ الاتصال في مكانها.

أجابه برويز: «جزاك الله خيرًا»، ثم حملَ مجموعةَ صناديق المعدات التي دفعَ ثمنَها ثروةً صغيرة وسأله: «هل لديك بابٌ خلفيّ، السيارة متوقفة خلف المحل».

«هل أنت قادرٌ على حمل هذا كله؟ ألا تريد أن تتصلَ بصديقك حتى يأتي ويساعدك؟ كنت أودّ مساعدتك بنفسي، لكن ظهري...»

قال برويز: «هذا لا شيء بعد كل ما جعلونا نمرّ به في المعسكر التدريبي».

«هل أنت مقاتل؟ ظننت أنك مع 'أبو رئيس' في الاستوديو».

«إنني معه. لكن هذا لا يعني أنهم لم يعلّموني كيف أقاتل في سبيل الله استعدادًا لوقت قد أكون فيه أكثرَ فائدةً على ذلك النحو. وماذا عنك أنت يا صديقي؟ لماذا أراك لا تزال مقيمًا في تركيا؟»

شحبَ وجه الرجل: «إنني أقوم بدوري من هنا. ها هو الباب الخلفي... إنه هناك. سوف أفتحه لك».

خطا برويز إلى الخارج، إلى ضوء الشمس، وراح يسير في اتجاه صفّ السيارات المتوقفة إلى أن سمعَ صوتَ إغلاق الباب من خلفه. استدارَ وتأكد من أن الرجلَ قد صار في الداخل فوضعَ كومةَ الصناديق على الأرض إلى جانب الطريق، ثم وضعَ هاتفَه الذكي الذي يمكن تتبعه فوق تلك الصناديق، وانطلق جاريًا.

* * *

دخل الرقَّة في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام منذ ستة شهور. كانت معدته متقلصة إثارةً وخوفًا. انطلق من دراجة آلية صوتٌ يشبه انفجارًا صغيرًا عندما سارت متجاوزةً مدفعًا مضادًا للطائرات مركّبًا في صندوق سيارة بيك آب. أدار المقاتلونَ السلاح في اتجاه راكب الدراجة. لكن فاروق قال له إن هذا مزاح، لا أكثر! رأى صفًا من نخلات

تتهادى سعفها وتصفع إحداها الأخرى بفعل نسمة لم تكن محسوسة عند مستوى الشارع. كان سائق السيارة واحدًا من الرجلين الاثنين اللذين انتظرا فاروق وبرويز في مطار اسطنبول. وكان مصرًّا على أن من الممكن سماع سعف النخل تقول «الله» إذا كانت أُذن المرء جيدة إلى الحد الكافي. قال برويز إن إذنيه أفضل من أذني أيّ شخص آخر في السيارة. لكن الرجلَ أوضح لبرويز أنه استخدم كلمة «جيدة» بمعنى «تقيّة».

كانت ألوان البيوت حائلة بفعل شدة الشمس، لكن زقزقةَ العصافير كانت مشرقة. وكان كيسٌ من النايلون عالقًا في أسلاك كهربائية ممدودة فوق الشارع فراح يخفق هناك. رأى برويز رجلًا يدير بين يديه رغيفَ خبز مسطحًا مستديرًا بطول ذراعه، فسال لعابه في فمه. ثم سمعَ صوتَ اصطدام رغيف الخبز الطريّ الحار عندما ألقاه الرجل على طاولة صغيرة موضوعة على الرصيف. رأى رجالًا ملتحيّن واقفين من حول مجموعة درّاجات آلية. كان اثنان منهما في ثوبَيْن طويلين وسترتَيْ جلد؛ وأما الآخرون فكانوا في بنطلونات وكنزات عادية، وكانوا يتحدثون باللغة العربية. كانت مآذن المساجد مرتفعة صوب السماء؛ وعندما يحين وقتَ الصلاة، كان صوت الأذان يتردد في المكان بين مئذنة رشيقة وأخرى. مرت دبابةٌ مزمجرة بالقرب من تماثيل مقطوعة الرؤوس. سارت فتاةٌ صغيرة جدًا في ثوب ملوَّن بالأخضر والأصفر من خلف امرأتين في نقابين أسودين لم تكن حتى عيونهما ظاهرة من خلفه. همهم فاروق بنغمة من أغنية إحدى ألعاب الفيديو الشائعة إلى أن حذّره أحد الرجلين اللذين في السيارة طالبًا منه أن يتوقف عن إظهار قلة الاحترام تجاه الأخوات وإلا فسوف يبلّغ الحسبة عنه. كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها برويز باسم شرطة الأخلاق؛ ورأى كيف ظهرَ التوتر على وجه فاروق عند ذكرها.

تغيرت الأصوات عندما بلغا الساحةَ المركزية؛ أو لعل برويز كفَّ عن الإصغاء بانتباه نتيجة التشوش الذي أصابه بعد رؤية رؤوس الأعداء المغروسة على قمة سياج معدني ذي قضبان مدببة الرؤوس. حيَّره أن منظرَها لم يكن له أثر كبير في نفسه فقد كانت شيئًا أشبه بما قد يراه المرء في عرض تلفزيوني. قال له فاروق إن يومًا سيأتي، إن شاء الله، لا يكون فيه أعداء فيلعب الأطفال في هذه الساحة. بعد أن صارا برفقة الرجلين الآخرين، صار كلامه باللغة الإنجليزية مبهّرًا بكلمات عربية؛ ولعل هذا ما جعل كلماته كلها تبدو زائفة. بلغا الآن قسمًا آخر من المدينة، قسمًا أكثر ثراء: بيوت كالفيلات، وبنايات مرتفعة فيها شقق سكنية. كان الطلاء الأصفر والأبيض على واجهات البنايات هنا أكثر تألقًا. توقفت السيارة أمام فيللا من طابقين. فقال له فاروق: «وصلنا إلى غايتنا».

سأله فاروق: «من يعيش هنا؟» ثم خرجَ من السيارة متأملًا فخامةَ ذلك البيت الواضحة، وحجمه الكبير الذي يعادل حجمَ ثلاثة بيوت من تلك البيوت التي في حيّه في لندن.

لكزه فاروق وقال له ضاحكًا عندما رأى نظرةَ عدمَ التصديق في وجهه: «هذه واحدةٌ من المزايا التي يتمتع بها الجهاز الإعلامي».

ظهر رجلان لا يكبران برويز بأكثر من بضع سنين. كانا قادمين من مدخل الفيللا. أحدهما اسكوتلندي، والآخر أميركي. قدَّما نفسَيْهما باسمَيْهما الحركيَّيْن وعانقاه بطريقة رسمية، لكن تحيتهما لفاروق كانت كما تكون التحية بين أصدقاء. قالا لبرويز إنهما مصوّران و... نعم، هاتان السيارتان رباعيتا الدفع عند مدخل الفيلا سيارتاهما: مزية أخرى من مزايا الجهاز الإعلامي!

كانت أرض البيت رخامية؛ وكانت على الجدران مساحاتٌ حالَ لون طلائها: لا بد أن صورًا فوتوغرافية أو أعمالًا فنية كانت معلقة في هذه

الأماكن. غرفةٌ شديدة الاتساع فيها كراسٍ وثيرة مرتفعة المساند وأرائك لها وسائد مغلَّفة بقماش مزهّر، وإلى جانب ذلك كله غرفة طعام رسمية فيها طاولة كبيرة. كانت في الممرات صناديق كثيرة. «هذه معدّاتنا»؛ قال هذا أحد الرجلين اللذَيْن كان برويز قد نسيّ اسميهما على الفور فصار يدعوهما في عقله: أبو اسمَيْن، وأبو ثلاثة أسماء. أحس برويز كأنه في برّاد نتيجة مصاريع النوافذ المغلقة وطابع المكان الذي كان أشبه بمشرحة. لكن الرجلين قاداه إلى الطابق العلوي قائلين إنه المكان الذي يعيشان فيه فعليًا. هناك، ثمة ضوءٌ وثمة هواء... مكانٌ غير رسمي على نحو بهيج.

دعاه الأميركي (أبو اسمين) إلى الخروج إلى شرفة مستديرة مشرفة على حديقة كثيفة الألوان. لا يزال الوقت بعد الظهر، لكنه تدثّر شاكرًا بالشال الذي قدمه إليه الرجل الاسكوتلندي (أبو ثلاثة أسماء) ليقيّ نفسه من النسيم البارد... «نسيم نهر الفرات»... الذي أحسَه وهو يغرق في مقاعد الشرفة الوثيرة ذات اللون الأزرق المدهش. ظهر رجلٌ من مكان ما... «إنه إسماعيل؛ حصلنا عليه مع البيت»... وقدمَ لهم الشايَّ والبسكويت على صينية فضية. يمكن للمرء من هذه الشرفة أن يميزَ أصواتَ الدراجات الآلية والسيارات، وأصواتَ مطارقَ، وزقزقةَ عصافير، وصوتَ الريح تتخلل أغصان الأشجار؛ ويرى أيضًا أزهارَ «المجنونة»[1] تتراقص في النسيم على امتداد الدرابزون في الشرفة. وعلى الرغم من انزعاجه واضطرابه لرؤية الرؤوس المغروسة على القضبان، والنساء المنقَّبات، فقد كانت السماء الزرقاء والروح الرفاقية الظاهرة على الرجال الجالسين على مقاعد الشرفة تعده بالعالم الأفضل الذي جاء باحثًا عنه.

---

(1) المجنونة (تدعى أيضًا باسم «الجهنمية»)، نبتة تزيينية مزهرة متسلقة تنمو في البلاد الحارة والدافئة.

قال له الأميركي: «ستُخبرنا ذات يوم عن القصة الكامنة خلف اسمك». كان الأميركي رجلًا أسود طويلًا جدًا؛ وكانت له ابتسامة واسعة. وأما صديقه فكان من أصل باكستاني اسكوتلندي مختلط؛ كان يضع نظارةً، وكان أكثرَ هدوءًا. «محمد بن باغرام»، هكذا كان اسم برويز الحركي الذي أشار إليه الرجل. كان فاروق قد كتب هذا الاسم في نموذج تسجيل برويز عند أول حاجز؛ وظهر عليه عند ذلك الزهو والاعتزاز لأنه اختارَ هذا الاسم لصديقه. كان مزيجًا من تذكيرٍ بما عاناه والده وإقرارٍ بأن برويز الجديد هذا قد ولد من رحم السعيّ وراءَ الانتقام والعدالة... هذا ما قاله فاروق فكان من المستحيل على برويز أن يقولَ إن الاسمَ لم يعجبَه. لكن ذهنَه سرعان ما ابتعد عن الأسئلة المتعلقة بهذا الاسم عندما مدَّ فاروق يدَه داخلَ حقيبة الظهر وأخرجَ منها جواز سفره وقدمَه إلى الرجل الواقف خلفَ مكتب التسجيل. ذلك الرجل الذي كانت له نظرة من غير روح مثلما هي نظرة البيروقراطيين في كل مكان.

قال له فاروق: «لا تقلق... إذا احتجت إليه في يوم من الأيام فسوف أعيده إليك. لكنك لم تعد في حاجة إليه. أنت الآن مواطنٌ في الدولة، في دولة الخلافة».

حاول برويز ألّا يفكرَ في جواز سفره، وسألَ المصورين كم مضى على وجودهما هنا. قالا إنهم يتشاركان العيش في هذا البيت منذ أكثر من شهرين، إلا أن صداقتَهما تعمقت بسرعة كبيرة أوحت لهما بأن من المؤكد أن روحيهما قد تلاقتا في الجنة قبل زمن طويل قبل من أن تأتي بهما إرادة الله إلى الرقّة معًا. كان كلٌ منهما يلمس ذراعي الآخر وكتفيه بعاطفة واضحة لكنها غير واعية لنفسها؛ وهذا ما جعل الأمر كله مؤثرًا بدلًا من أن يكون سخيفًا.

قال فاروق وهو يعبث بشعر برويز: «هذا أيضًا ما حدث معنا أنا وهذا المقاتل الشاب. سأشعر بالغربة لأنني لن أستطيعَ رؤيته كل يوم».

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«إلى الجبهة. هل نسيت أنني مقاتل؟»

«ألن تعيش في الرقّة؟»

رأى الرجل الأميركي يهز رأسَه مثلما يهز أولاد المدارس رؤوسَهم عندما يريدون الإشارةَ إلى أن هنالك إظهارًا للعواطف أكثر مما ينبغي... عادةً ما تكون تلك العواطف متعلقة بفتاة! حاولَ برويز أن يهربَ من نبرة الاستعطاف والتوسلَ في صوته بحركة من ذقنه كانت كأنها تقول «ها... هذا مفاجئ، فلماذا لم تقله من قبل؟»

«غالبًا ما أكون بعيدًا عن المدينة أقاتل الكفّار، لعنّهم الله، حتى تظلوا آمنين في شققكم المكيَّفة أيها الفتيان».

قال له الأميركي: «يا لها من كلمات كبيرة. إن كنتم على هذا القدر كله من الأهمية، أيها المقاتلون، فلماذا نحصل على مال أكثر منكم؟»

رفع الاسكوتلندي يدَه لإيقاف هذا الحديث، ثم قال: «الحمد لله لأن كلًا منّا يقوم بنصيبه في العمل في سبيل الله. وأما الحكم على من هو أفضل ومن هو أسوأ، فلا يكون إلا بحسب عمق إيمان كل واحد منا».

«والله يا أخي إنك شخصٌ يمكن لنا أن نعتمدَ عليك دائمًا لتُذكّرنا بما هو مهم حقًا... ما شاء الله!». قال فاروق هذا بنغمة نجحَ في جعلها تبدو صادقة... «لا، يا رجل. سوف أغيب معظمَ الوقت. وحتى عندما أكون هنا، فإن لديَّ زوجة وطفل؛ ألا تعرف هذا؟»

«هل لديك زوجةٌ وطفلٌ حقًا؟»

«بالطبع، لقد أعطوني زوجةً منذ وصولي تقريبًا؛ أما هذان الرجلان اللذان يتقاضيان مالًا كثيرًا، فلا يزالان ينتظران موافقةَ مكتبَ الزواج».

قال له الأميركي: «لقد أتيت في وقت أبكر؛ هذا كل ما في الأمر. هذه الأيام، من الممكن أن يطولَ الانتظار ستةَ أشهر. لكني أتحدث الآن مع فتاة في فرنسا. لقد صارت شبه جاهزة للمجيء».

«لا، لكن...» سمع برويز صوتَه خارجًا من فمه أشبه بالبكاء، لكنه لم يستطع تجنب ذلك... «قلت إنك ستساعدني في العثور على أشخاص ممن عرفوا أبي».

ابتسمَ فاروق ابتسامةً كبيرة: «سوف تصادف بعضًا من الجهاديين القدامى في معسكر التدريب. أخبرهم عن أبيك، وسوف يعثرونَ لك سريعًا على أشخاص عرفوه».

«أيُ معسكر تدريب؟»

سأله الاسكوتلندي: «ألم تقل له أيَّ شيء؟»

ما لم يخبره به فاروق هو أن على الوافدينَ الجدد جميعًا أن يذهبوا إلى معسكر يخضعونَ فيه لدورة شرعية تستمر عشرة أيام («من الممكن أن تكون المدة أطول من ذلك، لكني كتبت أن مستوى معارفَك الشرعية 'متوسّط' عندما ملأت نموذج تسجيلك»)؛ ثم تلي تلك الدورة الشرعية ستة أسابيع من التدريب العسكري. وبعد ذلك، ومع افتراض قبوله في الجناح الإعلامي (قال له فاروق: «سوف يجري قبولك بالتأكيد»)، فسوف يكون عليه أيضًا أن يلتحق بدورة التدريب الإعلامي التي تستمر شهرًا». لكن الرجلان الآخران لم يعلّقا على هذا التأكيد بشيء.

كان فاروق يعرف أن هذا كله يبدو ثقيلًا على النفس بعضَ الشيء، لكنه قال له إنهم سيضعونَه بعد فترة غير طويلة في أحد الاستوديوهات حيث يتقاضى راتبًا شهريًا وتكون له سيارة دفع رباعي، إضافةً إلى حصة من بيت: قد يعيش في هذه الفيللا نفسها إذا رأى مكتب الزواج، أو إذا رأت تلك الفتاة الفرنسية أن من الأفضل انتقال واحد من ساكنيها الحاليين، أو كليهما، إلى أحياء المتزوجين بحلول ذلك الوقت.

أدرك برويز أنه سيكون من باب الغباء أن يعترفَ بأنه قد ظنهم جاؤوا به إلى هذا البيت لأنه المكان الذي سيعيش فيه؛ وكان يدرك أنه ليس

من الروح الإسلامية في شيء أن يعبّر عن عدم الرغبة في الذهاب إلى المعسكر والخضوع لدورة شرعية. وفوق هذا، سيكون من غير الرجولة في شيء أن يقول إنه غير راغب في التدريب العسكري. وقد وجد أن من رداءة الطبع أن يلومَ فاروق على أي شيء في حين أنه هو الذي لم يفكر بطرح أسئلة عملية عن الحياة التي كان موشكًا على دخولها. رفع كتفيه وقال إن الأمر حسنٌ بالنسبة إليه، رغم أن أحدًا لم يسأله عن رأيه.

قال الأميركي: «وبمجرد أن تستقرَ، يمكنك أيضًا أن تقدمَ طلبًا إلى مكتب الزواج. لكن نصيحتي هي أن تحاولَ العثور على فتاة عن طريق الإنترنت. الأوروبيات يعرفن كيف يقمن بأشياء أكثر مما تعرفه العربيات... لا بد أنك تفهم ما أعنيه... أقول هذا رغم أن صديقي الجالس هنا لا يشاطرني الرأي عندما أتحدث هكذا».

«بمناسبة الحديث مع الفتيات، هل نخبر أختيك بمكان وجودك؟» طقطق الكرسي تحت فاروق عندما مال جانبًا ومد يدَه إلى جيبه الخلفي ليخرجَ هاتفَه.

كان برويز قد كتب إلى أنيقة سلسلةَ رسائلَ نصّية منذ وصوله إلى اسطنبول عصرَ اليوم السابق. رسائلَ كاذبة مبتهجة يخبرها فيها عن المناظر الجميلة التي يراها في اسطنبول خلال توقفه فيها يومًا كاملًا في طريقه إلى كراتشي. وعندما صارا قريبين من الحدود السورية التركية، قال لها إن بطاريةَ هاتفه موشكة على النفاد لأنه لم يستطع شحنها طيلة الليل. وهكذا فمن الممكن ألّا يصلها منه شيئًا لفترة من الزمن. وبعد ذلك أخذ فاروق الهاتف منه ثم رماه بحركة من رسغه فأرسله طائرًا من نافذة السيارة. كان برويز قد صارَ الآن على معرفة جيدة باختبارات فاروق فلم يفعل شيئًا غير أن ابتسمَ ورفعَ كتفيه وراحَ يفكر بالهاتف الذي سيشتريه في الرقة بالمال الذي سوف يتلقاه نتيجةَ عمله كمصمّم صوت هناك.

تناول الهاتف الذي أخرجه فاروق من جيبه ففوجئ بالتوقيت الذي أشارت إليه الساعة الظاهرة على شاشته: الوقت متأخرٌ أكثرَ مما كان يظن. إن الطائرةَ الذاهبة من اسطنبول إلى كراتشي في طريقها الآن؛ وسرعانَ ما سيتصل ابن عمه مع أنيقة ويقول لها إنه في المطار وإن المسافرينَ الواصلين قد خرجوا جميعًا، لكنه لم يرَ أثرًا لبرويز. قال له فاروق عندما رآه يهم بالنهوض: «ابقَ هنا خلال كلامك معها».

سجل الدخول إلى سكايب، ثم اتصلَ بأنيقة وهو يتخيل صوتَ استقبال المكالمة الذي يشبه صوتَ فقاعات الماء في سكايب. تخيل ذلك الصوت منبعثًا داخلَ حقيبة يدها ذات اللون البني التي تكون معلقة في مقبض الباب المؤدي إلى غرفة المعيشة. مسح بكفيه على بنطلونه، وانتظر.

عندما أجابت أنيقة، كانت فكرته الأولى أن النغمةَ الغريبة في صوتها قابلة للتفسير بأنها توقعت أنه لا يزال في الطائرة. قالت له بصوت متقطع: «أين أنت؟»

«مرحبًا. قبل أن أجيبك على هذا السؤال، عديني بأنك...»

«من هو فاروق؟»

نظر إلى فاروق بالتفاتة سريعة فما كان منه إلا أن أمسك بمعصمه وبدا كأنه يحاول تقريبَ الهاتف من وجهه؛ إلا أن الاسكوتلندي سرعان ما وضع يدَه على كتفه وقال له: «لا تنظر إليها إن لم تكن محجّبة».

سألته أنيقة: «مع من أنت الآن يا برويز؟ أين أنت؟»

«لماذا تسألين عن فاروق؟»

«يجب أن تكون في الطائرة الآن. لقد أقلعت في الموعد المحدَّد لها. لقد تأكدت من هذا. لماذا أنت لست في الطائرة؟»

«اهدأي... كلُّ شيء على ما يرام. لماذا تسألين عن فاروق؟»

«لقد أخبر عبد الله أمه بأنك ذهبت مع فاروق، صديق ابن عمه. قال إنك ذهبت معه إلى الرقّة. أين أنت الآن في حقيقة الأمر؟»

قال فاروق: «لم يعد يمكن للمرء الثقة بأن يحفظَ أسرارَه حتى أفراد أسرته نفسها»؛ لكنه قال هذا من غير أن يبدو عليه أي انزعاج على الإطلاق.

«لا يمكن أن أذهبَ إلى المكان الذي تظنين أنت إن الرقّة تمثله. لكنها ليست ذلك المكان الذي تتخيلين».

كان هنالك شيءٌ ما يضغط على حنجرته ويجعل الكلمات التي تخرج من فمه تبدو له غريبة. كان الأميركي ينظر إليه تلك النظرة من جديد، ويهز رأسَه تلك الهزة. وحتى وجه أنيقة بدا غير مألوف له للمرة الأولى في حياته: في وجهها تعبير لم يره قبل الآن ولم يعرف تفسيرًا له. كان شكل فمها غريبًا، مضغوطًا، كأنها تأكل شيئًا بشع الطعم لا تستطيع ابتلاعه ولا تستطيع بصقه. وبعد ذلك اختفت وظهرت عصمة في مكانها».

قالت له: «أيها الغبي الأحمق». كان تحمّل سماع هذا أكثر سهولة عليه... فتح عينيه وأدارهما في اتجاه فاروق، ثم وضع إصبعين على صدغه كأنه يطلق نار مسدس على رأسه. قالت له عصمة: «انتبه إلى سلوكك يا أخي. هنالك من هو معنا الآن...» أدارت الهاتف فظهر رجلان واقفان في غرفة معيشتهم تحيط بهما تلك الأشياء التي ألفها كلها مثلما ألف نبضات قلبه... «قل مرحبًا لهؤلاء الرجال من شرطة لندن...» استمر صوت عصمة طبيعيًا، كأنها في حديث عادي...» سوف يقلبون البيتَ رأسًا على عقب، وسوف يقلبون حياتنا رأسًا على عقب. أسألك من جديد، هل لديك ما تريد قوله لهم؟»

كان مدركًا تمامًا أن الرجالَ الثلاثة الذين معه في الشرفة ينتظرونَ

الآن ردةَ فعله على ذلك الخبر، على أن الشرطة قد عرفت بمكانه الآن وعلى أنه ما عاد قادرًا على العودة.

قال لرجلَيْ الشرطة الظاهرَيْن في الصورة اللذين كان وجهَيْهما كأنهما من حجر: «أختاي لا تعرفان شيئًا عن الأمر».

أخذ فاروق الهاتف من يده: «سوف أرفع رايةَ دولة الخلافة على قصر باكينغهام بنفسي». صاح بهذا وهمّ بإنهاء المكالمة، لكنه قال ردًا على صيحة غضب صدرت عن برويز: «ماذا؟ هل كان عليَّ القول أنني سأرفعها على داوننغ ستريت[1] بدلاً من باكينغهام؟»

مال الاسكوتلندي إلى الأمام، ثم مسَّ ركبة برويز بحركة توحي بالتعاطف وقال: «لا بأس عليهم. سوف يحفظهم الله خلال وجودك هنا، خلال جهادك في سبيله، إن شاء الله».

نظر برويز إلى عينَيْ الرجل المتألقتين، نظر إلى ثقته واطمئنانه، ثم خفض رأسه كما لو أنه يدعو لأختيه حتى لا يرى الآخرون الذعر في وجهه.

* * *

بعد شهور من ذلك، صار الذعر رفيقًا مألوفًا للرجل الجالس عمق المقهى، في تلك البقعة التي لا تستطيع أشعة شمس شهر حزيران الحارقة بلوغها. وفي كل حين، كان يذكّر نفسَه بأن ينظرَ إلى الدليل السياحي الذي أمامه وبأن يرتشفَ الشاي بنكهة التفاح.

كانت واجهة المقهى المفتوحة تسمح له بمراقبة الحياة في ذلك الشارع الضيّق في اسطنبول حيث ينتقل السائحون والزائرون بين برج غَلَطة والقرن الذهبي. كان أبسط الأشياء يبدو له استثنائيًا: سوارٌ فضّيّ في معصم امرأة يعكس أشعة الشمس؛ ورسغ المرأة نفسه. وبشرٌ

(1) مقر رئاسة الحكومة في لندن.

مكتبة
t.me/t_pdf

يتكلمون رغم انطلاق الأذان من مساجد المدينة؛ وأصوات الحركة التجارية الماضية من غير انقطاع رغم إلحاح المؤذّنين على الذهاب إلى الصلاة... ومثلها أبواق السيارات.

كان سطح الصينية الموضوعة على الطاولة عاكسًا فسمحَ له برؤية الصبي القصير غير المتميز الآتي من بريستون رود؛ ذلك الصبي الذي أزال حلّاقٌ على بعد بضعة شوارع ذقنَه فأعاده إلى الوجود. صار وجهه خّداعًا الآن، وصار فيه ما يوحي بشيء من الإلفة لمن عرفوه عندما كان لا يزال ذلك الصبي. مر بيده على ذقنه النظيفة. كان اختلاف لونها عن لون بقية جلده يقلقه فشد قبعتَه الرياضية على رأسه حتى يخفي شعرَه المقصوص قصيرًا جدًا، وتجمَّع على نفسه. بعد أن جرى مبتعدًا عن متجر الإلكترونيات، أشارَ إلى سيارة تاكسي بحركة متوترة وقال لسائقها: «خذني إلى مكان بعيد عن هنا حيث أستطيع شراء ملابس». ثم اتصل بأنيقة بعد ذلك.

سمع صوتًا آتيًا من عند الطاولة التي أمام المقهى. كان الصوت يتحدث عن «نقطة التقاء آسيا بأوروبا». هذه المفاهيم العتيقة: لماذا لا يزال الناس يظنون أنها تعني شيئًا؟ لغة العنف، اللغة التي يتكلم بها أقوياء الأمم كلها، لغةٌ تمحو الفوارقَ الحقيقية الكامنة تحت السطح. مرت أمام المقهى فتاتان ضاحكتان خليّتا البال. هذا الصوت المتواصل النابع من حنجرتَيْ الفتاتين ومن جوفيّهما، كان أكثرَ تميزًا وأكثرَ لفتًا للانتباه من الأساور في أيديهما. لعل السطح هو كل ما يستحق القتال من أجله. تذكر كيف كان يشعر بأنه عائم فوق سطح من الحرية والأمان، كيف كان يحس نفسه طافيًا فوق ذلك السطح، فاعتصر الحنين قلبه.

نظر إلى كتابه السياحي من جديد. لم يكن للكلمات في تلك الصفحة التي ينيرها مصباحٌ شحيحٌ في الأعلى أيّ معنى. انطلقْ من «نظام كاديسي» في اتجاه الشاطئ مرورًا بـ«هاملاجي سوكاجي»،

وسوف تصل في النهاية إلى بيت ليون تروتسكي الذي لا يزال واقفًا خربًا في حديقته المهملة. كيف كان هذا ممكنًا... دعوة إلى عالم يمكن أن تمضي فيه فترة بعد الظهر كلها متجوّلًا في اتجاه الشاطئ، ثم تدخل بيتًا خربًا عاش فيه في يوم من الأيام شخصٌ له أهميته. لا، ليست هذه بدعوة... كانت الكلمات تفترض أنك واحدٌ ممن ينتمون بالفعل إلى ذلك العالم. سوف تصل إلى بيت ليون تروتسكي... ذلك الوعد، وتلك الثقة! هل مرَّ به وقتٌ كان يُسمح له فيه بأن ينزلق فيدخل هذه الحياة: سفرة رخيصة بالطائرة، وفندق صغير للشباب؟ لم لا؟ لو كان في صحبة أنيقة، لاستطاع أن ينطلق من «نظام كاديسي» ويتجه إلى الشاطئ. لكن لا، ستمنعهما عصمة: «لقد تخليت عن حياتي حتى أعمل في محل تنظيف الملابس لأضع طعامًا على هذه الطاولة. إنه دورك الآن. إذا كنت غير قادر على تحصيل منحة دراسية، فسدد بعض الفواتير على الأقل». عبَّر عمق حنينه عن نفسه من خلال إدراكه أنه متشوّق حتى إلى رؤية عصمة وإلى تلك المناوشات معها، المناوشات المألوفة التي لا معنى لها. ليتهم يسمحون له بالعودة من غير تسليمه إلى حلفائهم ليوضع في سجن في مكان ما لا يطاله القانون. لعلهم صاروا الآن أفضل من حيث المحافظة على حياة الناس، أو لعل الحياة والموت ليست نتائج ذات أهمية على الإطلاق. إنهم مهتمون بالمعلومات فحسب. وليس لديه من المعلومات إلا أقل بكثير مما يكفي لإقناع أحد بأنه ليس لديه معلومات غيرها. أو... لعلهم ليسوا مهتمين إلا بإنزال مزيد من الألم. «لا يحترم العنف شيئًا غير العنف». هذا ما قاله فاروق في الخريف الماضي، في تلك الأسابيع عندما كانت كل كلمة تخرج من شفتيه حكمةً صافية وجمالًا. ثبت أخمصَيْ قدمَيْه على السجادة. السكون هدوء المظهر الخارجي درسٌ من الدروس التي تعلمها من فاروق أيضًا.

تمامًا عندما شعر بأنه سيجد نفسَه مضطرًا إلى الصراخ عاليًا حتى

يتحرر من هذا الضغط على صدره، أضاءت شاشة الهاتف وظهر له اسم أنيقة.

معي جواز سفري وتذكرة الطائرة. الإقلاع بعد ثلاث ساعات. أنا ذاهبة إلى المطار.

لا تكتبي بحروف كبيرة هكذا، يا كثيرة الصراخ.

لا تظن أنك تستطيع إصدار الأوامر لي، يا أحمق.

أحبك أيضًا.

أراك قريبًا أيها العاطفي.

أراكِ قريبًا أيتها المجنونة.

طلب قهوةً وشيئًا من الخبز. عندما تصل، ربما يكون لديهما وقتٌ للذهاب وإلقاء نظرة على ذلك البيت الخرِب ذي الحديقة المهملة. ظهر في مدخل المقهى رجلٌ ملتحٍ عريض المنكبين وامتد ظله عميقًا داخل المكان. إنه شخص يسأل عامل المقهى عن الاتجاهات. ما أهمية الذهاب إلى ذلك البيت؟ إن في لندن ما يكفي من البيوت والحدائق. القنصلية البريطانية، والمطار: هذا كل ما يريد رؤيتَه في اسطنبول. غدًا، في مثل هذا الوقت، سيكون قد عاد إلى بريستون رود... إن شاء الله.

اهتزّ هاتفه عندما أتته رسالة جديدة فابتسم. لا بد أن أنيقة قلقة. نهض عن كرسيّه قليلًا وأخرج الهاتف من جيب بنطلونه الخلفي، ثم قرأ الرسالة: لقد حكمت على نفسك بالموت أيها المقاتل الصغير.

* * *

كان الرجل راكعًا على الرمل، وكان ساكنًا كله إلا من حركة شفتيه.

قال له رئيس استوديو الصوت في الرقّة، أبو رئيس: «اذهب وجِدْ شيئًا تسد به فمه. لا نريد هذا التشويش».

جرى برويز عائدًا إلى سيارة الدفع الرباعي التي أتى بها هو وأبو رئيس قبل دقائق فقط إلى حيث هذا المشهد الذي يشبه مشهدًا مأخوذًا من أحد الأفلام: سماء شتوية زرقاء، ونهار ساكن هادئ لا تحرّك فيه الريح ذَرّة رمل في هذا الامتداد الصحراوي، ولا علامة تشير إلى الحياة غير هذا الرجل الراكع على الأرض وعلى بعد خطوات منه جلّاده يُقلب سيفَه في الشمس فتتراقص أشعتَها على صفحته. فتح برويز بابَ السيارة الكبيرة وانحنى في داخلها. صار بعيدًا عن الأنظار الآن، فأراح رأسَه على مقعد السيارة الجلد وحاول أن يوقف ذلك الارتجاف في يديه الذي بدأ لحظة ترجله من السيارة، لحظة فهم ما كان موشك على الحدوث هنا.

* * *

كان ذلك في أواخر شهر آذار. لقد تحمل عناءَ الدورة الشرعية ومذَلّتها؛ وتعلم فيها أن كل شخص من أحبته ليس إلا كافرًا أو مرتدًّا، وأن الفئتين تستحقان الموت. تعلم أيضًا أن ارتداء قمصان عليها أيّ صور أو شعارات أمر يخالف شرع الله، وكذلك إعطاء أي شخص معلومات خاطئة عن الاتجاهات، إضافة إلى أن يسمح المرء لنسائه بالجلوس في العلن أمام الناس. تحمل دورة التدريب العسكري التي تعلم خلالها أن الخوف يمكن أن يجعل جسم الإنسان قادرًا على اجتراح مآثر مستحيلة، وأن الرجالَ من جيل أبيه ممن ذهبوا إلى الجهاد في البوسنة والشيشان وكشمير كانوا يعودون إلى أسَرِهم لقضاء شهور الشتاء معها. جعلته هذه المعلومة الأخيرة ينتحب ليلًا دافنًا رأسه في وسادته، لا لأنها جعلته يفهم أن أباه لم يحبه أبدًا (رغم أنه أدرك هذا من قبل)، بل لأنه رأى أخيرًا أنه ابن أبيه لأنه هجر أسرتَه التي كانت تستحق دائمًا شخصًا أحسنَ منه. تحمل هذا كله؛ ورغم أنه صار في ذلك الوقت عارفًا بطبيعة هذا الجحيم الكالح القاسي عديم القلب الذي ترك حياتَه من أجله؛ إلا أنه ظل يعتقد أنه نجا مما هو أسوأ. لقد قبله الجهاز الإعلامي، ثم درَّبه (وجد متعة في

هذا التعليم الذي تلقاه هناك)، وصار له الآن موقع في استوديو الصوت في الرقّة، وحل محل الاسكوتلندي في الفيللا (وجد مكتب الزواج امرأة للاسكوتلندي؛ لكن الفتاة الفرنسية التي كان الأميركي يحاول اجتذابها تخلت عن فكرة المجيء فكان ذلك الخبر الوحيد الذي جعل برويز يحس شيئًا من السعادة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة).

وعلى امتداد أسبوعين من عمله في استوديو الصوت، جرى تكليفه بمهام منخفضة السوية من قبيل تنقيح بعض الخطابات وتنظيفها من التشويش، وتصنيف التسجيلات الصوتية الفوضوية التي كانت لدى 'أبو رئيس'. وأما اليوم، فقد طلب منه أبو رئيس الذهاب معه لمساعدته في التحضير لتسجيل صوتي ميداني هام رغم أن من المعروف عنه أنه رجل يفضِّل العمل وحده. شعر برويز بشيء من الاعتزاز، رغم انعدام ثقته بأنه في حاجة إلى أيّ شخصية أبوية تبارك أفعاله بعد تجربته مع فاروق الذي لم يره منذ يومه الأول في الرقة.

كان أبو رئيس يناديه باسمه، الاسم الذي تعلم أن يستجيب له، فأخرج قطعة قماش من جيب داخلي في السيارة. كانت الرمال متحركة تحت قدميه عندما جرجر خطواته عائدًا وقد دفن يديه في جيبيه ليخفي ارتجافهما. رفع الجلاد سيفه، ثم أنزله ببطء حتى رقبة الرجل الراكع على الأرض. انحنى برويز واستفرغ ما في معدته. وعندما انتصب واقفًا وهو يمسح فمَه بظهر يده، رأى الجلاد يرفع السيف من جديد، ثم ينزله من جديد حتى سنتيمترات قليلة من رقبة الرجل. كان أبو رئيس يتفقد إعدادات أجهزة التسجيل وقد وضع سمّاعةً على رأسه. أشار الجلاد إلى نقطة فسار أبو رئيس في اتجاه إشارته، سار بضعة أقدام فقط. كانا يحاولان توقع اتجاه سقوط رأس الرجل بعد أن يغادر كتفيه، ويريدان تحديد المكان الأفضل لوضع المايكروفونات.

وصل برويز إلى الرجل الراكع وانحنى لوضع قطعة القماش في فمه.

لا تزال شفتا الرجل تتحركان. لقد صارت الكلمات مفهومة الآن. إنه يتلو آية الكرسي. تلك الآية التي تعلمها برويز من جدته وتعلم أن يتلوها في أوقات الشدة. إنها الآية نفسها التي كان يتلوها هامسًا في طريقة عودته من السيارة إلى الرجل الراكع. رفع الرجل رأسه ونظر إليه. لن يتذكر برويز شيئًا من ملامح ذلك الرجل غير التعبير الذي رآه في عينيه.

صاح به أبو رئيس وهو ممسك بسمّاعته الرأسية: «تعال واستمع إلى هذا».

مد برويز يديه إلى السماعة، ثم تركهما تسقطان. فسأله أبو رئيس: «ما خطب يديك؟»

هز رأسه، ثم مد يده وأخذ السماعة من جديد. أفلح هذه المرة في وضعها على رأسه. نظر إليه أبو رئيس نظرة مستطلعة، ثم ناوله المايكروفون. كان الصوت الذي جاءه من السماعة صوت ارتجاف المايكروفون في يده. لقد صعدت الرعشة الآن حتى بلغت مرفقه.

قال للرجل: «لا أستطيع إيقاف هذا...» ثم أضاف: «أشعر بأنني لست على ما يرام».

أجابه أبو رئيس وهو يستدير مبتعدًا عنه: «اذهب واستلق بعض الوقت في السيارة».

فعل مثلما قيل له، فذهب إلى السيارة واستلقى على المقعد الخلفي بعد أن أغلق الأبواب، ثم راح يتخيل المشهد مرة بعد مرة: نصل السيف يشق الهواء نازلًا، ثم يشق اللحم والعظم فيتهاوى الجسد ويسقط الرأس متدحرجًا على الأرض إلى أن يتوقف. لا تزال العينان مفتوحتين... غير خائفتين، لكن فيهما اتهامًا كالذي رآه عندما نظر إليهما قبل قليل.

كم يلزم من الوقت من أجل قطع رأس رجل؟

عندما عاد أبو رئيس إلى السيارة أخيرًا، قال له برويز: «لا أعرف لماذا

جعل الله هذا يحدث لي؟ لقد كنت ثابت العزم، لكن يداي لم تستطيعا مواكبة عزمي. لا بد أنني أغضبت الله من غير أن أعرف».

حدجه أبو رئيس بنظرة طويلة متفحّصة عندما استنجد بإرادة الله لتفسير ضعفه وفشله. من الممكن أن يؤدي ظهور أي تراخٍ في الولاء إلى تجريد الرجل من مميزاته وإرساله إلى حفر الخنادق عند أطراف المدينة حيث يكون هدفًا سهلًا للقصف الجوي.

قال له أبو رئيس: «عليك بمواصلة الصلاة طيلة الليل عسى أن يغفر الله لك».

أجابه برويز: «سأفعل هذا».

ما كان واضحًا له إن كان هذا العراقي الكتوم قد صدّقه أو أنه لم يكن راغبًا في الاستغناء عن هذا العامل النشط لديه. من المستحيل في هذا المكان أن تستطيعَ التمييّز بين المؤمن الحقيقي والشخص الذي يتظاهر بالإيمان لجملة كبيرة من الأسباب المحتملة التي تتراوح من الخوف إلى الجشع. إن ثمنَ ترك قناعك يسقط عن وجهك هنا ثمن كبير إلى حد يمنع أي شخص من الإقدام على المغامرة بأي شيء.

ظل أيامًا كثيرة بعد ذلك يعمل في الاستوديو على التأثيرات الصوتية المرافقة لعمليات قطع الرؤوس والصلب والجَلد. كان هذا اختبارًا له وعقوبة في الوقت عينه. كان قادرًا على السيطرة على نفسه في الاستوديو لأنه يكون منعزلًا في ذلك المكان حيث لا أهمية لشيء غير ضبط التسجيلات الصوتية كما ينبغي... سحر اكتشاف الفرق بين صوت مسمار يخترق اللحمَ وصوت سيف يخترق جسدًا. كان بعض الرجال رجالًا في صرخات موتهم؛ وكان بعضهم حيوانات. أما هو، محمد بن باغرام، فقد صار الآن يعتبر نفسه واحدًا من تلك الحيوانات.

هذا ما جعله يمتنع عن الاتصال بها رغم أنهم أعادوا هاتفه إليه منذ

قبوله في الاستوديو فصار آخر الأمر قادرًا على الحديث معها من غير «مراقب» واقف ضمن مجال السمع. اكتفى برسائل نصية يرسلها إليها كل يوم حتى تعرف أنه لا يزال حيًا؛ ثم يقفل الهاتف بعد ذلك. صار الحديث على الهاتف أمرًا لا يتخيله أبدًا. ماذا كنت تفعل؟ وكيف كان نهارك؟ وكيف هي أحوالك؟

لكنه سجل الدخول إلى سكايب في يوم من أوائل شهر نيسان حتى يكتب إليها رسالته النصية اليومية القصيرة، فوجد أمامه رسالة منها. قالت الرسالة: اتصل بي. إنني أعمل على خطّة لإعادتك إلى البلاد.

إلى البلاد! إنه مكان من الماضي الذي أدار ظهره إليه... مكان ستحرص الاستخبارات البريطانية على عدم العودة إليه.

كتب لها: إنني بخير هنا.

فأجابت بكلمة واحدة: كاذب.

* * *

خرج من المقهى خافض الرأس وقد غيّر مشيته. ظل يراقب كل ما حوله بحثًا عن سيارة فاروق البيضاء. عبر سريعًا ببرج غلَطة ودخل شارع استقلال العريض المخصص للمشاة حيث وجد متجرًا للملابس يعرف منذ إن كان في لندن أن الملبوسات التي يبيعها مريحة. دخل واشترى بنطلونًا من الجينز الأزرق مع قميص رمادي قصير الكمَّين وقبعة رياضية سوداء عليها اسم تلك الشركة. ارتدى ملابسَه الجديدة في المحل وترك في غرفة التبديل تلك الملابس التي اشتراها قبل ساعتين فقط، ثم خرج إلى الشارع من جديد.

كان المحل التالي الذي دخله يبيع الهواتفَ الخليوية. لقد أخرج الشريحةَ من الهاتف القديم الذي يشبه قطعةَ القرميد، ثم كسرها تحسّبًا من أن تسمحَ بتحديد موقعه؛ إلا أن شراء شريحة جديدة يتطلب إبراز أوراق شخصية. أو يمكن... هكذا اكتشف... أن يقوم مقام تلك الأوراق

قسمٌ من حزمة النقود التركية الضخمة التي بقيت معه بعد كل ما اشتراه من متجر الإلكترونيات. وضع الشريحة الجديدة في قطعة القرميد وكتب لأنيقة رسالة نصية حتى يصير رقمه الجديد عندها فتتمكن من الاتصال به. سوف تقلع طائرتها بعد قليل.

جعله الانشغال بفعل شيء ما بدلًا من انتظار فاروق حتى يدخل المقهى ويجده يشعر بشيء من السيطرة على الموقف، ولو لفترة قصيرة. سار خليّ البال بضع دقائق بين جموع الناس وراح ينظر إلى الواجهات الأنيقة للمباني على امتداد الشارع. أغرته المكتبات بدخولها، وكذلك أغرته دارٌ للسينما، لكنه شعر أن من الأكثر أمانًا له أن يظل في الشارع بين الناس بحيث يكون لديه أكثرَ من اتجاه يستطيع الجري فيه عند الحاجة إلى الفرار. لمح من زاوية عينه كُمّ ثوب طويل أبيض فاستحالت ساقاه ماء قبل أن تنتقل نظرته من الذراع إلى وجه لا يعرفه.

جلس على درجة أمام واجهة أحد المتاجر. أغمض عينيه وأرغم نفسَه على تذكر الأغنية التي كانت تصدح في المطبخ يوم تحدثت معه أنيقة مازحةً عن مواقع الزواج الآسيوية، التشينتا، والغيتار الجهير، والدولاك، والدرامز، وصوت رجل يؤدي أغنية أكثر عمقًا من مجاري التاريخ. ضمَّ ركبتيه إلى صدره. كان قبالته طريقٌ ضيق يبدأ من الناحية الأخرى من الشارع. لو اجتاز هذا الشارع وسار في الطريق فسوف يبلغ القنصلية البريطانية. لعل عليه أن يفعل هذا الآن. لماذا ينتظر وصولَ أنيقة، ولماذا يُدخلها في هذا كله؟ يمكنه ببساطة أن يذهب إليهم ويقول لهم اسمه: لقد ارتكبت غلطة. وأنا مستعدٌ لمواجهة المحاكمة إن كنت قد خالفت القانون. لا أريد غيرَ العودة إلى لندن. لكنه كان إرهابيًا ابن إرهابي. أراح رأسَه على ركبتيه. ما كان يعرف كيف يتفلّت من مجاري التاريخ هذه، ولا كيف يحرر نفسَه من العفاريت التي جعلها بنفسه تتبعه في كل خطوة يخطوها.

* * *

ألقت طائرة الميغ حمولتَها المتفجرة على مقربة كافية لجعل النوافذ والأطباق في غرفة الطعام المشتركة في الاستوديو تهتز وتتراقص.

قال له أبو رئيس: «اذهب. أسرع! خذ هذه معك». ثم أخرج من جيبه آلةَ تسجيل من نوع (ZoomH2) لكن برويز كان قد نهض واقفًا بالفعل ومد يدَه إلى جيبه ليثبت أنه لم ينس أهم درس على الإطلاق: فليكن جهازَ التسجيل معك دائمًا... «جيد! اذهب الآن».

قاد برويز السيارة في اتجاه عمود الدخان، وكانت يده تضغط على بوق السيارة باستمرار لجعل السيارات الأخرى تبتعد عن الطريق. وقبل أن يبلغَ المكان الذي كانت كثافة الدخان فيه على أشدها (كان ذلك المكان سوقًا)، خفف من سرعة السيارة وأغلق جهازَ تكييف الهواء، ثم أنزل النوافذ حتى تدخل السيارة لفحة من هواء أيار الحار مصحوبة بأصوات المدينة. على امتداد مدينة الرقّة كلها كان زئير المولدات الكهربائية يوفر خارطة سمعية لأماكن معيشة أعضاء «الدولة» وعملهم؛ لكنه قد اعتاد الآن تمامًا حالة اللامساواة بين أهل المدينة وبين أولئك الذين يحكمونهم فلم يعد ينتبه إليه كثيرًا. وبعد وقت قصير، سمعَ صراخًا مرتفعًا متكررًا آتيًا من شارع ضيق إلى حد جعله يوقف سيارتَه عند الزاوية ويدخل الشارعَ ماشيًا على قدميه. رأى رجالًا واقفين عند تلك الزاوية، ظهورهم في اتجاه الطريق. كانوا كلهم من السكان المحليين الذين يعرفونَه بمجرّد النظر إلى ملامحه الأجنبية وثوبه الأبيض، فذلك كله يدل على أنه واحدٌ من أعضاء «الدولة». نظروا إليه. بدا له أن بعضَهم كان موشكًا على الكلام معه، لكنه تجاوزهم جميعًا. في هذه اللحظة، استطاعَ تمييز صوت امرأة تصرخ «أنجدوني».

لم يجد أحدًا في الشارع الضيق. وكانت المحلات الصغيرة فيه خالية أيضًا. جرى برويز عندما رأى جزءًا منهارًا من جدار، لكنه ما كان قادرًا على رؤية ما تحت الأنقاض. صرخ به صوتٌ حاد، ثم انفتح باب سيارة

نقل مغلقة صغيرة ظنَها خالية. كانت واحدة من السيارات التي صار يعرف الآن من الكتابة التي عليها أنها تابعة لجهاز الحسبة. خرج منها رجلٌ ليس أكبر سنًا من برويز إلا بقليل وتحدث إليه باللغة العربية أولًا، ثم بالإنجليزية عندما رأى أنه لم يفهم ما قاله بالعربية.

«لقد نزعت هذه المرأة عنها حجابَها. لا يمكنك الاقتراب أكثر منها. لقد استدعينا الكتيبة النسائية لإنقاذها». كان قد رفع يدَه إلى وجهه فحجب عن نظره الناحية التي كانت فيها تلك المرأة حتى لا تجعله حركة غير مقصودة من عضلة عينه ينظر إلى امرأة سافرة الوجه.

كانت المرأة تصرخ قائلة: «أرجوكم. أرجوكم، أرجوكم، ساعدوني».

آه، يا إلهي، إنه صوتٌ لندني. صوت امرأة شابة، لعلها في عمره، لعلها في عمر أنيقة.

«إذا ذهبنا إليها لإنقاذها، فمن المؤكد أن ذنبَ تلك الخطيئة أكبر من ذنب ترك أخت لنا تعاني».

«لقد حل بها العذاب لأنها كشفت عن وجهها».

«لعلها كانت مضطرةً إلى نزع حجابها حتى تصير قادرة على التنفس».

هل يمكنها سماعه؟ كان يتساءل في نفسه عندما رفعَ صوتَه بالكلام. هل يمكنها سماع لكنة لندن في صوته؟ لا تزال المرأة ماضية في صراخها: «أرجوكم، من فضلكم، ساعدوني... إنني أتألم». وبعد ذلك، سمع كلماتها التي فطرت قلبه... «ماما! ماما! إنني آسفة».

تذكر في تلك اللحظة ذراعَيْن ترفعانه عن الأرض عندما سقط عن سطح سقيفة الحديقة؛ تذكر خدًا لامس خده. إنها أمه. أو لعلها كانت عصمة! وهنالك الآن امرأة من غير حجاب لا تبعد إلا أمتارًا قليلة عنه، وجه امرأة، ونعومة خدها. قد تكون أسنانها متسوّسة، وقد يكون أنفها معوَجًّا؛ وقد تكون على وجهها بثور الجدري... لكنها تظل، رغم ذلك، أكثر ما في العالم سفورًا، وأكثر ما في العالم خطرًا!

«انتبه لنفسك يا أخي».

كان في وسعه قول أشياء كثيرة جدًا في تلك اللحظة تمامًا، لكن شيئًا واحدًا منها يمكن أن ينجيه من القتل: «جزاك الله خيرًا يا أخي. شكرًا لك على تقويم مسلكي، وعلى محافظتك على عفاف أختنا من أعين الغرباء».

أمسك الرجل بيده، ثم شد عليها: «هل أنت متزوج؟ لست متزوجًا! ينبغي أن تتزوج. سوف نجد لك زوجة. الحمد لله يا أخي».

أجابه: «الحمد لله»، ثم سحبَ يدَه من يد الرجل، لكن ليس أبكر مما يجب، ليس على نحو يجعل ذلك يبدو للرجل مسيئًا.

نادته من خلفه: «لا تذهب، أرجوك. من فضلك يا أخي. لماذا لا تريد مساعدتي؟»

آه، ليته كان أصمًا. احرمني نعمة السمع يا ربي! انزع من رأسي ذكرى ذلك الصوت!

ما الذي كان في وجهه فجعل الرجال الواقفين عند زاوية الشارع يتراجعون أمامه خائفين؟ إنه في التاسعة عشرة، لكنه مخيف لرجال أكبر منه كثيرًا... إنه «دولة الخلافة»!

سار إلى سيارته الكبيرة. وبعد أن صارَ داخلَ السيارة رفعَ نوافذَها التي تركها مفتوحة لعلمه أن ما من أحد يمكن أن يجرؤ على مس شيئ يخص رجلًا من أمثاله. كانت تلك هي الأشياء التي تعلم الآن أن يعتبرها أشياءَ مفروغًا منها... المزايا الصغيرة التي يتمتع بها. تمتم بدعاء، ثم سجّل الدخول إلى سكايب. كانت حالتها «يرجى عدم الإزعاج»، لكنه لم يكن مقصودًا بهذه العبارة في يوم من الأيام. لا بد أن يكون اتصالًا صوتيًا فقط، فمن الممكن أن ينظرَ أحدٌ من نافذة السيارة فيراه يكلم امرأة غير محجَّبة.

«برويز! الحمد لله. أوه، الحمد لله».

جاءَه ذلك الصوت، صوتها الذي لم يسمعه منذ زمن بعيد، فشقّه شقًا. أسند رأسَه على عجلة القيادة حتى لا يرى أحدٌ دموعه التي كان يظن أنها ما عادت قادرة على معرفة طريقها إلى عينيه.

«ما الذي حدث؟ هل أنت في مشكلة؟»

تلك الأشياء التي نسيها! كيف يكون إحساسك عندما تسمع صوتَ شخص يكلمك بحب؟

«لا، إنني فقط... لا يمكنني البقاء هنا. لا أستطيع هذا. لقد أخذوا مني جواز سفري... يجب أن أرحل، لكنني لا أستطيع. كنت أظن أنني، إذا تعلمت القواعدَ هنا... لكني لا أستطيع. لا أستطيع. لا أريد إلا العودةَ إلى البيت».

سمعها تتنفس الصعداء ففهم أنها كانت تنتظر لحظةَ الإقرار هذه منذ أن سافر، وفهم أن امتناعَه عن الإقرار طيلة هذا الزمن كله ما كان إلا طريقة أخرى لجعلها تتألم من أجله. بدأ يعتذر منها، لكنها قاطعته سريعًا واكتسب صوتها نبرة الاستعجال الطارئ التي تميز نساء أسرته، النبرة التي أحبها، النبرة التي اشتاق إليها، النبرة التي ما كان ينبغي أبدًا أن يبتعد عنها.

«عليك أن تذهب إلى اسطنبول. هل تستطيع ذلك؟»

«لست أدري. ربما أستطيع. نعم، أستطيع في آخر الأمر. عندما يثقون بك إلى الحد الكافي، فإنك تصيرين قادرة على الحصول على تصريح مرور إن كان لديك سبب وجيه لذلك».

«اعثر على سبب، ثم اذهب إلى القنصلية البريطانية وقل لهم أن يعطوك جواز سفر».

«أنيقة، أنا هو العدو. وأنت تعرفين ماذا يفعلونه بالعدو. ألا تعرفين هذا؟ هل تعرفين هذا؟ قلتِ لي إن لديك خطة. أخبريني عن خطتك، من فضلك».

«لن يحدث لك ما حدث لوالدنا».

«أنت لا تعرفين هذا».

«إنني أعملُ هنا على جعل الأمر مضمونًا».

«ما معنى هذا؟»

«سأشرحُ لك الأمر عندما أراك. هنالك أشياء لا يمكن شرحها إلا عند الحديث وجهًا لوجه. لكن عليك أن تثق بي».

«ما الذي تحاولين فعله؟»

«الأمر غريب! ظننت في البداية أنني أفعل شيئًا من أجلك. ثم اتضح أن ذلك الشيء يعجبني أيضًا. تذكر هذا عندما أشرحُ لك كلَ شيء. هل اتفقنا؟»

«يا إلهي، ماذا تفعلين؟ هل تضاجعين مدير الاستخبارات؟»

إنها متعة مضايقتها بالكلام، ومتعة معرفة أن ذلك الصوت لا يزال حيًا في حنجرته.

«أطبق فمك. عد إلى البيت».

«حسنٌ».

* * *

كان الرجل ذو اليدين المرتجفتين الجالس وحدَه عند عتبة أحد المتاجر بينما يتحرك الناس كلهم في شارع استقلال قد بدأ يلفت الأنظار. نهض واقفًا، ثم سار مسافةً قصيرة وعبَّر الشارع ليدخلَ متجرًا في واجهته كتبٌ وخرائط قديمة. رأى في الداخل رجلًا عجوزًا خلفَ طاولة البيع. رفعَ الرجل رأسَه فنظر إليه ثم أومأَ برأسه محييًا وعادَ إلى قراءة الصحيفة التي أمامه. كان في المكان هدوءٌ من النوع الذي يمكن أن يدعوه الناس «جوًا خاصًا». لكنه كان يعرف أن الأمرَ ناتجٌ عن السجّادة التي تمتص صوتَ الخطوات وعن الباب المغلق الذي يحجب الأصواتَ الآتية من الخارج، وكذلك عن الهمهمة الخفيضة الصادرة عن

مكيف الهواء. مضى إلى واجهة عرض الخرائط ذات الإطارات الخشبية والدروج الأربعة التي يحتوي كلٌ منها على عشرات الخرائط القديمة. «الإمبراطورية العثمانية» و«القسطنطينية» و«الترك في آسيا» و«آسيا الصغرى» و«مصر وقرطاج» و«مضائق الدردنيل» و«الخلافة العباسية في القرن التاسع الميلادي». كان يُقلب الخرائطَ بإحدى يديه بينما كانت اليد الأخرى قابضة على هاتفه القديم. يجب أن تكون أنيقة قد ردت على رسالته الآن. هنالك شيءٌ ليس على ما يرام عندها. لم يكن يعرف ذلك الشيء، لكنه شعرَ عندما اتصل بها من سيارة التاكسي المبتعدة سريعًا عن متجر الإلكترونيات وقال لها إنه في اسطنبول بأن صوتَها بدا غير مصدق أولَ الأمر، ثم بدا فيه شيءٌ من الضيق. لماذا لم تخبرني مسبقًا بأنك قادمٌ إلى اسطنبول؟ «لم أكن أريد أن يصيرَ لديك أمل كبير... تحسّبًا لفشلي في الوصول». اليوم... من بين الأيام كلها! «لماذا، ما الشيء الخاص في هذا اليوم تحديدًا؟». لا شيء. لا تهتم. سيكون كل شيء على ما يرام. اليوم مناسب. لم أتمكن من إنجاز الأمور كلها إلا الآن. سيكون كل شيء على ما يرام. «من الذي تحاولين إقناعه بهذا الكلام، أنا أم أنت؟ ما الذي يجري عندك؟» اسمع... يجب أن أتصل بشخص ما. سأعاود الاتصال بك.

لكنها كانت قلقة عندما اتصلت به بعد بضع دقائق، ولم تجب مباشرة على سؤاله عما إذا كانت قد نجحت في ترتيب ما كانت تحاول ترتيبَه. قال لها إن من الممكن أن تكون العودة إلى فاروق أكثر أمانًا له الآن؛ ولعله يقوم بمحاولة جديدة في وقت آخر. لا، ما عليك إلا الذهاب إلى القنصلية. «لا أستطيع. إنني خائف مما سيفعلونه بي». لا، انتظر، أعطني خمس دقائق فقط. سوف أعاودُ الاتصال. «لا، إذا كنت سأعود، فعليَّ أن أعودَ الآن من غير تأخير، قبل أن يدركَ فاروق أنني هربت». لا، لا، لا. لا تعد. إنني قادمة إليك. سوف آتيك في أول طائرة. جد لنفسك مكانًا

لا يمكنه العثور عليك فيه، وابق هناك إلى أن أصل. سوف نذهب إلى القنصلية معًا.

لم يستطع في تلك اللحظة أن يفكرَ في شيء غير أنه، على الأقل، سيراها. مهما فعلوا به عندما يصل إلى القنصلية، فسوف يكون قد رآها أولًا. يمكنه تحمل أي شيء آخر شريطة أن يكون قد رآها أولًا.

انفتحت في عقله مساحة وضوح صغيرة. بالطبع... لن يسمحوا لها بالصعود إلى طائرة ذاهبة إلى ذلك المكان نفسه الذي ذهب إليه شقيقها التوأم ثم اختفى في عالم الأعداء. لعلها لا تزال الآن تجادلهم في هذا رافضة مغادرة المطار إلى أن يعطوها بطاقة الصعود إلى الطائرة. كان صوت عصمة في رأسه يقول له إنه أناني غير مسؤول... إنها محقة!

كتب لها: لست مضطرة إلى القدوم إلى اسطنبول لكي تمسكي بيدي، سوف أكون بخير. أنا ذاهب إلى القنصلية الآن. وسوف أكون في البيت عما قريب... أريد أن آكل الأرز بالبرياني عندما أصل. الوصفة موجودة في صفحة مئة وواحد وثلاثون من كتاب الطبخ.

ضغط على زر الإرسال بيد ثابتة.

***

في نهاية المطاف، كان فاروق هو وسيلته للهرب. لقد أتى في عصر أحد الأيام إلى الفيللا التي تضم استوديو الصوت، فأمسك ببرويز من رقبته لحظةَ نهوضه عن سجادة الصلاة في الشرفة المسقوفة، ثم قبّله من رأسه بقوة.

قال له: «لقد كبر مقاتلي الصغير. هل لديك استراحة غداء؟»

كان أبو رئيس يصلي إلى جوار برويز. انتهى من صلاته فنقر على ذراع فاروق وقال له: «من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟»

أجابه فاروق: «إنني مقاتل...» ثم شد كتفيه ونفخ صدره بتلك الطريقة

التي كانت تفتن لب برويز ذات يوم لكنه رآها اليوم حركةً سخيفة... «وأنا كفيل هذا الشاب».

بدا أبو رئيس غير مهتم بهذا مثلما يبدو إزاء أي حديث يُفهم منه أن لمن يعملون تحت أمرته حياةً خارج حياتهم في الاستوديو. كان كل ما قاله: «لا يزال الوقت مبكرًا لاستراحة الغداء».

قال له فاروق بنبرة حاول بها إظهار أهميته: «إنني مسافر بعد قليل. سوف أجلب غدًا متطوعين جدد من اسطنبول...» ثم نظر إلى برويز وقال له... «لقد صار أبناء عمي بارعين في هذا».

أرغم برويز وجهه على الظهور بمظهر الاستحسان. قبل بضعة أسابيع، عندما كانوا يأكلون الكباب في مطعم مشرف على نهر الفرات، أكد الاسكوتلندي ما كان برويز يعرفُه بالفعل، لكن نصف معرفة: عندما التقيا، كان فاروق في لندن من أجل تدريب أبناء عمه على تجنيد أشخاص جدد. ثم ظهر برويز في تلك اللحظة فاستخدمه كما لو أنه واحدٌ من الخنازير الغينية[1]. لم يقل الاسكوتلندي «خنازير غينية» في الحقيقة. كان يعتبر كلمة «خنازير» محرَّمة لا يجوز أن تنطقَها شفتاه. إلا أنه وجد طريقةً للتعبير عن الأمر مفادها أن برويز كان أداةً لتنفيذ مشيئة الله. كما استنتجَ من حالة فاروق الآن أن تلك المعرفة التي جاءته من الاسكوتلندي كانت أيضًا شيئًا متوقَّعًا عند فاروق. تخيل برويز أنه يغرس سيفًا في رقبة فاروق، وتخيل سماع غرغرة الدم المتدفق منها.

أجابه أبو رئيس مشيرًا بإبهامه إلى برويز: «خذه معك، إنني في حاجة إلى بعض المعدات من أجل الاستوديو».

سأله فاروق بنبرة متشككة وهو ينظر إلى ساعة يده: «سآخذه إذا كنت قادرًا على تدبير إذن مرور في الوقت المناسب قبل ذهابي».

---

(1) تستخدم الخنازير الغينية في التجارب العلمية، مثلما تستخدم الفئران.

أجابه أبو رئيس: «طبعًا، أستطيع هذا».

الأمر بهذه السهولة!

* * *

وقف على رصيف شارع المشروطية وراح ينظر إلى الجدار القرميدي ذي القضبان المعدنية المدببة المرتفعة منه. لم يكن الجدار يسمح برؤية شيء غير لمحة جزئية من واجهة مبنى القنصلية البريطانية. لكن الجدارَ لم يحجب عنه العلم الملوَّن بالأحمر والأبيض والأزرق مرفرفًا عند حافة السطح بألوانه البهيجة. إنه مو فرح[1] في الألعاب الأولمبية، وعلبة الحلوى المعدنية التذكارية لدى العمة نسيم، تلك العلبة التي صُنعت بمناسبة اليوبيل الذهبي للملكة.

إنه لندن. إنه البيت.

---

(1) مو فرح (السير محمد مختار فرح). أبرز عداء مسافات طويلة بريطاني على الإطلاق.

أنيقة

الفصل السابع

- 1 -

تلك إمكانيةٌ لم يكن عقلها قادرًا على استيعابها. كل شخص آخر في العالم، نعم. كل شخص آخر في العالم، لا مفر! كان ذهاب بعضهم على مراحل: جدُّهم الذي ظل عدةَ أسابيع نصف مشلول غير قادر على الكلام وصار صوت تنفسه غريبًا. وبعضهم مثل هزيم رعد مفاجئ: أمهم التي سقطت ميتةً على الأرض في مكتب السفريات حيث كانت تشتغل وتركت فنجانَ الشاي الصباحي مع بقعة من أحمر شفاهها على حافّته. ظل ذلك الفنجان محفوظًا إلى أن جاء يوم أمسك به أحد الشقيقين التوأمين في نوبة غضب... أمسك به من مقبضه، ثم حطم فم أمهم (كانت أنيقة واثقة من أنها هي من فعل هذا؛ وكان برويز مصرًّا على أنه صاحب تلك الفعلة). وكان «ذهاب» بعض منهم كأنه خدعة غير متوقَّعة: جدتهم التي انتظرت نتائجَ التحليلات الطبية التي كانوا قد قرروا بالفعل أنها ستمثل نوعًا من شهادة وفاة لها كأنها تجتاز الشارعَ لحظةَ انعطاف سائق سيارة سكران بسرعة أكثر مما ينبغي. اتصل الطبيب بعد أسبوعين وزفَّ لهم أخبارًا طيبة: قال إن الورمَ كان حميدًا. وأما ذهاب بعضهم الآخر فيكادَ يكون شيئًا مجردًا، لا أكثر: أبوهم الذي لم يكن له أبدًا أيّ حضور حيّ في حياتهم، ثم مات قبل سنين من معرفتهم كيف يربطون

بين هذا الرجل وكلمة «أب». مات الجميع، ماتوا كلهم، عدا التوأمين اللذين كان كلٌ منهما يكفيه أن ينظرَ إلى الآخر حتى يفهم حزنه هو.

كان الأسى يُظهر نفسَه بطرق يمكن أن يبدو معها أي شيء، إلا الأسى. طمس الأسى المشاعر كلها إلّا الأسى. جعل الأسى التوأمين يرتديان القميص نفسه أيامًا طويلة للمحافظة على ذكرى ذلك الصباح الذي كان الموتى فيه لا يزالون على قيد الحياة. جعل الأسى أحد التوأمين ينتزع نجومًا من السقف ويستلقي في السرير وقد التصقت بأظافره نقطٌ لامعة متألقة. كان الأسى رديء الطبع، وكان الأسى لطيفًا. لم ير الأسى شيئًا غير نفسه. وكان الأسى يرى كل ذرة ألمٍ في هذا العالم. فتح الأسى جناحيه متسعين كأنه نسر، وتكوّر الأسى على نفسه فصار صغيرًا كالنيص.[1] كان الأسى في حاجة إلى صحبة، وكان الأسى توّاقًا إلى الوحدة. أراد الأسى النسيان، أراد الأسى أن يتذكر، وأراد الأسى أن ينسى. كان الأسى يرعد حانقًا، وكان الأسى ينوح ضعيفًا. جعل الأسى الزمن ينضغط ويتقلص، كان طعم الأسى كطعم الجوع. كان مثل الخَدَر، وكان مثل الصمت. كان طعم الأسى مرًا كالعلقم، وكان جارحًا كأنصال السيوف، وكان صوته مثل ضجيج العالم كله. كان الأسى متغيرَ الهيئة، وكان خفيًّا أيضًا. كان يمكن للأسى أن يُرى على هيئة انعكاس في عين أحد التوأمين. سمعَ الأسى حكمَ الموت الصادر في حقه صبيحة استيقظتما معا فراح أحدكما يغني، والتقط الآخر نغمةَ الأغنية فانضم إليه.

عندما تلقّت الكلمات التي جعلتها وحيدة، مفردة، لأول مرة في حياتها كلها، ما كان منها إلا أن دفعت بتلك الأنباء عنها، أزاحتها جانبًا. كان ذلك غير صحيح. كانت الأخبار تخص شخصًا آخر... ليس هو. فأين هو الدليل؟ آتوا به إليّ. لا، لا يمكنهم فعل هذه الأشياء لأنه ليس

(1) النيص أو الشيهم حيوان صغير من القوارض له أشواك كأشواك القنفذ.

هو المقصود بالأمر كله. لو كان هو، لما كان هذا الرجل جالسًا في غرفة المعيشة في بيت العمة نسيم، لما كان آتيًا بهذا الخبر، لما كان مشطٌ بلاستيكي بارزًا من جيب الصدر في سترته. لم يكن واحدًا منكم... هكذا قالت للرجل... نحن لسنا منكم. ثم تركته في الطابق السفلي وصعدت إلى غرفتها لكي تتابع الدراسة التي أهملتها منذ أن اتصل بها أخوها في وقت سابق من ذلك اليوم. لا بد أنه الآن غاضب لأنها لم تأتِ إليه رغم وعدها بأنها آتية. أقفلت باب غرفتها في وجه العمة نسيم التي راحت تقرعه ملحة. لم تكن الغلطة غلطتها: لم يسمحوا لها بالمرور في المطار. لقد قالوا: هذا من أجل سلامتك. ثم أخذوا منها جواز سفرها ورفضوا أن يقولوا لها متى يمكن أن تستعيده. أو، لا... إنه ليس غاضبًا. إنه في الطريق إليها الآن، لكن الرسائل النصية التي أرسلها لا تزال عالقة في مكان ما في شبكة إنترنت عالمية. يحدث هذا أحيانًا، تغص الاتصالات أحيانًا فتظل ساعات أو أيامًا غير قادرة على اجتياز الحدود، ثم يهتز الهاتف عندما يأتي طوفان منها، عندما تأتي ثلاث نسخ من كل رسالة. لقد حدث هذا مع عمتها التي كانت تكتب لها من كراتشي رسائلَ تسألها فيها: أين هو؟ متى يأتي؟ يمكنه، على الأقل، أن يتصلَ بي ليوضح لي الأمر! ألا يعلّمونكم حسن السلوك في إنكلترا؟ إنه في طريقه إليها، إنه الآن طائرٌ إلى البيت، ينظر إلى النجوم من نافذته فيرى كاستور وبولكس،[1] نجمَيْ الجوزاء، يرى أيديهما متماسكة عبر ذلك الليل البارد المظلم.

غرقت في النوم؛ وفي لحظة ما، كانت هناك ذراعان تحتضنانها بتلك الطريقة المألوفة منذ الطفولة. ما كانت هذه مفاجأة، بل كانت مسرّة لها أن تتكور في دفء توأمها وتنزلق أعمق فأعمق في تلك السوية من النوم التي لا تستطيع الكوابيس بلوغها... هناك، حيث تنام متمسكة بالحب... حبٌّ بطعم الجنّة.

---

(1) – النجمان الأكبر (التوأمان) في كوكبة الجوزاء.

- 2 -

كان الضياء الذي صافحَ عينيها.. ضياء شمس صباح متأخر. انقلبت في سريرها. كان النوم لا يزال مثقلًا على جسدها، وكذلك الترقّب. لم تجد أحدًا إلى جانبها، لم تجد شيئًا غير تقعّر في الوسادة. نهضت من سريرها ونزلت إلى الأسفل، نزلت إلى أصوات العمة نسيم وابنتيها وصهريها. لم يذهب أحدٌ منهم إلى العمل بل جاؤوا لكي يرحّبوا بعودة الفتى الذي كان يحملون غيبتَه سرًا طيلةَ ستة أشهر كاملة ظل الجميع خلالها معتقدين أنه في كراتشي. بل إن كليم باي (زوج ابنة العمة نسيم الأكبر) أعطى أنيقة الهاتف الذي يستخدمه عادة في سفراته إلى باكستان حتى تتمكن من كتابة رسائل نصية ترسلها من وقت لآخر باسم برويز إلى أصدقائه بحيث تبدو كأنها آتية من هناك: «اشتقت إلى البلاد، لكني لست مشتاقًا إلى طقسها»؛ «تبدو الجِمال هنا شديدة الثقة بنفسها لأنها غير قادرة على الهرب من رائحتها»؛ «يؤسفني أنني باقٍ بعيدًا عن طاحونة الحياة عندكم، فأنا أستكشف الآن مقدارَ ما في داخلي من تقشّف». كان كليم باي قد قال لها: «سوف يَكتشف الأمرَ أحدٌ ما في آخر المطاف»؛ لكنها كانت تعرف منذ البداية أن أخاها لن يغيبَ طويلًا، لن تطولَ غيبتَه أبدًا.

لكن، لماذا تتقرّب عصمة منها الآن؟... كاذبة، خائنة، لكن من الممكن الآن مسامحتها بعد أن صار برويز في البيت. حتى إذا كانت الحال هكذا، فلماذا تحتضنها عصمة بهذه الطريقة المألوفة، بهذه الطريقة الأُسَرية؟ ولماذا هذا الوجه الذي تعرفه جيدًا جدًا، هذا الوجه الذي قال ماما ماتت، بابا مات، لماذا هو صوتها مثقلٌ بالدموع، ولماذا

تقول «أتيت بأول طيارة بعد أن اتصلت بي العمة نسيم»، و«سوف أكون لكِ دائمًا وتكونين لي دائمًا» مع أن عصمة لم تكن «دائمًا» أبدًا؟ كلمة دائمًا ممتدة إلى الأمام وإلى الخلف، من الرحم إلى القبر... دائمًا... هو برويز وحده.

ولماذا عاد، ذلك الرجل ذو المشط البلاستيكي البارز من جيبه، ممثل المفوَّضية الباكستانية العليا؟[1] لماذا رفع يديه عندما دخلت الغرفة معتذرًا عما حدثَ يوم أمس رغم أن عليه الاعتذار عن مجيئه نفسه، عن مجيئه إليهم بحزن ناس آخرين؟... لكنه الآن يعتذر لأنه لم يرفع يديه باسطًا كفَّيه ولم يقل إنّا لله وإن إليه راجعون.

قالت للرجل: «لا. أنت تخلط بينه وبين شخص آخر. إنه مواطنٌ بريطاني. هذا يعني أن لا علاقة له بكم».

«إنني آسف»، قالها الرجل بائسًا وهو ينظر إلى عصمة التي كانت ممسكة بيد أنيقة كما لو أن إحداهن طفلة في حاجة إلى من يساعدها في عبور الشارع... «من الواضح أنكم أسرة طيبة تقية. أنتم لا تستحقونَ هذه المعاملة من جانب حكومتكم. إن وزيرَ الداخلية هذا يحاول إثباتَ وجهة نظره في ما يتعلق بالمسلمين، أليس كذلك؟»

كان ذهنها شديد الانشغال باتصال برويز الذي تأخرَ فلم تنتبه إلى أن إيمون لم يتصل بها كما وعدها.

(1) - المفوضية الباكستانية العليا في لندن هي الممثلية الدبلوماسية لدولة باكستان.

- 3 -

[ترجمة خبر]

أكدت الحكومة التركية هذا الصباح أن الرجل الذي قتلَ بإطلاق نار من سيارة على مقربة من القنصلية البريطانية في اسطنبول يوم أمس هو برويز باشا المولود في ويمبلي. وهو آخر شخص في سلسلة المسلمينَ القادمين من بريطانيا للانضمام إلى دولة العراق والشام الإسلامية. كان جهاز الاستخبارات على علم بأن باشا عبَّر الحدود إلى سورية في كانون الأول الماضي، لكنه لا يمتلك حتى الآن أيّ معلومات عن السبب الذي جعله يذهب إلى القنصلية البريطانية. لم يُستبعد بعد احتمال محاولة القيام بهجوم إرهابي. ولم يجرِ التعرف على هوية الرجل الذي أطلق النار على باشا من سيارة بيضاء رباعية الدفع؛ إلا أن المحللينَ الأمنيين يطرحون فكرةَ أنه قد يكون منتميًا إلى جماعة جهادية منافسة.

وقبل دقائق فقط، تحدث وزير الداخلية مع مراسلنا السياسي نِك ريبونز حول قضية برويز باشا.

- صارت الآن لدينا حالة جديدة من حالات المواطنينَ البريطانيين الذين...

- سوف أقاطعك هنا يا نِك. كما تعلم، في يوم تقلّدي هذا المنصب، أسقطت الجنسية البريطانية عن كل أصحاب الجنسية المزدوجة الذين غادروا بريطانيا للانضمام إلى أعدائنا. كان سلَفي يستخدم هذه السلطات على نحو انتقائي. وقد كررت مرارًا القول بأنه كان مخطئًا.

- وهل كان برويز باشا ممن يحملون جنسية مزدوجة؟

- هذا صحيح. كان يحمل الجنسيتين البريطانية والباكستانية.

- إذا تحدثنا من الناحية العملية، فهل لهذا الإجراء أيّ أهمية الآن بعد أن مات؟

- سوف يجري نقل جثته إلى بلده الأم، باكستان.

- ألن يدفن هنا؟

- لا. لن نسمحَ لأولئك الذين انقلبوا ضد أرض بريطانيا في حياتهم بأن يدنّسوا هذه الأرض بعد موتهم.

- هل جرى إخبار عائلته في لندن؟

- هذا أمرٌ يخص المفوَّضية الباكستانية. اعذرني يا نِك، وقتي لا يتسع لأكثر من هذا.

- 4 -

وسومات بدأت تشيع الآن:

#قطيع الذئاب

#برويز باشا

#لا تدنسوا أرضنا

#عودوا من حيث أتيتم

- 5 -

المطبخ ممتلئٌ بطعام معدٍّ لمعزّين لم يأتوا.

وحدها غلاديس اتصلت. كانت ابنتها قد أتت إليها بعد الظهر لتضعها في السيارة وتأخذها إلى هاستينغز حيث من المفترض أن تلازم البيت إلى أن تكفّ وسائل الإعلام عن تكرار مشهد المرأة التي ساحت الماسكارا على خديها وهي واقفةٌ تقول أمام الكاميرات: «لقد كان ولدًا جميلًا لطيفًا. لا تحاولوا أن تقولوا لي من كان. أعرفه منذ يوم ولادته. عارٌ عليك أيها السيد وزير الداخلية. عارٌ عليك! أعطنا ولدنا لكي ندفنه. أعط أمه ابنها ليكون رفيقًا لها في قبرها».

– 6 –

تويتر.

(@gladysinraqqa) غلاديس في الرقّة.

التغريدات 2؛ المتابعات: 0؛ المتابعون 2452.

أوه، ما أجملَ هؤلاء الشباب. دعوني أرفع حجابي حتى أراهم بشكل أفضل أوه، إنني أُصلَب بلطف.

هيا يا شباب، انظروا إليّ. أنا قادرةٌ على فعل أشياء لا تعرف هاتيه العذارى الاثنتان والسبعون أي شيء عنها. لعل هذه ليست الجنة!

ما كان هذا؟ ليس أسى! الأسى تعرفه. الأسى كان أخاهم غير الشقيق الذي نشأوا معه، أخاهم غير المرغوب فيه، أخاهم الذي لا يمكن تجنّبه. الأسى هو السائل الأمينوسي[1] المحيط بحياتهم. إنها قادرة على النظر في عيني الأسى عندما ينظر توأمها من فوق كتفه ويخبرها عن العالم الواقع من خلفه. بدّل الأسى شكلَه حتى يصير متفقًا مع تفاصيل شكلك... حتى يغلفكِ كأنه جلد ثانٍ تعلمتِ آخر الأمر كيف ترتدينه وتستأنفين حياتك. الأسى هو اتفاقٌ بين الرب وملاك الموت الذي أراد أن يفصل الأحياء عن الموتى نهرٌ يستحيل عبورَه؛ والأسى هو الجسر الذي يسمح للموتى بأن يتحركوا سرًا بين الأحياء، ويكون وقع خطاهم مسموعًا في الأعلى، وتكون ضحكاتهم خلفَ الزاوية وهيئات أجسادهم في أجساد أشخاص غرباء قد يتبعهم المرء في الشارع راجيًا ألّا يلتفتوا أبدًا. الأسى هو ما أنتِ مدينةٌ به للموتى جزاءَ جريمتك الضرورية، جريمة البقاء حيّة من غيرهم. لكن هذا لم يكن أسى. لم يلتصق بها، بل سلخها سلخًا. لم يغلّفها الأسى، بل تسرّب إلى مسامها وملأها حتى الانتفاخ، حتى ما عادت تعرف نفسها. ما كانت تسمع خطوات أخيها، وما كانت تسمع ضحكه، وما عادت تعرف كيف تحني رأسها وتمشي مثل مشيته، وما عادت قادرة على النظر في المرآة ورؤية عينيه تنظران إليها.

هذا لم يكن أسى! كان غضَبًا. كان هذا غضبه، غضب الفتى الذي اعتادَ أن يبيحَ لنفسه كل عاطفة إلا الغضب. هكذا، كان هذا الجانب غير المألوف فيه، الجانب الذي ما عاد الآن يكشف لها عن غيره، الجانب

(1) سائل الأمينوس هو السائل المحيط بالجنين في الرحم.

الذي لم يبقَ لها منه غيره. كانت تحتضن هذا الغضب إلى صدرها، كانت تُرضِعه وتداعب لبدته وتناجيه بهمسات الحب تحت سماء من غير نجوم؛ وكانت تسنّ أسنانَها بمخالبه اللامعة.

- 8 -

الشرطة هنا. دفاتر تسجيل الملاحظات مفتوحة، ومسجّلات الصوت في اليد. استقبلتهم عصمة شاكرةً لهم لأنهم لم يصرّوا على أخذ أقوالهما في مقر سكوتلنديارد.

«لماذا لا تدَعوه يعود إلى البلاد؟ لقد أراد أن يأتي، وكان يحاول العودة».

ليسوا هناك للحديث عن برويز، بل هم من اختصاصيي الحماية في قسم الحراسات؛ وهم من العناصر المكلَّفين بحماية وزير الداخلية.

«أوه، الأمر متعلق بإيمون إذن!»

كانت عصمة قد حملت الإبريقَ حتى تصبّ الشاي لرجال الشرطة فبدت كأنها نست ما كانت تريد فعله. ظلت حاملةً ذلك الإبريق من غير حركة ولم ترفعه عن الطاولة أكثر من سنتيمترات قليلة. راحت تنظر إلى أختها واللون يصعد من حلقها إلى وجهها.

«كنت معه لأنني ظننته قادرًا على المساعدة. اسألوه وسوف يقول لكم. أردت أن يتمكنَ أخي من العودة إلى البلاد. وهذا كل ما أريده الآن. لماذا أحتفظ بالأمر سرًا؟ لماذا تظنني أحتفظ بالأمر سرًا؟ هذا بسبب رجال مثلكم معهم دفاتر ملاحظات ومسجّلات صوت. هذا لأنني أردت أن يصير إيمون راغبًا في فعل أي شيء من أجلي قبل أن أطلبَ منه فعل أي شيء من أجل أخي. فلماذا لا أقرّ بالأمر الآن؟ ما الذي يمكن أن يوقفكم إذا أردتم مساعدة من تحبونَهم أكثر من كل الناس؟ حسنٌ، من الواضح أنكم لا تحبون أحدًا حبًا شديدًا إذا كان حبُكم مشروطًا بأن يظلَ كما هو ولا يتغير». نظرت إلى عصمة التي وضعت إبريقَ الشاي من غير

أن تسكب منه شيئًا بل راحت تحدق فيها. صارت الآن تشك في شيء لم يخطر في بالها من قبل. كيف كان يمكن أن تشعرَ تجاه هذا الأمر لو أن هنالك حيّزًا باقيًا من أجل أية مشاعر أخرى؟

«لا حاجةَ إلى أيّ تحذير من هذا النوع. أيةُ فائدة يمكن أن أجنيها من اتصالي به الآن؟»

بعد ذهابهم، ظلت لديها عصمة... عصمة المجروحة الفزعة. «لا تنظري إليَّ هكذا! لو أعجبك لفعلت ذلك بنفسك. لماذا لم تحبي أخانا حبًا كافيًا لجعلك تفعلين هذا بنفسك؟»

- 9 -

«أنيقة، هل يمكنني المجيء إليك؟»

«لماذا؟ لا أريد رؤيتكِ؛ وقد صرت الآن لا تريدين رؤيتي أيضًا... بعد أن عرفتِ بأمر إيمون».

«أنتِ الفرد الوحيد الباقي لي من الأسرة. لا شيءَ أهم من هذا».

«ما هذه الأصوات؟»

«إنهم عمال النقل يحزمون المتاع في الداخل».

«هل ذهبوا؟ المهاجرون؟»

«نعم. لا تزال لدينا ستائرهم غالية الثمن وغلّاياتهم الكهربائية ذات المراحل الأربع، وذلك مقابل إيجار الشهر المقبل».

«أنت تلومينه، أليس كذلك؟ تلومينه لأنه السبب في خسارتك هؤلاء المستأجرين الذين يدفعون جيدًا».

«كفّي عن التصرف كما لو أنكِ الوحيدة التي تحطَّم قلبَها. لقد كان طفلي».

«وماذا عن إيمون؟ ماذا كان بالنسبة إليك؟»

«أظنك مهتمة بأمره أكثر من أمر برويز».

«لماذا تريدين أن تكوني جارحة هكذا؟ لقد كان خمس دقائق في حياتي. أما أنتما الاثنان فكنتما حياتي كلها. إنني صاعدة إليكِ».

«لم تصعدي أبدًا عندما كان يجلس هنا».

«تحركي قليلًا، من فضلك».

«لا أظنه راغبًا في وجودكِ هنا».

«لقد صار الآن ما وراء الرغبات كلها».

«لا أريدك هنا. لقد خنته».

«ليس هذا سبب موته. ولا علاقةَ لهذا بما جعله يموت. عليك أن تسامحيني. أرجوك، إنني آسفة. سامحيني».

«هل أنت مؤمنة بالجنة والنار؟»

«إنني مؤمنة بهما من حيث هما مثلَين لنا. لا يمكن أن يحكمَ الربُّ الرحيم بالعذاب الأبدي على أحد من خلائقه».

«فماذا يحدث بعد الموت؟»

«لا أدري. يحدث شيءٌ ما».

«أعرف أن أمواتَنا يراقبوننا. إنهم يحاولونَ التحدثَ معي اليوم، يحاولونَ إخباريّ عما أستطيع فعلَه من أجلك».

«لا شيء. لا شيءَ تفعلينه من أجلي».

«ما الذي أنت مستعدة لفعله من أجله؟»

«إنني أدعو له. أدعو لروحه».

«وماذا عن جسده؟»

«ليس الجسد إلا غلافًا، قوقعة».

«ضعي قوقعةً بحرية على أذنك، وسوف تسمعينَ صوتَ المحيط الذي أتت منه».

«مممم. إذن، ماذا يحدث بعد الموت، في رأيك؟»

«أنا لا أعرف الأشياءَ التي تعرفينها. الحياة والموت والجنة والنار والله والروح. لا أعرف إلا برويز».

«ما الذي يريده برويز؟»

«يريد العودةَ إلى البلاد. يريدني أن أعيدَه، حتى بعد أن صارَ قوقعة».

«لستِ قادرة على هذا».

«ليس هذا سببًا كافيًا للامتناع عن المحاولة».

«كيف؟»

«وهل تساعدينني؟»

«لماذا لا تستطيعين أبدًا أن تفهمي الوضعَ الذي نحن فيه؟ نحن غير قادرتَيْن حتى على قول تلك الأشياء التي قالتها غلاديس. ليس لدينا حتى هذا القدر من الحرية. تذكريه في قلبك، وتذكريه بالدعاء، مثلما كانت جدتنا تتذكر ابنَها الوحيد. عودي إلى جامعتك، وتابعي دراسةَ القانون. اقبَلي القانون حتى عندما ترين أنه غير منصف».

«إذا كنت قادرة على قول هذا الكلام، فهذا يعني أنك لا تحبينَ العدالة ولا تحبين أخانا».

«لا بأس، أحبك أنت، أحبك إلى حد يجعلني غير قادرة على رؤية شيء آخر في هذه اللحظة».

«لن ينفعني حبك في شيء إذا كنت لا تريدين مساعدتي».

«لا نفعَ من حبك له الآن بعد أن مات».

«ابتعدي عن هذه السقيفة. صوتكِ لا ينتمي إلى هذا المكان».

«أنيقة، إنني في حاجة إلى أختي. كيف يمكن لأي منا أن تحتمل هذا الألم إن كانت وحدَها».

يد عصمة تحاول أن تمسِّد شعرَها، تحاول إبعادَها عن برويز.

«اذهبي».

— 10 —

«محطمة مذعورة»: أخت برويز باشا تتكلم

في وقت مبكر من هذا الصباح، قرأت عصمة باشا بيانًا على الصحفيين أمام بيت عائلتها في ويمبلي. تبلغ عصمة ثمانية وعشرين عامًا من العمر، وهي شقيقة الإرهابي المولود في لندن برويز باشا الذي قتل في اسطنبول يوم الاثنين. وقد قالت في بيانها: «شعرنا أنا وأختي بأننا محطَّمتان مذعورتان عندما سمعنا العام الماضي أن أخانا برويز قد ذهب للانضمام إلى من نعتبرهم أعداء لكل من بريطانيا والإسلام. لقد أبلغنا إدارة مكافحة الإرهاب على الفور؛ وهذا ما أعلنت عنه مسؤولة الإدارة جانيت ستيفنز. نود أن نشكر المفوضية الباكستانية العليا في تركيا على ما تبذله من جهد لإرسال جثمان أخينا إلى باكستان حيث سيعمل أقارب لنا هناك على ترتيب أمر دفنه، وذلك كنوع من الوفاء للمرحومة أمّنا. أما أنا وأختي، فلسنا نعتزم السفر إلى باكستان لحضور الجنازة».

كما أصدر المسجد المحلي في منطقة حي برويز باشا بيانًا يوضح فيه أنه لن يقيم صلاة الغائب على روح ذلك الرجل الذي مات، ويشجب الشائعات التي قالت عكس ذلك باعتبارها «جزءًا من حملة كراهية ضد المسلمين البريطانيين الملتزمين بالقانون».

لا تزال جثة برويز باشا في مشرحة في اسطنبول. تقول مصادر هناك إن من الممكن أن تمرَّ أيام كثيرة قبل الإفراج عن الجثة لنقلها إلى باكستان. وتقول الشرطة في اسطنبول إن القتيل لم يكن يحمل أي سلاح لحظة مقتله. وأما الأسباب التي جعلته يذهب إلى القنصلية البريطانية التي قتل أمامها فلا تزال غير معروفة؛ ولا تزال غير معروفة أيضًا هوية الشخص الذي قتله (وصفه شهود عيان أنه ذكر آسيوي في الثلاثينيات

من العمر). وتقول جانيت ستيفنز، مسؤولة إدارة مكافحة الإرهاب إن برويز باشا كان منضمًّا إلى الجناح الإعلامي لدى «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وهو الجهاز المسؤول عن تجنيد المقاتلين وكذلك النساء اللواتي يطلقون عليهن اسم «العرائس الجهاديات». وقد تحدثتْ للمراسلين الصحفيين أم بشير حق التي تعيش في منطقة تاور هاملتس، وقد سافرت ابنتها رومانا إلى سورية في شهر كانون الثاني لكي تصير زوجة لأحد مقاتلي داعش هناك وقالت: «لقد غرروا بابنتي لكي تذهب إليهم، وذلك عن طريق الأكاذيب والدعاية التي يبثها رجال من أمثال برويز باشا. اعتراضي الوحيد على قرار وزير الداخلية هو أنه يحرمني من فرصة البصق على قبر ذلك الإرهابي».

وتقول مصادر في وزارة الداخلية إن قانون الهجرة الذي من المقرر أن يُعرض على البرلمان في جلسته المقبلة سوف يشتمل على مادة جديدة تجعل من الممكن تجريد أي حامل جواز سفر بريطاني من الجنسية البريطانية إذا قام بأفعال ضد المصالح الحيوية للمملكة المتحدة. أما بموجب القوانين الحالية، فليس من الممكن إسقاط الجنسية إلا عن أصحاب الجنسية المزدوجة، أو مَنْ اكتسبوا الجنسية البريطانية اكتسابًا ولا تزال لديهم جنسية أخرى. لقد أعلن وزير الخارجية تكرارًا عن توسيع نطاق ما قاله سَلَفه من أن «الجنسية مزية، وليست حقًا» ليقول: «الجنسية مزية وليست حقًا يُكتسَب بالولادة». وقد أصدرت مجموعة حملة حقوق الإنسان التي تطلق على نفسها اسم «ليبرتي» بيانًا قالت فيه: «إن إلغاء الحق في أن تكون للمرء حقوق ليس إلا انحدارًا جديدًا. كما أن غسل أيدينا مسبقًا من الإرهابيين المحتملين ليس أكثر من قصر نظر خطِر، إضافة إلى أن حالة انعدام الجنسية أداة من أدوات الطغاة، لا من أدوات الديمقراطيين».

- 11 -

استيقظتْ على صوت قطرات المطر المتساقطة داخلةً من النوافذ التي حطمتها الحجارة. لقد قالت عصمة إن هذا يعني، على الأقل، أنهما قد جنّبتا بيتَ العمة نسيم الضربَ بالحجارة عندما نامتا في بيتهما. عصمة، تلك المذعورة المحطَّمة، تلعب دورَ المواطنة الصالحة حتى في هذا الوقت، وتزجّ باسم أختها في هذه التصريحات المشينة: عصمة، الخائنة، التي خَذلت الجميع.

صارتا الآن وحدهما في هذا البيت الذي ترعرعتا فيه معًا، في هذا البيت الخاوي بعد أن ذهب المهاجرونَ المستأجرون آخذين معهم كل ما لديهم من أثاث ومتاع. ليس في البيت الآن غير فراش واحد تعاون كليم باي مع عصمة على جره عبر الشارع، «... بما أنكما مصرَّتان على النوم هنا»... فراشٌ مزدوجٌ للأختين معًا. لكن هذا البيت صار الآن للتوأمَين فقط. ستذهب عصمة باكيةً ملوِّحة بذراعيها نتيجة سلوك هذه المرأة المجنونة التي أفلحت آخر الأمر في دفعها بعيدًا عنها. صوت ضربات في الأسفل... ما هذا؟ شخصٌ يحاول اقتحامَ البيت، يحاول تحطيمَه لأنه ارتكبَ جريمةَ امتلاك سقف عاش تحتَه شخصٌ خائن. حملت الغلّاية الكهربائية (القابلة للضبط على أربع مستويات من الحرارة) لأنها أقرب ما بقي في البيت من أشياء يمكن أن تصلح سلاحًا تدافع به عن نفسها. فتحت الباب فوجدت «ديفيد بيكمان»[1] و«الملكة» و«زين مالك»[2] يثبتون ألواحًا خشبية على النوافذ التي تكسّر زجاجها.

---

(1) ديفيد بيكمان. لاعب كرة قدم إنجليزي شهير سابق.

(2) زين جواد مالك. مغني وكاتب أغاني إنجليزي.

كاد «بيكمان» يصيبُ إصبعَه بالمطرقة لشدة مفاجأته عندما رآها. خاطبها بصوت عبد الله من خلف قناعه: «لم أتوقّع أن في البيت أحدًا».

قال «زين مالك» الذي اتضح لها أنه والد «ديفيد بيكمان»: «من الأفضل أن تدخلي، فلعل هنالك صحفيين لا يزالون مختبئين ينتظرون ظهورك».

قالت «الملكة» التي لم تكن إلا نات صاحب محل البقالة: «إلا أن تناول فنجان من الشاي سيكون أمرًا لطيفًا رغم هذا كله». قال هذا وهو يشير برأسه الذي يحمل التاج في اتجاه الغلاية الكهربائية التي في يدها.

- 12 -

ساعاتٌ لا تُحصى من التسجيل الصوتي، لكن صوتَه غير موجود فيها أبدًا... كما لو أنه بدأ التمرين على الاختفاء منذ وقت طويل.

الآن... لن يظهر لها حتى في أحلامها. ما أشد غضبها!

- 13 -

كم برويز باشا يقتضي الأمر قبل أن تستيقظ الحكومة من نومها؟

لم يكن الكشف عن أن عادل باشا، والد الإرهابي الذي قُتل مؤخرًا، برويز باشا، قد هجر أسرته حتى يسلك طريق الجهاد مفاجأة حقيقية لواحد من زملاء دراسة عادل باشا السابقين في حي بريستون رود.

قال زميل الدراسة هذا الذي طلب عدم الكشف عن اسمه: «كانت هنالك شائعة تقول إن أباه كان جهاديًا في أفغانستان ثم مات في غوانتانامو. كانت شقيقتاه تنكران ذلك دائمًا وتقولان إنه مات نتيجة إصابته بالملاريا خلال وجوده خارج البلاد. لكن من المؤكد أن برويز لم يصب بالملاريا ولم يمت بها. لم أنتبه إلى الأمر كثيرًا في ذلك الوقت، لكنّي أتذكر كل شيء الآن فيبدو لي واضحًا أنه كان يرى جهاد أبيه شيئًا يستحق المباهاة به عندما كان لا يزال طفلًا صغيرًا».

تقول المصادر إن أباه عادل باشا قاتل مع مجموعات جهادية في البوسنة وفي الشيشان خلال سنوات التسعينيات، ثم سافر إلى أفغانستان في سنة 2001 حتى يقاتل مع جماعة طالبان. ويُعتقد أنه مات بعد ذلك بفترة غير طويلة. ويقول ضابط الفرع الخاص المتقاعد الذي ذهب لأخذ أقوال أسرة عادل باشا سنة 2002: «لا نعرف أبدًا إن كان قد قُتل في المعركة أو مات بالملاريا أو نتيجة أي سبب آخر. لكن، لو أنه كان في غوانتانامو، لكانت لدينا سجلات تبيّن ذلك. ليست لدينا أي سجلات. إنني أتذكر برويز، ابنه، كان صغير السن تمامًا، لكنهم يسمحون له بأن يجعل أباه مثالًا ونموذجًا، منذ ذلك الوقت؛ رغم أنه كان مقاتلًا إلى جانب أعداء بريطانيا. لقد أخذت ألبوم الصور الذي كان لديه، وكانت

فيه صور والده حاملًا بندقية كلاشنكوف. رأيت على الألبوم كتابة بخط يده تقول: سوف تنضمّ إليَّ في الجهاد ذات يوم. لقد أوصيت بأن تتابعه الشرطة متابعة يقظة. ولكن المؤسف أنهم لم يأخذوا بهذه التوصية أبدًا».

من المقلق إلى حد كبير احتمال أن يكون أطفال الجهاديين، وكثير منهم من المولودين في بريطانيا، غير خاضعين لمراقبة وثيقة من جانب الدولة. كم برويز باشا آخر يلزمنا حتى تتغير الأمور؟

لقد عاد من المفوضية الباكستانية العليا في ذلك اليوم وقال إنه لم يكن في حاجة إلى دفع تكاليف تأشيرة الدخول الباهظة المفروضة على المواطنين البريطانيين، ولم يكن مضطرًا إلى المضي عبر الإجراءات البيروقراطية كلها حتى يستطيع العمل في كراتشي، فقد اتضح أن لديه شيئًا يطلقون عليه اسم NICOP.

قالت له عصمة: «آه، صحيح... لقد حصلت عليها من أجلنا كلنا عندما كنت أخطط لرحلة إلى باكستان، لكني لم أسافر آنذاك. ألا تتذكر هذا؟»

صعد برويز إلى عليّة البيت، ثم عاد وقد ارتسمت على وجهه علامات الانتصار. واحدة لك وواحدة لي. قال هذا وهو يناول أنيقة بطاقةً بلاستيكية كُتب عليها «بطاقة هوية وطنية للباكستانيين المقيمين في الخارج». ألقت أنيقة نظرةً على صورتها في البطاقة فتذكرت كم شعرت بالهيبة عندما ذهبت مع أختها إلى المفوضية الباكستانية العليا لإصدار تلك البطاقة، وكم كانت تزعجها فكرة تضييع فترة الصيف في بريطانيا وقضائها في بلد يعجّ بالأقارب الذين يظنّون أن رابطةَ الدم تمنحهم حقًا في استجوابها وإلقاء المحاضرات عليها والإشارة إلى حجاب أختها باعتباره برهانًا على أن الباكستانيين البريطانيين لا يزالون «عالقين في الماضي»، ثم الإشارة إلى بنطلون الجينز لإثبات أن هاتين الفتاتين قد «اختلط عليهما الأمر». ولم يتحسن مزاجها عندما انتبهت إلى أن البطاقةَ تذكر «اسم الوالد». وفي آخر الأمر، حدث شيءٌ ما خلال تلك المكالمات الهاتفية مع الأقارب الأثرياء الذين قد وعدوا بتغطية تكاليف الرحلة، فعدّلت عصمة عن قرارها وجرى وضع تلك البطاقات

في خزانة الأوراق في عليّة البيت إلى جانب شهادات الميلاد وبطاقات التأمين الصحّي وصور أشعة إكس لبعض العظام المكسورة.

سألت أنيقة: «ما معنى 'باكستانيون مقيمون في الخارج' بالضبط؟»

رفع برويز كتفيه، ثم أجابها: «أظن أن هذا يعني فحسب أن عائلتك من هناك في الأصل، وبالتالي فأنت معفية من رسوم تأشيرة الدخول. على أية حال، هذا هو الجانب الوحيد الذي أرى له أهمية».

أجابته: «بل الجانب الوحيد الذي نرى فيه أهمية. سوف أحتاج إليها عندما أذهب لزيارتك. ضعها في محفظتي من فضلك! لا أريد أن أجد نفسي مضطرة إلى الصعود إلى العلية التي فيها عناكب حتى أبحث عن البطاقة بعد ذهابك». لا تتذكر أبدًا كيف كان تعبير وجهه عندما فعل ما طلبته منه.

أما الآن، فإن البطاقةَ البلاستيكية التي تحمل صورةَ فتاة متجهّمة الوجه في الرابعة عشرة من عمرها موضوعة على طاولة مكتب في المفوضية الباكستانية العليا حيث ينظر إليها نظرةً حزينة ذلك الرجل ذي المشط البلاستيكي البارز من جيبه.

قال لها: «يجب أن تفعلي ما تقوله لك أختك الكبرى وأن تظلي بعيدةً عن الأمر. على أية حال، لا تخرج السيدات في الجنازة. وهذا يعني أنك لن تكوني قادرة على فعل شيء غير الدعاء له والصلاة في البيت. وهذا ما تستطيعين فعله في لندن من غير حاجة إلى الذهاب إلى كراتشي لأن الله يسمع الدعاءَ ولو كان دعاء شخص أبكم قادم من قاع أعمق المحيطات.

«هل يحق لي الحصول على جواز سفر باكستاني أم لا يحق لي؟»

«يحق لك».

«لقد سحبت مالًا من البنك حتى أدفعَ رسوم الإجراءات المستعجلة للحصول على جواز السفر. قل لي من فضلك، من هو الشخص الذي يجب أن يستلمَها مني؟»

الإغراء بالحجاب!

شقيقة برويز باشا التوأم ترتب لقاءات جنسية مع ابن وزير الداخلية

لقد تبين أن أنيقة «نيكرز»[1] باشا البالغة من العمر تسعة عشر عامًا كانت متواطئة مع شقيقها التوأم المتشدّد الإسلامي برويز باشا. لقد استدرجت ابن وزير الداخلية (إيمون، أربعة وعشرون عامًا) وأغرته جنسيًا حتى تحاول غسل دماغه ودفعه إلى إقناع والده بالسماح لشقيقها الإرهابي بالعودة إلى إنكلترا.

لقد أبقت «نيكرز» هويتها الحقيقية خافية عن عاشقها حتى ساعات قليلة سبقت مقتل شقيقها عندما كان يحاول دخول القنصلية البريطانية في اسطنبول. سرعان ما أخبر إيمون لون والده الوزير بأن المرأة التي أدخلها إلى فراشه كانت تريد أن تجعله يستخدم تأثيره على والده لإعادة شقيقها الشرير إلى بريطانيا. وعلى الفور، اتصل كارامات لون بالاستخبارات؛ إلا أن برويز باشا قُتِلَ سريعًا قبل أن تتمكن الاستخبارات من فعل شيء.

لقد ظل وزير الداخلية الشجاع الذي يتخذ موقفًا قويًا في مواجهة التطرف، والذي غامر بحياته عندما اتخذ موقفًا شديدًا ضد التطرف، ملتزمًا الصمت حين كانت الشرطة تجري تحقيقاتها في الأمر. وقد أصدر مكتبه هذا الصباح بيانًا مختصرًا كشف عن تلك العلاقة الشائنة ووعد «بشفافية كاملة». وعلى الرغم من عدم إمكانية إثبات أن شقيقةَ

(1) (Knickers) تعني هذه الكلمة السروال الداخلي. وهي مستخدمة هنا لوجود شيء من التشابه اللفظي مع اسم أنيقة.

الإرهابي ذات السلوك المنحرف قد خرقت القانون، فقد تم إبلاغها بعدم الاقتراب من ابن وزير الداخلية الذي يُعتقد أنه يمضي بعض الوقت مع أصدقاء له في نورفولد. كما قال مصدر مقرَّب من عائلة لون إنها «كانت تقوم بمحاولةٍ محكوم عليها بالفشل سلفًا: لا يمكن أبدًا أن يقبل وزير الداخلية بأن يعرّض أمن البلاد للخطر لأي سبب كان».

اقرأ في الداخل: ابنة إرهابي إسلامي، وشقيقة إرهابي إسلامي، لها تاريخ من الحياة الجنسية السرية القصة الحصرية لـ«نيكرز» باشا.

- 16 -

كان شكله يشبه مزحة متهكمة
وكان مذاقه يشبه عالمًا قائمًا بذاته
وكان الإحساس بوجوده يوحي بأن الحواجز كلها قد راحت تختفي
كان شكله يشبه فرصة
وكان مذاقه يشبه أملًا
وكان الإحساس به يشبه حبًا
كان شكله يشبه معجزة
وكان مذاقه يشبه معجزة
وكان الإحساس به يشبه معجزة
حقيقي
موجود في الواقع
قادم مباشرة من عند الرب
اسجدي وصلي
صلّي مثلما لم تصلي منذ أن رحل أخوك
... أعجوبة!

- 17 -

حزمت حقيبتَها، ثم جرّتها إلى خارج البيت في أول خروج لها في وضح النهار أمام الكاميرات والمايكروفونات ورجال الشرطة الذين يمنعون اقتراب الصحفيين. عصمة خارجة من بيت العمة نسيم، مستعجلة، تناديها من الناحية الأخرى من الشارع «أين تذهبين؟» ليست عصمة بالشخص الذي يتعيَّن عليها أن تجيب على أسئلته بعد اليوم.

تابعت سيرَها والشرطة تحيط بها من الجانبين... «يا آنسة، من فضلك عودي إلى البيت»... دخلت السيارة المنتظرة. إنه عبد الله متنكرًا في قناع «ديم إدنا» هذه المرة. لقد صار حاميها الأول، وحليفها الأول؛ وصار يقفز من فوق جدران الحديقة حتى يدخل البيت من غير أن يراه الصحفيون المنتظرون في الخارج. عبد الله الذي أخذَ الإيصال منها وأتى بجواز سفرها، ثم حجز لها تذكرةَ السفر ودفع ثمنها حتى لا تتلقى عصمة من شركة بطاقات الائتمان إشعارًا بعملية الشراء. سرعان ما رافقتهم سيارة شرطة تتبعها سيارات التلفزيون. لا أهميةَ لهذا، ولا شيءَ يستحق الإخفاء. هكذا أفضل.

«لماذا تساعدني يا عبد الله؟»

«إن عندي شيء لا تعرفينه».

«أعرف أنك مثليّ، ربما حتى قبل أن تعرف أنت بذلك».

«ليس هكذا... لكني أشكرك لأنك لم تقولي هذا لأحد. أنا من أخبر ابن عم فاروق أن برويز هو ابن عادل باشا... أعني تلك الشائعات عن أبيك. وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل فاروق يستهدفه».

«ليست غلطتك أنه ذهب».

«لماذا ذهب؟»

«لست أدري على وجه التحديد. لقد كففت عن طرح هذا السؤال. كان يريد العودة، هذا كل ما له أهمية».

«إن عاد فاروق فسوف أقتله».

«لا، لا تقتل فاروق. اسلخ عنه جلده بأصغر مشرط في العالم، وانتزع عينيه بملعقة الآيس كريم، واجعل حمضًا بطيء المفعول يقطر على لسانه».

«أظن أنك فكرت بهذه الأشياء كلها من قبل».

«هذا واحد من الأشياء القليلة التي أستطيع تركيز تفكيري عليها».

«لا أظنني قادرًا على فعل أي شيء من هذا».

«أعرف هذا، لا بأس».

«هناك شيء آخر لا تعرفيه».

«ماذا؟»

أجابها بصوت ديم إيدنا: «كان أخوك يعجبني، وكنت أتخيل نفسي معه».

«شكرًا يا عبد الله. لقد ذكّرتني كيف أبتسم بعد أن نسيت الابتسام».

كانت تتوقع أن يأخذوها إلى غرفة الاستجواب في المطار، لكن الرجل في نقطة الأمن نظر إلى الشرطة من فوق كتفها، ثم نظر إلى جواز سفرها الجديد وإلى بطاقة السفر إلى كراتشي، ثم أشار لها بالمرور.

«لماذا أنتِ راحلة؟» كان هذا آخر سؤال سمعَته من واحد من الصحفيين الذين ظلوا واقفين خلف الحاجز في المطار تمامًا قبل أن تدخل صالة المغادرين.

أجابته: «من أجل العدالة».

- 18 -

كراتشي... باصاتٌ ملونة، وبناياتٌ من غير ألوان، وجدران عليها رسوم وكتابات، ولوحات إعلانية عن هواتف خليوية ومشروبات غير كحولية وآيس كريم، وعصافير تحلق عاليًا في سماء بيضاء حارة. لو كان برويز هنا لرغب في فتح نوافذ السيارة حتى يصغي إلى كل صوت جديد، لكنها كانت جالسة في مقعد السيارة الخلفي وما كان يعكر الصمتَ غير صوت مروحة مكيف الهواء... صمتٌ ليس من ابتكارها هي بل قرره لها ابن عمها عازف الغيتار الذي رفض أن يشرحَ لها السبب الذي جعل موظفي المطار يخفرونها من باب الطائرة ويأخذونَها عبر صالة الأمتعة حيث كان ينتظرها لأخذها من هناك في سيارة فاتحة اللون على زجاجها الأمامي لصاقة العضوية في أحد نوادي الغولف: بدا ذلك كله منسجمًا مع رجل أعمال لا مع موسيقي.

«اخلعي حجابَك وضعي هذه»؛ كان هذا أول شيء قاله له وهو يناولها نظارةً شمسية كبيرة الحجم. رفضت ذلك، لكن حدةَ الشمس جعلتها آخر الأمر تُغير رأيها بخصوص النظارة.

استمر الصمت إلى أن انعطفَ في اتجاه مدخل فندق كبير أبيض اللون وتجاوز حاجزًا أمنيًا غير ذي جدوى، ثم توقف وأشار بيده ليصرف عاملَ إيقاف السيارات الذي جاء لأخذ المفاتيح منه.

قال لها: «يمكنك النزول هنا».

«لماذا؟»

«ذلك هو مدخل الفندق، لقد حجزت لكِ ثلاثة أيام. الحجز باسم السيدة جول خان. يصل جثمانه غدًا. وسوف يُدفَن عند المغرب. لقد

رتبنا أمرَ مكان القبر، وسوف أُرسل سيارةً تأخذك إليه في الصباح التالي. في التاسعة صباحًا. يمكنك أن تُصلّي على قبره، وبعد ذلك تذهبين. هل اتفقنا؟ لا تتصلي بي. ولا تتصلي بأمي. هل فهمت هذا؟»

«أنت من يتعين عليه أن يفهم. لن يُدفن. لقد أتيت لكي أعيده معي».

رفع ابن عمها يده قائلًا: «لا أريد أن أعرف. بنت مجنونة. لا أريد أن أعرف أي شيء. أختي تعيش في أميركا، وهي على وشك ولادة طفلها هناك. هل فكرت، أو هل فكر أخوك الحيوان، بالتوقف لحظة للتفكير فينا، نحن من نحمل جوازات السفر التي تعتبرها بقية العالم شيئًا مثل ورق المرحاض. نحن الذين نمضي حياتنا كلها منتبهين حذرين حتى لا نقدّم لأحد سببًا يجعله يرفض منحنا تأشيرة دخول. لا تقف بالقرب من هذا الشخص، ولا تتابع هذا الشخص على تويتر، ولا تُحمّل ذلك الكتاب لنعوم تشومسكي من الإنترنت. وبعد ذلك يأتي أخوك أولًا فيستخدمنا ستارًا عندما يذهب للانضمام إلى قتلة مختلّين عقليًا، ثم تظن حكومتك أن من الممكن استخدام هذه البلاد مكبًا للنفايات ترسل إليه الجثث غير المرغوب فيها؛ وبعد هذا كله، تتوقع أسرتك أن نهبّ ونقيم جنازة للشخص الذي صار واجهة الإرهاب في الصحافة هذا الأسبوع. وأنت الآن آتية إلينا يا آنسة «محجّبة نيكرز» فأجد نفسي مضطرًا إلى استخدام علاقات لا أريد استخدامها حتى أخرجك من المطار من غير أن تراك صحافة العالم كله. وبعد هذا، يتضح أنك آتية لكي تحاولي القيام بخدعة ما، خدعة لا أعرف شيئًا عنها. لكن عائلتي لن تكون لها أيّ علاقة بها، ولن تكون لها أيّ علاقة بك».

«لست أريد أن تكون لك أو لعائلتك أيّ علاقة بالأمر. أخبرني فقط متى يصل جثمانَه غدًا، ومن الذي عليَّ أن أكلمَه لأقول له إلى أين يجب أن يأتّوا به».

«ماذا تعنين بهذا؟ ما معنى أين يأتون به؟ هل تريدين أن تأتي بجثة إلى غرفتك؟»

«هل تريد حقًا أن تعرف؟»

«لا. اخرجي من السيارة؟»

«من الذي عليّ أن أكلمه لأقول له إلى أين يجب أن يأتّوا به؟»

مد يدَه إلى محفظته ثم أخرج منها بطاقةً رماها إليها.

«شكرًا لك. بالمناسبة، كم تبعد المفوضية البريطانية العليا(1) عن هذا المكان؟»

أجابها وهو يميل عبر السيارة ليفتح لها الباب: «ابحثي عنها في الخريطة».

(1) هكذا تسمى القنصليات البريطانية في الهند وباكستان وبنغلادش.

- 19 -

كان مجمع المفوّضية البريطانية العليا محاطًا بأسلاك شائكة وسيارات نقل صغيرة مغلقة مع بنادق ظاهرة من نوافذها، وحواجز طرق لمنع أي غريب من الاقتراب. لكنها وجدت على مسافة بضع دقائق سيرًا على الأقدام حديقةً تُحيط بها أشجار تين هندي كانت جذورها الظاهرة على سطح الأرض أكثرَ تحملًا ودوامًا من أسلاك تصدأ في الهواء أو مدافع ملأها الغبار أو حسابات يجريها اليوم سياسيون يترقبون الانتخابات المقبلة.

سوف تجلس هنا مع أخيها إلى أن يتغيرَ العالم أو إلى أن يتفتتَ كلٌّ منهما ويذوبَ في التراب.

مكتبة
t.me/t_pdf

کارامات

الفصل الثامن

تجاهل كارامات لون التوتّر غير المعتاد للظل الممتد أمامَه على الأرض إلى جانب ظله عند الممر المفضي إلى نهر ثيمز، وسكب القهوةَ لنفسه مرةً ثانية من الثيرموس في كأس من الورق المقوّى. لقد أهداه إيمون، في مناسبتين اثنتين، كأسًا من تلك الكؤوس الحافظة للحرارة كهدية في عيد ميلاده. كان إيمون راغبًا في تقديم شيء لطيف عملي لأبيه لكنه لم ينتبه إلى عدم قدرة الكأس الحافظ للحرارة على إبقاء يدَيْ الإنسان دافئتَيْن مع المحافظة على حرارة القهوة. فيما يتعلق بابنه، كان كارامات يعتبر دائمًا أن «حُسن النية» أمرٌ جيد بما فيه الكفاية بغضّ النظر عن النتيجة العملية. أما ما يتعلق بابنته، أي المرشح المحتمل الآخر الوحيد لتلقي هذه المعاملة التفضيلية، فما كانت هنالك أبدًا حاجةٌ إلى شيء من هذا القبيل. لقد اعتادَ كارامات الرثاءَ لحال ابنه عندما ينظر إلى الهوّة الكبيرة في القدرات والإنجاز بينه وبين أخته التي تصغره عمرًا. ولم يخطر في ذهنه أبدًا أن إيمون كان الشخص الوحيد الذي لا يرى ضعفَه وقلةَ حيلته... صفتان جارحتان عندما يراهما المرء في ابنه الوحيد؛ لكن ما من كلمات أخرى صالحة لوصفه. ثم لم يلبث ذلك المظهر الخارجي الواثق المتهلل، الذي كان محلَ إعجاب كارامات لاعتباره مظهرًا خارجيًا فحسب، أن صارَ مصدر إحراج عندما اتضح أن ما من عمق وراءه. لقد ظل مصرًّا على مواصلة القول له: «إنها تحبني!»

في مواجهة أدلة كثيرة تشير إلى العكس. «لماذا يكون من المستحيل تصديق ذلك إلى هذا الحد؟» سؤال كان كارامات يكره الإجابة عليه. رفع كأس الورق المقوّى إلى وجهه تاركًا البخار يدخل منخريه ويدفئ وجنتيه. هنالك معيارٌ محدَّد دقيق للزمن الذي يمكنك فعل ذلك خلاله قبل أن تنخفضَ درجةَ حرارة القهوة فتصير دون الحد الأمثل لشربها.

ابتلع جرعةً كبيرة من قهوته وأحسَ بلسعتها الحارقة الممتعة وهي تشق طريقَها نازلةً في جوفه بينما تابعَ النظرَ إلى قصر ويستمنستر[1] وانعكاسه على صفحة ماء النهر وقد اكتست حجارته الصفراء مسحةً من لون ورديّ ذهبيّ في ضياء الفجر. كان الكل متفقًا على أن هذا المكان هو قلب التقاليد البريطانية كلها، لكن قلةً من الناس يفهمون بريطانيا على نحو جيد مثلما يفهمها كارامات لون ويعرفون أن محرّك التغيير الجذري موجودٌ في أعمق غرفة في قلب معقل التقاليد البريطانية هذا. هنا خفضت بريطانيا السلطات الملكية؛ وهنا وافقت بريطانيا على ترك إمبراطوريتها؛ وهنا أقرّت بريطانيا حقَ الاقتراع العام، وهنا ستشهد بريطانيا كيف يصير حفيدٌ واحدٌ من أهل المستعمرات رئيسًا للحكومة. كان أكثرَ أنواع النقد الموجه إلى كارامات لون استمرارًا وتواصلًا هو أن مواقفه تتأرجح بين المَيْل إلى التقليدية والنزوع إلى الإصلاح؛ إلا أن منتقديه ما كانوا يعرفون شيئًا نتيجة انعدام قدرتهم على التمييز بين هذا وذاك. فلنأخذ على سبيل المثال اعتزامَه توسعة سلطات وزير الداخلية بحيث يصير قادرًا على إسقاط الجنسية البريطانية عن البريطانيين بالولادة الذين ليست لديهم جنسية أخرى. كان هذا، على نحو واضح تمامًا، التطبيق المنطقي لقانون لم يكتمل حتى الآن. لا بد من تقرير صلاحية شخص ما للتمتع بالمواطنة استنادًا إلى أفعاله لا إلى مصادفة مكان ولادته. «هذه زيادةٌ

---

(1) مقر ملكة بريطانيا.

في سلطاتٍ وحشية قاسية» هكذا قالت مجموعة من معارضين يساريين. «هجومٌ متجدد على الإنكليز الحقيقيين من قبل السكان المهاجرين في بريطانيا»، وهذا ما كانت تقوله مجموعة أخرى في أقصى اليمين. لعل أفراد الجماعتين كلتيهما يشربون القهوة من كؤوس حافظة للحرارة!

لو كانت تيري معه الآن لقالت: أنت تتخذ مرة أخرى هذا الموقف الراشح بالازدراء!

هذا واحدٌ من الأشياء القليلة الباقية التي لم تفهمها زوجته فيه حتى الآن. الازدراء، والاحتقار، ونظرة الترفّع: ليست هذه المشاعر إلا محطات في حلقة مغلقة تنبع من الإحساس بالتفوّق وتنتهي إليه. وهي، في محافظتها على الحالة القائمة، ليست مما ينفع لكارامات لون في شيء. إن الإنسان في حاجة إلى نار تجري في عروقه حتى يشق طريقه في العالم، لا إلى جليد يجمّد كل شيء ويتركه على حاله. كان يظن أنه قد أتقن فن توجيه تلك النار لكنه سمع بالأمس عبر الإنترنت، عندما كانت الكاميرات التلفزيونية مصوَّبة إليه، إجابةَ الفتاة التي فسَّرت فيها سبب مغادرتها إنكلترا فلم يتمكن من منع نفسه من القول: «أهي ذاهبةٌ للبحث عن العدالة في باكستان؟» نطق الكلمة الأخيرة بكل التقزّز الذي قد يبديه طفلٌ من أطفال المهاجرين يفهم كم كان كثيرًا ما تخلى عنه أهله وتركوه... العائلة، والسياق الاجتماعي، واللغة، وكل شيء مألوف في حياتهم... لأن البلدَ الذي كانوا منتمين إليه أثبت أنه عاجز عن السماح لهم بأن يعيشوا حياتَهم بكرامة. سيكون عليه، بعد حين، أن يرد على رسالة وزير الخارجية الغاضب من جملته هذه. أو لعله لا يرد إذا ظل رئيس الحكومة على صمته تجاه الأمر... صمت يخشى كارامات ألّا يكون ناجمًا عن أنه مَيّال إلى وزير داخليته بقدر ما هو انزعاجٌ من رئيس حكومة باكستان الذي يحاول جني رأس مال سياسي من هذا الوضع. لقد قال رئيس الوزراء الباكستاني، مرائيًا، إن سياسة الدولة في باكستان

تقضي بأن تتحمل تكاليف إعادة مواطنيها المتوفّين إليها في حين تطالب حكومة المملكة المتحدة ذوي من ماتوا بدفع آلاف الجنيهات لنقل رفات أحبّتهم وإعادتها إليهم.

اقتر [illegible] بلٌ يمارس رياضةَ الجري في الصباح المبكر فكاد يمس الحاجز الذي عند ممر النهر وصار قريبًا إلى الحد الكافي لتمييز وجه وزير الداخلية فرفع يده مشيرًا إلى رجال الأمن بأنه ليس مصدر خطر. داكن البشرة. قال كارامات: تسك تسك تسك!

نزع غطاء الثيرموس مرةً أخرى وهزّه بلطف حتى يحرك محتوياته، ثم نظر إلى السائل المتلاطم على جدرانه الداخلية الزجاجية. لم يكن يبدو عليه أنه في حاجة إلى مزيد من القهوة رغم أنه لم ينم أبدًا طيلة الليلة الماضية. هذه عجائب الأدرينالين... مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن سهر الليل كله آخر مرة متسائلًا عما سيفعله خصومه. عادة ما يكون توقّع سلوك الناس أمرًا في غاية السهولة.

جاءه صوت شواريز من خلفه محذرًا: «يا سيدي!»

«هل كان ذلك الرجل مسلمًا إلى حد يثير القلق؟»

«بل كان لاتينيًا».

«أنت مصرّ دائمًا على أن الوسيمين كلهم من أبناء عمومتك، لا من أبناء عمومتي».

«لقد حان حقًا وقت الذهاب يا سيدي».

استدار كارامات ونظر إلى وجه المسؤول عن حرسه الشخصي. لقد فهم شواريز منذ البداية إصرار وزير الداخلية على عدم رغبته في معرفة أي شيء يتعلق بالأخطار التي يتعرض لها. قال له كارامات: «قم بعملك ودعني أقوم بعملي». وقد كان من الواضح طبعًا، عندما قطعوا أشجارًا في حديقته وزرعوا مكانها عناصر أمنية، أن هنالك بعض «التطورات»؛

إلا أن شواريز ظل محافظًا على مظهر الهدوء خلال ذلك كله. ورغم ذلك، فقد كان التوتر واضحًا عليه اليوم. صحيح أن كارامات أفلحَ في الإصرار على تناول قهوته على ضفة النهر تماشيًا مع عادته القديمة بعد كل ليلة يمضيها بلا نوم منذ أن كان عضوًا في مجلس العموم، فقد كان من الواضح الآن أنه لا يستطيع كسبَ الجولة مرة ثانية والبقاء هنا أكثر مما بقي.

رن هاتفه عندما كان موشكًا على النهوض. نظرَ إلى شاشة الهاتف فرأى أن المتصلَ ابنه. احتضن الهاتف بيديه لحظةً ووجد نفسَه منساقًا إلى واحدة من عاداته القديمة \الفارغة عندما قال «بسم الله» قبل أن يردّ على مكالمة ابنه.

«مرحبًا أبي. قلت في نفسي لا بد أنك مستيقظ». كان صوت إيمون هادئًا، عاطفيًا، لا شيء فيه من ذلك الشاب الذي أصابه الجنون فكان لا بد من احتجازه جسديًا حتى لا يعود إلى ذراعَيْ تلك العاهرة التي تلاعبت به. حسنٌ، في الحقيقة لم تكن «ذراعاها» هما الجزء من جسدها الذي أراد العودةَ إليه... الأمر هكذا رغم أنه ما كان على كارامات، على الأرجح، أن يقول هذا يومها.

سأله: «هل أنت بخير؟» لم يتحدث مع إيمون منذ أن اتفقت أمه مع ماكس وأليس أن يأخذاه بعيدًا إلى واحدة من عزبات عائلة أليس بعد أن انجلت عنه حالتَه الهستيرية وغرقَ في نوع من الاستسلام والهمود... افترضت الصحافة أن تلك العزبة واقعة في نورفورد رغم أنه من الممكن أن تكون في نورماندي، أو في أي مكان آخر. لم يطلب كارامات من زوجته عدمَ إخباره بمكان وجود ابنهما؛ لكنها كانت تعرف تمامًا أن من الأفضل عدم إعطائه معلومات من هذا النوع تحسّبًا لأن يطرح عليه أحد سؤالًا مباشرًا فيجد نفسَه مضطرًا إلى تقديم إجابة صادقة. لقد تحلّت زوجتُه دائمًا بتقدير سليم لمن هو زوجها، ولمن يجب أن يكونَه باعتباره

شخصيةً عامة؛ وهذا ما جعل تصرّفها محيّرًا عندما نقلت من تلقاء نفسها جزءًا من محتويات خزانة ملابسه إلى غرفة النوم التي في القبو استجابةً لإعلان مكتبه رسميًا عن قصة تورط إيمون مع تلك الفتاة. قالت له: «لقد كنت قادرًا على حمايته»، كما لو أن زوجَها كان رجلًا أحمق أو قليل الأخلاق إلى حد يجعله يحاول ترتيب نوع من التغطية على الأمر. لم يهِن عزمها عندما وصفت الصحف إيمون (محقّة) بأنه شاب أبله؛ بل بلغ الأمر بإحدى تلك الصحف حد الإيحاء بأنه ازداد ولعًا بالفتاة فور إدراكه ما كانت تريده منه.

قال له: «نعم، أنا بخير. أعتذر عن تصرفي في ذلك اليوم».

وضع كارامات ساقًا على ساق ونظر إلى السمكة الكبيرة مفتوحة الفم جاحظة العينين مزدوجة الذيل المنقوشة على قاعدة عمود النور القريب منه.

عادةً ما يجد هذه الأشكال غريبة شاذة؛ إلا أنها بدت اليوم لعينه الحانية فكاهية لا أكثر...

قال لابنه: «وأنا آسف لأنك مضطر إلى البقاء مسافرًا فترة من الزمن. لعل انتقالك للعيش في نيويورك بعض الوقت كما اقترحت أختك يمكن أن يكون فكرة معقولة».

«قلقي عليك أكبر من قلقي على نفسي».

نهض كارامات واقفًا وسار إلى عمود النور، ثم انحنى في اتجاهه واستدار مشيحًا بوجهه عن عناصر الحراسة: «لطيفٌ أن أسمعَ منك هذا، لكنه غير ضروري».

«قد لا يبدو الأمر واضحًا من المكان الذي أنت فيه الآن. حكومةٌ ترسل مواطنيها إلى بلد آخر عندما لا يعجبنا مسلَكهم. ألا يعني هذا أننا غير قادرين على التعامل مع مشكلاتنا؟ منع أسرة من دفن فقيدها... لا

يبدو هذا شيئًا حسنًا. هذا ما بدأ يقولُه الناس الذين حولي. إذا لم يخبرك مستشاروك بهذا، فإن ابنَك سيقوله لك».

«ابني يعطيني دروسًا في السياسة من موقعه المتميز بين النبلاء من أصحاب الأطيان»؛ قال هذا وهو يضغط بقبضة يده على عينَيْ السمكة الجاحظتين.

«أقول هذا لأن سمعتك تهمّني. تهمّني أكثر مما تظن».

«هي من قال لك أن تقول هذا كله، أليس كذلك؟»

«لم يأتني منها شيء. أنت تعرف هذا. لقد فعلت ما طلبته مني. لم أتصل بها، ولم أرسل لها أيّ رسالة نصية. قلت إنك سوف تساعدها إذا وافقت على هذه الشروط. قل لي كيف ساعدتها؟»

«كانت لها حماية من عناصر الشرطة موجودينَ أمام بيتها. ولم أسمح للعالم برؤية مقاطع الفيديو التي كان أخوها الحبيب يشتغل عليها. ولم يجرِ احتجازها في غرفة استجواب مدة أربعة عشر يومًا من غير توجيه اتهام إليها؛ لم يحدث هذا حتى بعد اعترافها بإقدامها على إغواء ابني من أجل مساعدة شقيقها الإرهابي. لا بد أنك شاهدت ذلك المقطع، ألم تشاهده؟ لقد اعترفَتْ بهذا».

«طبعًا، لقد قالت هذا عندما ظنّت أنني هجرتها وتخليت عنها».

«هل تسمع ما تقوله؟»

«وهل تسمع أنت ما تقوله؟ تظن أنك تكرمت على شخص ما لأنك لم تحبسه مدة أربعة عشر يومًا من غير سبب!»

«لا تحاول أن تكون شجاعًا أكثر مما يجب، أرجوك. أنت لست مصنوعًا لهذا. هل منحَتْك حقًا أفضل مضاجعة يا إيمون؟ أهذا هو كل ما في الأمر؟ أقول لك هذا لأن هنالك من هنَّ أفضل منها بكثير؛ ثق بي!»

لحظة صمت، ثم صوت ابنه القاطع إلى أقصى حد ممكن: «أظن أن كل شيء بيننا قد انتهى يا أبي».

انقطع الخط فاستدار كارامات وسحقت كفه كأس الورق المقوّى الفارغة. تقدم شواريز منه ومد يده لكي يأخذ الكأس. كانت آثار أسنان ظاهرة على إبهام يده. رأى عينَيْ كارامات تتجهان إلى تلك العلامات فخبّأ إبهامه في كفّه حتى يخفي هذه الذكرى المرئية لإيمون وساقَيْه اللتين كانتا تركلان الهواء بجنون وأسنانه المطبقة على كف شواريز التي أغلقت فمه.

استدار مبتعدًا عن شواريز ورمى بالكأس فطار في اتجاه سلة المهملات. اصطدم بحافتها ثم قفز إلى الأعلى مرتدًّا عنها وسقط داخلها.

تخلصوا من القمامة. حافظوا على نظافة بريطانيا.

* * *

منتصف الفترة الصباحية في لندن، منتصف الفترة الصباحية في كراتشي. رفع شخصٌ ما يدعو نفسه CricketBoyzzzz@ على الإنترنت صورًا لامرأة في ثياب الحداد البيضاء جالسةً متربعة على ملاءة بيضاء تناثرت عليها بتلات وردة مغروسة بين العشب. كان العشب الذي لوّحته أشعة الشمس، وبقعٌ من الرطوبة على قميصها الطويل دليلان يشيران إلى درجة حرارة شديدة الارتفاع رغم جلوس المرأة تحت شجرة التين الهندي بأغصانها المتفرعة الممتدة وجذورها الظاهرة كأنها لحية. # نيكرز # وجدتها.

اهتمت الصحافة كلها بقصة أنيقة باشا، وتقاطر مراسلوها على الفنادق الكبرى والمقابر وبيوت الأقارب وصالات المطار، ثم أتَوا إلى هذه الحديقة فلم يظفروا إلا بنظرة فارغة وبصمت الفتاة التي بدأ كارامات يظنها معتوهة بقدر ما هي قادرة على التلاعب بالناس.

أمر كارامات مساعدَه جيمس: «استعلم عن مكان وجود الجثة الآن».

كانت عيناه تتنقلان بين شاشتَيْ تلفزيون في مكتبه في شارع مارشام: واحدة تعرض قناةً إخبارية باكستانية، والأخرى تعرض قناةً دولية. كانت شاشة القناة الإخبارية الباكستانية مقسومة إلى نصفين. ظهرت على أحد جانبيها مشاهد من الحديقة وقد ازداد عدد المتفرجين المتجمعين من حول الفتاة كما لو أن المكانَ كان موقع حادث مرور. وظهر في الشاشة الأخرى استوديو حيث كان مقدم برنامج حواري ديني متأنّق لِبق يشرح ما يقوله الشرع في قضية باشا. كان شعر الرجلِ مُسرّحًا إلى الخلف، وظهرت على جبهته علامةٌ قاتمة... علامة التُّقى التي تظهر نتيجة الاصطدام المتكرر بحجر أو سطح خشن عند كل سجدة في الصلوات اليومية الخمس. حمل كارامات ثقالةَ الورق التي كانت مزيجًا من أسد ووحيد قرن فضغطَ بها على جبهته. قال الرجل في التلفزيون إن الفتى انضمّ إلى خوارج العصر الذين هم أعداء للإسلام أكثر حتى من أميركا أو إسرائيل، ومن هنا فمن غير الجائز أبدًا وصفه بكلمة «مجاهد». ثانيًا، كان من الواجب دفنه قبل غروب الشمس يوم مقتله مهما يكن بعيدًا عن وطنه؛ وكل شيء غير هذا مخالف لتعاليم الإسلام. ثالثًا، اعترفت البنت بنفسها أمام شرطة المملكة المتحدة بأنها آثمة؛ اعترفت بأنها قد زنت. وبالتالي فمن الواجب إقامة حد الزنا عليها، الجلد.

سجل كارامات اسم الرجل وصرف انتباهه إلى القناة الإخبارية الدولية التي كانت تعرض خريطة ثلاثية الأبعاد للمنطقة المحيطة بالحديقة وتصف ذلك الموقع بأنه «هام» بينما ظهرت على الخريطة دوائر حمراء تشير إلى محطة وقود بجانب الحديقة وإلى مدرسة دينية، إضافةً إلى القنصلية الإيطالية الواقعة إلى الناحية الأخرى من الشارع وتقاطع طرق مزدحم على مرمى حجر من المكان. انهارت الخريطة ذات الأبعاد الثلاثة بمبانيها وأشجارها وسقطت كما لو أن انفجارًا عنيفًا دمرَّها ولم يبقَ غير صورة الفتاة في مواجهة المفوضية البريطانية العليا.

ضغط كارامات على زر إخفاء الصوت وراح ينظر إلى الفتاة ذات العينين الكبيرتين بثيابها البيضاء ورأسها المغطى وقد أحاطت بها بتلات الورد الحمراء مثل الدم وبدا سياج الحديقة من خلفها كأنه قضبان سجن عندما صارت الكاميرا تصورها عن قرب. ما من شيء عفوي في هذا كله... لكن، ما الذي يراد من كل هذا التجسيد للمعاناة أن يحققه؟

عاد جيمس إلى الغرفة وقال إن السفارة التركية لم تستطع تأكيدَ إلا أن الجثة قد وصلت إلى إسلام أباد، لكنها لا تمتلك معلومات عن كيفية نقلها إلى كراتشي أو متى يحدث ذلك. كما أن المفوضية الباكستانية العليا تقول بوضوح إنها تنتظر اعتذارًا من وزير الداخلية قبل أن تكشف له عن أية معلومات متعلقة بأحد من مواطنيها. ناوله كارامات الورقة التي سجَّل عليها اسم مقدم البرنامج التلفزيوني الديني، ثم قال له: «إذا كانت لديه تأشيرة دخول إلى المملكة المتحدة، فجِدْ سببًا لإلغائها».

قال له جيمس: «هنالك من يظنون أنك تبحث عن سبب لإسقاط الجنسية البريطانية عنها أيضًا». قال هذا وهو يشير إلى الفتاة الظاهرة على الشاشة وقد اتضحت في كلماته لكنتَه الاسكوتلندية الأكثر قربًا إلى لكنة أبناء الطبقة العاملة مثلما يحدث دائمًا عندما يظن أنه قد يكون موشكًا على الدخول في نوعٍ من اختلاف وجهات النظر بينه وبين كارامات. لم يكن جيمس مدركًا وجودَ هذه الحالة عنده، لكن كارامات كان يجد دائمًا أن من المفيد له أن يعمل اللاوعي عند هذا الشاب على إظهار حالته النفسية الحقيقية رغم محاولته إخفاءها عندما يرى ما يخالف رأي وزير الداخلية.

«وما رأيك أنت في هذا؟»

«أظنها فكرة سيئة جدًا. سوف يظن الجميع أن هذا بسبب إيمون».

قال كارامات: «يجب أن يكونَ الجميع أكثرَ فهمًا من هذا الظن». نهضَ واقفًا واقتربَ من الشاشة المقسومة نصفين... «اللعنة إن كنت

أعرف ما تخطط هذه الفتاة لفعله. لو كنتَ هناك، هل ستقف قريبًا منها مثلما يفعل هؤلاء الناس في الحديقة؟»

«أتظن أنها قد وضعت حزامًا ناسفًا تحت تلك الملابس؟»

«لا؛ بل أظن أنها تسمم كل شيء من حولها. انظر!... لقد صار كل شيء من حولها مصفرّ اللون قليلًا، أليس ما أراه صحيحًا؟»

«لا بد أن هنالك خللًا ما في عدسة الكاميرا. إنني آسف يا سيدي لأنني ذكرت تلك الملاحظة عن الحزام الناسف».

«لا تكن سخيفًا يا جيمس. هذا هو الزمن الذي نعيش فيه».

نهضت الفتاة واقفة بحركة انسيابية بعد أن كانت متربّعة على الأرض، ثم سارت مبتعدةً عن الملاءة البيضاء. ظلت بتلة ورد واحدة ملتصقة بأعلى قدمها الصغيرة العارية. تخيل كارامات فم ابنه وهو يقبل مكان تلك البتلة فلوّح بيده كأنه يريد أن يطردَ تلك الصورة من ذهنه. صارت القناتان الآن تعرضان الصورةَ نفسها من زاويتين مختلفتان اختلافًا بسيطًا. كان من الواضح أن لونًا أصفرَ يكتنف كلَ شيء منبئًا بعاصفة رملية وشيكة. كانت الحديقة هي ليست أكبر من ضعفي حديقة بيت أسرة لون محاطة بسياج ذي قضبان معدنية وبأشجار التين الهندي ولها بوابة مفتوحة كانت الفتاة تسير في اتجاهها. توقفت سيارة نقل صغيرة أمام الباب... إنها سيارة إسعاف.

«لا. بربكم. لا».

فتح سائق سيارة الإسعاف بابَها الخلفي ونادى بعض المتفرجين لمساعدته. حمل التابوتَ غير المزين عددٌ من الرجال أكبر بكثير مما يلزم لحمله فوضعوه على أكتافهم وساروا خلفَ الفتاة التي قادتهم، شاحبة اللون لكنها متماسكة إلى حيث الملاءة البيضاء وبتلات الورد الحمراء: الآن، اكتملَ مشهد الشهادة! وضع الرجال التابوت أرضًا، لكن الفتاة أرادت منهم أكثر من ذلك. تحدثت مع سائق سيارة الإسعاف فهز

رأسَه بشدة وأشار إلى السماء السديمية... لعله يقصد الله بتلك الإشارة، أو لعله يشير إلى الشمس التي بدأت تميل في اتجاه الغرب. ركعت الفتاة إلى جانب التابوت ووضعت على غطائه، عند الزاوية، كفًا فوق كف وراحت تضغط بكل قوتها وهي جاثية فارتفعت ركبتاها عن الأرض قليلًا. سمعَ كارامات نفسَه يقول: «أبعدوا الكاميرات عنها».

لم يلبث خشب التابوت أن تهاوى، بدأ يتحطم.

قال جيمس: «يا إلهي، لا، يا إلهي».

كان الدوباتا[1] قد سقطَ عن رأسها، وتدلى شعرها الطويل فغطى وجهَهَا وراحَ يتراقص في الريح التي اشتدت قليلًا. كشف التابوت عن ضعف خشبه وسوء صنعته، وراحت المسامير تتخلع من الخشب بينما الفتاة منهمكة في تفكيكه بيديها المجردتين. حطمت جوانب التابوت واحدًا بعد واحد إلى أن لم يبق إلا شكل منحصر بين قاعدة التابوت والطبقة العليا المصنوعة من خشب خفيف. جلست الفتاةُ مقرفصةً كما لو أنها لم تتوقف إلا الآن، إلا في هذه اللحظة، عن التفكير في ما تطلب من عينيها النظرَ إليه. أو لعلها كانت تنتظر ما حدث بعد ذلك: اشتدت الريح الصفراء البنية فحملت قطعَ الخشب الخفيفة وطوَّحت بها في الهواء مصدرةً أصواتًا تشبه أصواتَ السياط.

جثت الفتاةُ على ركبتيها ووضعت يديها على الأرض، إلى جانبيها، وانحنت إلى الأسفل مثلما قد يفعل طفل ينظر إلى حيوان غريب وجده في الحديقة. إنه أخوها، مقمَّطٌ، يبدو شكله على غير ما يرام. كيف يمكن قول هذا بطريقة أخرى؟ إنه ميت.

رفعت يدَها، ثم نظرت إليها كما لو أنها ليست واثقة مما تريد فعله

---

(1) شال يستخدم غطاء للرأس في جنوب آسيا.

بعد ذلك، ثم راحت تراقبُ كفها التي نزلت فاستقرت على جبهة ما كان أخاها التوأم في وقت من الأوقات. ابتعدت تلك اليد عن جبهته، ثم عادت إليها، ثم انزلقت على جلده حتى بلغت صدغه. رأت الكاميرات تلك الغرزات، ورآها كارامات، قبل أن تحسَها يد الفتاة: إنه المكان الذي دخل منه الموت إليه. ظهر تعبير انزعاج على وجهها عندما لمست الخيطَ كما لو أنها معترضة على سوء الصنعة، لا أكثر. ارتفعت اليد من جديد، ثم نزلت إلى رسغ الجثة فضغطت بإصبعيها على المكان الذي يجب أن يكون موضع النبض. انفتح فمها، ولعل كلمة خرجت منه، أو لعله صوت... لكنه لم يكن شيئًا تستطيع الماكروفونات التقاطه.

قال جيمس كلمتين اثنتين «أنظمة البث» ولم يضف عليهما شيئًا. كان كل هاتف في الغرفة يرنُ الآن. وكان هنالك من يطرق باب الغرفة أيضًا. صاح كارامات بهذه الأصوات كلها: «اخرسوا».

الآن، وصلت العاصفة الرملية التي أرسلت نذرها قبل قليل، وصلت ريحها العنيفة المندفعة. ارتفعت زوايا الملاءة البيضاء عن الأرض فأزاحت عنها قطعة خشبية مستطيلة كانت تثبتها، وارتفعت بتلات الورد طائرة في الهواء، ثم سقطت على الأرض وقد اكتست وحلًا. انتزعت الريح أوراقَ أشجار التين الهندي وراح العالم كلع يتمايل يمنة ويسرة. شدت النساء أوشحة الدوباتا على وجوههن، وانكمش الرجال على أنفسهم. التصقت أعشابٌ اقتلعتها الريح بعدسة إحدى الكاميرات. أما الكاميرا الأخرى فاقتربت من الفتاة ذات الملابس البيضاء فظهرَ وشاحها طائرًا في اتجاهها، ثم ظهرت صورةٌ قريبة جدًا لأزهار مطرزة على ذلك النسيج الأبيض، وبعدها أظلمت الصورة.

مضت بضع لحظات لم يُسمع خلالها غير صوت كالعواء، وكانت الريح تعصف بتلك الحديقة، ثم امتدت يدٌ فانتزعت قطعة القماش البيضاء عن الكاميرا فاتضح أن الصوت الذي يشبه العواء كان صادرًا عن

الفتاة وقد اكتسى وجهَهَا بطبقةٌ من الغبار وصار شعرها الأسود شلالًا من طين وتشابكت أصابعها فوق وجه أخيها. كان عواءً عميقًا يتجاوز الفتاة نفسها وكأنه يخرج من الأرض فيعبرها وينصبّ في مكتب وزير الداخلية الذي تراجع خطوة إلى الخلف. وكما لو أن تلك هي النتيجة الوحيدة التي كان المشهد كله مصمَّمًا لتحقيقها، هدأت الريح فجأة مثلما انهارت المباني في صورة الخريطة ثلاثية الأبعاد، وصمتت الفتاة، ثم فكّت أصابعها المتشابكة. غامت صورة الكاميرا قليلًا، ثم استقرت. في ذلك الاضطراب القياميّ كله الذي اجتاح الحديقة، ظل شيء واحد غير مدفون تحت الحطام وتحت الغبار، إنه وجه الفتى الميت.

قال وزير الداخلية: «مؤثّر!»

لعقت الفتاة إبهام يدها، ثم مرت به على فمها فرسم الإبهام شفتين على تلك القناة الترابية. وبعد ذلك، نظرت مباشرة إلى وزير الداخلية وقالت:

«في قصص الطغاة الأشرار، تجري معاقبة الرجال والنساء بالنفي، وتظل أجسادهم بعيدة عن عائلاتهم بعد موتهم... تُرفع رؤوسهم على الحراب، ويُلقى بجثثهم في قبور لا شواهد لها. تحدث الأشياء كلها بما يتفق مع القانون، لكن ليس بما يتفق مع العدالة. إنني هنا لكي أطلب العدالة. أناشد رئيس الحكومة: دعني أعيد أخي إلى البلاد».

ألقى كارامات بثقالة الورق على طاولة المكتب. رأى الأسد ووحيد القرن يتحركان فابتسم. بعد هذه الضجة كلها، وبعد هذا المشهد كله، ليست هذه أكثر من فتاة سخيفة.

***

عادة ما يكون «استجواب رئيس الحكومة»[1] مناسبة محرجة. سخرية وتهكّم طفوليان: يستعرض رئيس الحكومة قدرته في هذا الميدان السهل، في ميدان السخرية من الآخرين. وأما المستشار (أو «السرطان»[2] مثلما يفضِّل كارامات أن يسميه في سره)، فيكون جالسًا إلى جانب رئيس الحكومة وعلى وجهه تعبير هو مزيج من التزلّف والترفّع، لكنه مزيج صالح لإظهار الدرجة المناسبة من التأييد على الشاشات. صار البرلمان ملعبًا. لقد كان كارامات اليوم خائفًا على نحو خاص: إنها أول جلسة «استجواب رئيس الحكومة» منذ بداية «قضية باشا». وقد ظل رئيس الحكومة، الذي كان خارج البلاد خلال الأيام القليلة الماضية، صامتًا إلى حد مقلق حول ما يتعلق بهذه المسألة كلها. إن من شأن أي حجب لدعمه عن وزير داخليته أن يكون نصرًا للـ«السرطان» ونصائحه في مجال القيادة. لكن الفتاة كانت قد فتحت فمَها وتكلمت.

«رؤوسٌ مرفوعة على الحراب. وجثثٌ ملقاةٌ في قبور لا شواهدَ لها. صحيح... هنالك أشخاص يقومون بهذه الأفعال. وقد رحل أخوها عن بريطانيا لكي ينضمَّ إليهم».

ارتفع رئيس الحكومة فوق السياسات الحزبية، وارتفع زعيم المعارضة فوق السياسات الحزبية فانضمَّ إليه، وكانت هنالك صيحات محبّذة من الجانبين. جرى امتداح وزير الداخلية لاتخاذه القرارات الصعبة التي كان عليه أن يتخذَها، ولثباته في وجه المحنة الشخصية التي ألمّت به فلم يكن لها أيّ أثر على سلامة أحكامه ولا على التزامه بفعل ما هو صواب. بل إن «السرطان» وجد نفسَه مضطرًا إلى أن يميل في اتجاهه

---

(1) تقليد برلماني بريطاني يقضي بمثول رئيس الحكومة أمام البرلمان مرة في الأسبوع ليمضي نحو نصف ساعة في الإجابة على أسئلة يوجهها إليه أعضاء البرلمان.

(2) كتابة الكلمتين في اللغة الإنجليزية متشابهة بعض الشيء.

عبر الفراغ الذي تركه رئيس الحكومة عندما نهضَ ليقف على المنبر، فربَّت على كتف كارامات تربيتًا محبَّذًا. وكان عصبٌ صغيرٌ ينبض قرب عينه... علامة رأى فيها كارامات اعترافًا منه بهزيمته.

* * *

كان جيمس ينتظره في غرفته الواقعة خلفَ مكتب رئيس المجلس. وجدَه عندما دخل يقوم بحركات تحاكي بعضَ تلك الحركات الفظيعة التي يقوم بها مشجعو كرة القدم عندما يحتفلون بنصر ما: مزيجٌ دقيقٌ من الصدق والسخرية. تمنى كارامات، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يتمنى فيها هذا، أن تكونَ ابنتَه وجيمس معًا. لكن ذلك جعله يبدأ التفكير في ابنه وابنته وفي خياراتهما العاطفية... يمكن رؤية أن أنيقة باشا من ذلك النوع من الفتيات اللواتي تفعلن أي شيء. فتاة بهذا الجمال مستعدة لفعل كل شيء! لم تكن لابنه المسكين أيّ فرصة في النجاة. جلس ثقيلًا على كرسيه وأحس اشتياقًا إلى زوجته. ما كان اشتياقًا مثلما اعتاد أن يشتاقَ إليها عندما كان في سن إيمون، بل هو ذلك الاشتياق الذي لا يستطيعه إلا أحد الوالدين عندما يصيب ألمٌ طفلهما.

أومأ برأسه إلى جيمس حتى يُجري المكالمة الهاتفية التي لا بدّ منها. ثم تكلم بالأوردو عندما ناوله مساعده الهاتف. تكلم بالأوردو لمجرد معرفته أن تلك السمكة المنتفخة ذات الهيئة البشرية، التي هي المفوَّض الباكستاني الأعلى في لندن، ستفترض عندما تسمعه أن وزير الداخلية يظنُها غير قادرة على الكلام جيدًا باللغة الإنجليزية.

سأله كارامات: «ما هذه الألاعيب التي تحاولونها الآن؟»

أجابه المفوض الباكستاني باللغة الإنجليزية: «هذه طريقةٌ غريبة لبدء تقديم اعتذار».

«لست أنا من يترتّب عليه أن يعتذر. ما كان يمكن للجثة أن تصل إلى

تلك الحديقة لو لم توافق حكومتكم على ذلك؛ أو لو لم ترتّبه بنفسها».

قال المفوَّضُ الباكستاني بنبرة صوت غير مقنعة: «ماذا، ماذا؟ لقد طلب أقرب أقاربه إحضار الجثة إلى مكان محدَّد... فما الذي يبرر لسائق السيارة أن يرفض هذا؟ وأما عمّا يتعلق بحكومتي، فإن لديها أمورًا تهتم بها أكثر من قضية نقل جثة».

«لكني أفترضُ أن أحدًا سينقل تلك الجثة من الحديقة... انطلاقًا من الاعتبارات الصحّية على أقل تقدير».

«إنني ممثلُ بلادي لدى بلاط سان جيمس.(1) فهل تظن أن من مهمتي مخاطبة المجالس المحلية في كراتشي؟ لكن، لعل الأمور مختلفة في بريطانيا. وفي تلك الحالة، أرجو أن تخبر من يأتون لأخذ القمامة أن عليهم ألّا يصدروا ذلك الضجيج كله عندما يأتون في الصباح».

«ما أخبار طلب تأشيرة الدخول الدراسية الذي قدمه ابنك؟»

«في حقيقة الأمر، لقد قرّر ابني الذهاب للدراسة في هارفارد بدلًا من جامعة أكسفورد.(2) لقد قالت تلك الفتاة بعض الأشياء التي تثير الاهتمام حقًا، ألا ترى ذلك؟»

بدا له أن الحديث قد بدأ يكف عن كونه ممتعًا فتحول للحديث بالإنجليزية: «لا بأس، لقد قلت شيئًا ما كان ينبغي لي قوله. إن القضاء في باكستان مفخرة من مفاخر البلاد».(3)

وأضاف المفوض على نحو غير متوقع: «حفنة من أولاد الحرام...» ثم كان هو من غير اللغة هذه المرة. لا إلى الأوردو بل إلى اللغة

---

(1) أي البلاط البريطاني.

(2) جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأميركية، أما جامعة أكسفورد ففي إنكلترا.

(3) إنه يعتذر بهذه العبارة عما بدر منه من سخرية تجاه قول أنيقة إنها ذاهبة إلى باكستان من أجل العدالة.

البنجابية... «اسمع، إنني أب أيضًا، وأنا أتمنى مثلك أن تختفي تلك الفتاة من الأخبار».

«ليس الأمر هكذا».

«أوه، أطبق فمك يا صديقي. إنني أبدي تعاطفي معك». سمح له استخدام اللغة البنجابية بهذا التجاوز للإتكيت فشعر كارامات أن شيئًا في جسمه كله قد تغير وصار أقل توترًا. شد كتفيه في مواجهة هذا الإحساس.

وتابع المفوض يقول: «المسألة هي أن حكومتي لا تجد سببًا يدعوها للتدخل في الأمر».

«تدخلوا من باب اللياقة. أي جنون ذلك الذي يجعل أحدًا يترك جثة تتفسخ في ذلك الجو الحار؟»

«إنه جنون الحب. هل تذكر مجنون ليلى يا كارامات؟ الحبيب الذي استبدّ به الحزن على الحبيبة الجميلة فراح يتجول في الصحراء على غير هدى. لقد نجحت هذه الفتاة الجميلة في العاصفة الرملية في أن تصير ليلى ومجنونها مجتمعَيْن معًا في ضمير الأمة. أو مثل ساسي وبونو(1)في بعض أجزاء الأمة. إنها القصة نفسها باستثناء أن الفتاة تجري في الصحراء هذه المرة وقد أفقدَها جنون الحزن عقلها. تجري بحثًا عن حبيبها».

«لكن، أليست الأمة التي قررت تنصيبَها بطلة رومانسية هي الأمة نفسها التي تريد جلدَّها عقابًا لها على الزنا».

«أوه، لقد بدأ الناس يقولون إن حكومتك قد اختلقت تلك القصة كلها عن العلاقة التي جمعتها بابنك حتى تتسبب لها بالخزي؛ إلا أن الرأيَ العام منقسمٌ بين من يقول إنك من فعل ذلك ومن يقول إن خصومَك هم

---

(1) ساسي وبونو قصة حب في الفولكلور السندي والبلوشي.

الذين يقفون خلفه. وفي الحالتين، فإن اتخاذَ أي إجراء ضدها الآن أمرٌ صعبٌ علينا».

«بحق الله يا رجل، هل تتوقع مني فعلًا تصديق أن حكومتَك تتخذ قراراتها استنادًا إلى هذه الخلطة من الحكايات الشعبية ونظريات المؤامرة؟»

«أنت بريطاني حقًا بقدر ما يقولون إنك بريطاني. اسمح لي بأن أعبّر عن الأمر كله بلغة يمكنك فهمها: لقد قرر الشعب، ومعه عددٌ غير قليل من أحزاب المعارضة، أن يحتضنَ هذه المرأة التي وقفت في وجه حكومة قوية؛ ليس في وجه أي حكومة قوية، بل في وجه تلك الحكومة التي لها سجل علاقات عامة شديد السوء في ما يتعلق بالمسلمين، بل بلغ الأمر بها البارحة حد توجيه إهانة مباشرة إلينا. هذا يعني أن من الانتحار السياسي الآن أن تورّطَ حكومتي نفسها في هذا الأمر. آمل أن أراك في الدعوة التي سنقيمها في مناسبة العيد، وإلى ذلك الوقت، في حفظ الله».

انفتح الباب من خلفه. إنهم المساندون المتوقعون وبعض المساندين غير المتوقعين أيضًا. دخلوا وراحوا ينحنون ويرمون بقبعات وهمية في الهواء. مسح كارامات فمه... إنه طعم التراب.

* * *

كان في تابوتٍ مصنوع من ألواح الجليد. أميرٌ في قصة من قصص الخيال. قال صاحب أكبر مصنع لألواح الجليد في المدينة إنه قرر تقديمَ منتجاته تبرعًا؛ وأعلن سائق شاحنة أنه سينقل تلك الألواح كنوع من الواجب الديني. وراح كل من كان موجودًا في الحديقة يأخذ دوره في تفريغ ألواح الجليد من الشاحنة ونقلها عبر سلسلة بشرية إلى تلك الملاءة البيضاء التي صارت الآن مبتلة كلها بالجليد الذائب. عندما ينتقل الجليد من أيديهم إلى أيدي من بعدهم، يرفعون أكفَّهم فيمسحون بها وجوههم: لسعة البرد في مواجهة لسعة الحر. وأما من كانوا أقرب

إلى الجثة فقد غطوا وجوهَهم بقطع من ملابسهم. كانت شفافية الجليد تجعل القنوات الإخبارية قادرةً على مواصلة التغطية الحية من غير قلق تجاه ما يتعلق بأنظمة البث التلفزيوني ومعاييره. فقد كانت الجثة لا تبدو الآن أكثر من شكل عام مشوَّش بعض الشيء. لم تكن الفتاة تساهم في عملية إعادة البناء المستمرة للتابوت الذي يذوب باستمرار، ولم تفعل شيئًا لوقفها. لم تكن مصرّة على شيء غير أن يظلَ وجهه مكشوفًا. الآن، ومع تلوّن السماء بألوان الغروب، كانت الفتاة واقفة مستندة بظهرها إلى شجرة التين الهندي وعيناها لا تحيدان عن ذلك الوجه.

أهذا هو وجه الشيطان؟

طرحت هذا السؤال صحيفة من الصحف الشعبية الرائجة فوضعته إلى جانب صورة الفتاة عندما كانت تنوح بصوت كالعواء والرمل يعصف بكل شيء من حولها. «قذرة»، «ابنة إرهابي»، «عدوة بريطانيا». هذه هي الكلمات المستخدمة في وصفها بحسب ما أوردته الصحيفة التي وضعت كل كلمة منها بين قوسين مزدوجين كأن ذلك كان برهانًا على ما تقوله. هل يقوم وزير الداخلية بتجريدها من الجنسية جراء عملها ضد المصالح الحيوية للمملكة المتحدة، وهو ما فعلته بالتأكيد عندما قدّمت الدعم لأعداء بريطانيا؟ وضع وزير الداخلية الصحيفة جانبًا مطلقًا زفرة انزعاج، ثم تابع النظر إلى أنيقة باشا. عند عدم وجود شيء جديد تعرضه القناة التلفزيونية، كانوا يجرون مقابلات مع أشخاص جدد فيحمل الصحفيون المايكروفونات أمام وجوه «ممثلي المجتمع المدني» الذين أتوا تعبيرًا عن تضامنهم مع الفتاة المفجوعة بأخيها وراحوا الآن يوقدون الشموع في عتمة الغسق المتزايدة.

ما كانت هنالك حاجة إلى فعل شيء دراماتيكي كثيرًا من قبيل تجريدها من الجنسية البريطانية. فهذه نقلة يقود تتبع أثرها إلى اكتشاف «دوافع شخصية». لا يمكنها العودة إلى المملكة المتحدة بجواز سفرها

الباكستاني من غير تقديم طلب للحصول على تأشيرة دخول بريطانية. ومن الممكن أن يرحب الوزير كل الترحيب بأن تفعل ذلك إن هي أرادت هدر وقتها ومالها. وأما جواز سفرها البريطاني الذي صادرته الأجهزة الأمنية في المطار عندما حاولت اللحاق بأخيها في اسطنبول، فهو ليس مفقودًا ولا مسروقًا ولا انتهت مدة صلاحيته، وبالتالي فما من مبرر يسمح لها بطلب الحصول على جواز سفر جديد بدلًا منه. فلتبق بريطانية؛ أو... فلتبق بريطانية خارج بريطانيا!

كانت الشموع تلقي بانعكاسات ضوئها على التابوت الجليدي. شعلاتٌ ترتعش على امتداده فتخلق انطباعًا بأن في داخله شيئًا يتحرك. سار كارامات إلى النوافذ ففتح ستائرها سامحًا بدخول ضياء شمس العصر، ثم نظر من النافذة إلى مشهد شارع مارشام المألوف الذي صار مؤثرًا فجأة بكل ما فيه من تفاصيل الحياة اليومية... سيارات متوقفة في ساحات الوقوف، وامرأة سائرة في الشارع حاملة أكياس التسوق المعلقة من رسغيها، وأشجار اصطفت جذوعها واحدة تلو الأخرى. إنها لندنه، إنها لندن الجميع... الجميع ما عدا أولئك الذين يريدون إيقاع الأذى بها. مس شريان رقبته وأحس انبعاث حرارة دمه الجاري فيه.

***

عاد إلى بيته في هولاند بارك بعد البرنامج الإخباري المسائي. كانت مقابلة صعبة مثلما توقعها، لكنه حافظ على هدوئه وأوضح أنه لم يقدِم أبدًا على اتخاذ قرار متعلق بجثة... كان قراره متعلقًا بـ«عدو حيٍّ لبريطانيا» (استخدم هذا التعبير ثلاث مرات؛ وهو ما بدا له كافيًا على الرغم من أنه كان قادرًا على استخدامه مرة رابعة في تلك المقابلة). بل إن تعبير «إعادة الجثة إلى الوطن»، أي ما أرادته الفتاة لجثة أخيها، فقد كانت غير ذات أساس استنادًا إلى حقيقة أن الجنسية البريطانية قد سقطت عن صاحب الجثة منذ اليوم الذي تولى فيه كارامات لون منصبه

فبعث برسالة شديدة الوضوح إلى من يتعاملون مع امتياز المواطنة البريطانية باعتباره شيئًا يمكنهم خيانته من غير تحمّل العواقب. لا، لم يكن يرى أن من القسوة في شيء أن يبعث بتلك الرسالة، حتى إلى الفتيات اللواتي ذهبن «عرائس للجهاديين». لقد ولّى الزمن الذي كان يمكن فيه لأي شخص أن يتظاهرَ بأنه لا يعرف تمامًا نوع عبادة الموت تلك التي هو ذاهب لكي ينضم إليها. كان الشعب البريطاني مؤيدًا له، وهذا ما يشتمل أيضًا على أكثرية البريطانيين المسلمين. ارتفع حاجبا مقدم البرنامج عندما سمع ذلك.

قال له: «هل أنت واثقٌ من هذا؟ يبدو لي أن هنالك نوعًا من رأي شائع كرره في هذا البرنامج يوم أمس ممثل الجمعية الإسلامية في بريطانيا[1] ومفاده أنك تكره المسلمين».

لكنه أجابه بهدوء: «إنني أكره المسلمين الذين يجعلون الناس يكرهون المسلمين».

صعد إلى الطابق العلوي، ومضى إلى غرفة النوم التي نُفيَ منها. لا بد أن تيري كانت تتابع البرنامج، وهي تعرف كم كان ذلك السؤال جارحًا. كان يدرك أنه سيجدها لا تزال غاضبة إزاء ما تعتبره فشلًا له في حماية إيمون. لكن، رغم ذلك، فلا بد أنها رَقَّت له الآن. ما كان يريد منها غير السماح له بأن يستلقي إلى جانبها حتى من غير أن يمسّها حقًا... غير مسامَح، لكن ليس غير مرغوب فيه! وفي لحظة ما في تلك الليلة، سوف تمس قدمَه بقدمها: طقوس المصالحة التي اختُصرت إلى هذه الحركة الصغيرة خلال أكثر من ثلاثينَ سنة من عيشهما معًا. لقد قالت له قبل بضعة أسابيع في الذكرى السنوية لأول لقاء بينهما: «صار حبُنا الآن في أواسط عمره تقريبًا». كانت تحاول إخفاءَ مقدار انزعاجها من عودته

---

(1) منظمة إسلامية بريطانية قريبة من تنظيم الإخوان المسلمين.

متأخّرًا جدًا من مكتبه في شارع مارشام ونسيانه ذلك التاريخ الذي اعتادا أن يحتفلا به احتفالًا خاصًا بهما خلافًا لذكرى زواجهما السنوية التي كانت، على وجه العموم، مناسبةً عائلية أو مناسبةً ذات طابع اجتماعي إلى حد ما. كان هذا النسيان غلطةً غبية لأنها أتت بعد شهور فقط من قيام زوجته بنقل نفسها إلى دور شكلي في عملها؛ وقد كان ذلك شيئًا تحدثت عنه كثيرًا في الماضي إلا أنه لم يظنها ستُقْدِم عليه في يوم من الأيام.

«يجب أن يكون أحدنا نقطة ثابتة في الكون، وإلا فلن يرى أحدنا الآخر إلا قليلًا». لقد قالت هذا عند إعلان قرارها فكان الإشارة الوحيدة إلى أنها اتخذت ذلك القرار بسبب ترقيته الوشيكة إلى منصب وزير الداخلية.

أقل ما كان يمكن أن يفعله بالمقابل هو ألّا ينسى تلك الذكرى السنوية اللعينة! لقد كان، بشكل عام، رجلًا يعترف بغلطته لحظة ارتكابها، ثم يصححها (كان قد أتى لها بطعام الإفطار في سريرها صبيحة اليوم التالي، كما أبدى قبل ذهابه إلى العمل اهتمامًا ولطفًا بطرق أخرى يعرف أنها تسرها)، ولا يفكر فيها بعد ذلك أبدًا لأن هذا النبش لإخفاقات الماضي كان إزعاجًا يضاف إلى منغّصات كل جزء من أجزاء يومه، من توتّر شواريز إلى حديثه مع ابنه إلى ذلك السؤال عن كرهه للمسلمين، إلى تلك الفتاة... تلك الفتاة القذرة.

«لا...» هذا ما قالته تيري عندما فتح باب غرفتها... «لا... اخرج».

قال لها مشيرًا إلى الكرسي الصغير أمام طاولة الزينة: «سأجلس هناك».

«لقد تحدثت مع ابننا. أخبرني عما قلته له. أخبرني عن كلامك عن مضاجعتها إياه وقولك إن هنالك أحسن منها بكثير. فهل أنت خبير في من هنَّ أحسن بكثير؟»

أجابها وهو يرخي ربطةَ عنقه ويخلع حذائه: «مهما تكن عيوبي، فأنت تعرفين أن هذا ليس واحدًا منها».

«كنت أعني ما قلته يا كارامات. اخرج».

لا سبيلَ إلى مجادلتها عندما تكون في هذا المزاج. أمرٌ لا يصدَّق أن يكون ابنه قد نقل إلى أمه ذلك الجزء من كلامهما... ألا يعرف شيئًا عن القواعد التي بينهما؟ نزل السلم وذهب من جديد حتى يواسي نفسَه بزجاجة نبيذ أحمر غالية الثمن إلى حد يثير الضحك أتتهما هدية، وكانت تيري محتفظة بها للمناسبات الخاصة. كان الطابق الأرضي مكان اللقاءات الرسمية؛ وكان القبو الحيّز الذي يعزل فيه كارامات نفسَه عن أسرته... كلٌ منهما في مكان يشعره بالغربة في الوضع الحالي. أخذ النبيذ وخرج إلى الشرفة المسقوفة فجعلته الظلال المتحركة يجلس القرفصاء حتى يصير هدفًا صغيرًا إلى أقصى حد ممكن، لكنه سرعان ما أدركَ أنها ظلال من هم هناك لحمايته. انتهى به الأمر في المطبخ فجلسَ على طاولته مؤرجحًا قدميه مثلما اعتادَ طفلاه أن يفعلاه عندما كان يحضّر لهما طعام الإفطار بينما تكون زوجته في رحلة عمل. لقد أُزيلت طاولة المطبخ القديمة منذ زمن بعيد وحلت محلها جزيرة لامعة من الكروم حتى توفّرَ مساحةً أكبر لألواح تقديم الجبن، وأطباق المقبلات، وكؤوس الشامبانيا. رفع كمَّيْ قميصَه، ثم حمل كأس النبيذ. لقد اعتاد رانجيتسينجي، أولَ لاعب كريكيت هندي أحبه الإنكليز، أن يزرِّر كمَّيْ قميصه عند المعصمين حتى يخفي سَمار بشرته... كان في حمل كأس النبيذ غالي الثمن ما جعل كارامات يفهم كيف كان إحساس ذلك الرجل. ترك النبيذَ قليلًا في فمه قبل أن يجري نازلًا إلى جوفه بكل الوهن والتراخي المميِّزَيْن لما هو غالي الثمن كثيرًا.

سمع نقرات خفيفة على الباب المفضي إلى الخارج، ثم دخل شواريز بعد لحظة من ذلك.

«شواريز! ألا يجب أن تكون في استراحة الآن؟»

«اتصل بي رجالي. هنالك امرأةٌ كانت تأتي وتذهب في الشارع. سألها جونز آخر الأمر عما تريده فقالت له إنها تعرف أنك تعيش في هذا الشارع، لكنها لا تعرف البيت على وجه التحديد، فظنت أن رجال الأمن سوف يظهرون لها إذا تسكعت هنا بعض الوقت».

قال كارامات مستغربًا: «ومن هي تلك المرأة؟»

«إنها عصمة باشا. وهي أخت...»

«أعرف من هي. آتِ بها إلى هنا».

«إلى هنا؟»

«لم تربّني أمي على أن أردّ امرأة عن بابي فأجعلها تعود إلى الشارع في منتصف الليل. وأيضًا، يا شواريز، ليس لديك اليوم إلا عناصر من الرجال، أليس هذا صحيحًا؟ فليكن التفتيش الجسدي في حدوده الدنيا».

«تأخر الوقت على هذا يا سيدي. أمنُك يأتي في المقام الأول».

عندما دخلت، مسحت عيناها أبعاد المطبخ الكبير فشعر كارامات بأن نوعًا من التقييم قد جرى خلفَ تلك العينين. سكب النبيذ في كأس ثانية ودفعها في اتجاهها على السطح المعدني بينهما.

أجابته: «لا، شكرًا لك». قالت هذا بدلًا من «أنا لا أشرب» مع شفتين مزمومتين مثلما توقّع أن تكون إجابتها. ما كان فيها شيء يشبه تلك الفتاة الأخرى... لا لجهة تقاطيع الوجه ولون الجلد فحسب، بل أيضًا لجهة وقفتها المتحفظة، كما لو أن لديها من الإدراك قدر كافٍ لجعلها تفهم أنها في حضرة رجل صاحب سلطة كبيرة وأن هذا الرجل يمكن أن يقرر استخدام سلطته. قال في نفسه: عذراء، على الأرجح، ثم تساءل متى صار رجلًا تكون له ردة الفعل هذه عند رؤية امرأة تغطي رأسها، امرأة لم تبذل أي جهد حتى تبدو شيئًا غير امرأة عادية بسيطة الملبس.

أخذ جرعةً كبيرة من كأسه، ثم قال لها: «قد يستحق هذا النبيذ الذهاب إلى جهنم».

رفعت كأسَها بكلتا يديها وتشممت محتوياته: «رائحته كالبترول».

مرت به لحظة شعر بها في رأس معدته، لحظةٌ ظن فيها أنها ستتناول جرعة من الكأس لأنها تظنه يطالبها بذلك ثمنًا للإصغاء إلى ما تريد قوله. سألها بنبرة في صوته جعلت شواريز يتقدم من مكان وقوفه عند الباب حتى يرى ما فعلته الفتاة: «ماذا تريدين؟»

«أريد أن أطيرَ إلى كراتشي في الصباح من غير أن يعترضني أحد في المطار فيمنعني من السفر».

أخذ كأسها وسكب ما فيه من نبيذ في كأسه: «كان تصريحك للصحافة مثلما يجب أن يكون تمامًا. وقد جعلني أظنك شخصًا منطقيًا».

«إنها أختي. بل هي طفلتي تقريبًا».

«إلا أنها لا تبدي كبيرَ اهتمام بك، رغم ذلك. أليس هذا صحيحًا؟»

«هل تحب أطفالك استنادًا إلى مقدار الاهتمام الذي يبدونَه تجاهك؟»

«انتبهي إلى كلامك». هذه ليست مجرد فتاة! إنها امرأة ناضجة، أكثر خطرًا بكثير من تلك المشؤومة المعفرة بالتراب.

«إيمون يعبدك. وقد تركتَ العالم يظنه شخصًا غبيًا».

«كان هذا من فعله، لا من فعلي. ألم يكن يتعين على فتاة منشغلة البال بأخيها إلى هذا الحد أن تقول عنه شيئًا يثير لدى إيمون بعض الشك؟... أو عن أبيها؟»

استندت بظهرها إلى البراد فمس مرفقها زر مكعبات الجليد. خرجَ من الفتحة مكعّبان اثنان بحركة انسيابية قبل أن تنتبه فتبعد مرفقها. كانت هذه الكفاءة الصامتة في عمل الآلة مصدر خيبة أمل له على الدوام... في طفولته، كان يشتهي وحدةَ مكعبات الجليد في باب البراد لدى أقاربهم

في ويمبلي، تلك التي تُصدرُ قرقعة وأنينًا. وأما عصمة باشا المقيمة في بريستون رود، الناحية التجارية في منطقة ويمبلي، فقد تناولت أحد المكعبين من الشبكة التي استقرا فيها فصارت، لحظة خاطفة، تجسيدًا لطموحاته الطفولية. من المؤكد أنها واحدة من الذين يمكن إنقاذهم، على الرغم من سوء أفراد أسرتها.

«كان إيمون يعرف عن أبينا منذ البداية. لقد أخبرْتُه عنه، حتى قبل أن يعرف أنيقة».

كانت واقفة هناك ومكعب الجليد يذوب بين أصابعها من غير أن تعرف ما تفعله به بعد أن التقطته من مكانه. صورة شخص مرتبك لا خطرَ منه. ذئبٌ في ثياب حمل.

أجابها وهو يدير النبيذَ في كأسه ناظرًا نظرةً متأملة إلى بحر الدم المصغَّر في تلك الكأس: «كنت منطقية حتى الآن. فابق منطقية».

«ماذا؟ لا، لم أقصد...» وضعت مكعَّب الجليد في كأس النبيذ الفارغة فامتصّ لون القطرات الحمراء الباقية فيه... «هل تظنني يمكن أن أحاولَ وضعَ كلمتي في مواجهة كلمة مكتب وزير الداخلية؟ أو أنني قد أحاول جعل الأمر أسوأ بالنسبة إلى إيمون؟ لم أكن أعني غير الإشارة إلى أن ابنك صاحب شخصية أكثر مما تُقرّ له به. هنالك قوة في ما تظنه ضعفًا».

«أنت شديدة الحماسة فيما يتعلق بابني. يؤسفني أن الأمر لم ينتهِ به معك أنتِ بدلًا من أختك. لو كنت أنت، لقبِلت».

أجابته بنبرة مسطحة: «لم يُرِدْ أن ينتهي به الأمر معي».

رفع حاجبَيْه ناظرًا إلى كأس النبيذ بيده: «وهل كان خيارًا مطروحًا؟»

«لا».

«أرى ظلالًا من نعم في هذه اللا! قد نعود إلى الحديث في هذا الأمر

ذات يوم. لكن، فلنتعامل أولًا مع الوضع الذي نجد أنفسنا فيه الآن. أنت هنا لتطلبي مني شيئًا. لا بأس، فلنرَ كم أنت منطقية. هل تقنعين أختك بأن يجري دفن الجثة في كراتشي؟ على أية حال، لن تقبل أي شركة طيران نقلها وهي في تلك الحالة». لم يستطع تحويل نظره عن مكعَّب الجليد في الكأس، ذلك المكعب الذي بدأ الآن يذوب بلون وردي.

«لا مجال للإقناع هنا. لست أريد إلا أن أكون معها».

كانت تلك هي الكلمات نفسها تقريبًا التي استخدمها إيمون. «لا أريد إلا أن أكون معها». كلماتٌ عديمة المعنى من صبي ضعيف. لقد كان يكرر من غير انقطاع إطلاق هذه الصفة على ابنه: ضعيف. أمسك بالكأس شبه الفارغة المنتصبة أمامه على الطاولة فابتلع ما فيها من ماء بارد إلى حد الخدر، ماء فيه أثر طعم من شيء ما. نكهة جسد غريب في الجليد.

«شواريز، أين هو ابني؟»

«إنه في نورماندي يا سيدي، في عزبة السيدة أليس».

«هل يراقبه أحدٌ هناك؟»

«لا يا سيدي. ظننت أنه يكفينا أن نراقب تلك... أنيقة باشا... حتى نضمن عدم وجود تواصل بينهما، مثلما قلت لنا. هل تريد مني أن...»

«لا، لا. لقد فعلت الصواب. أشكرك يا شواريز على مجيئك في هذا الوقت المتأخر. يمكنك أن تتركها هنا معي. إنني أقرب منها إلى دُرْج سكاكين المطبخ».

عندما أغلق شواريز الباب من خلفه، قالت عصمة باشا: «إن لدى إيمون حسّ الفكاهة الذي لديك».

«لكنه أكثرَ طرافة».

«صحيح».

أخرج هاتفَه من جيبه وكتبَ لجيمس رسالة نصية: استعلم عما إذا كان ابني قد استخدم جوازَ سفره في الأيام القليلة الماضية. سرًا!

طوى ذراعيه على صدره ومالَ برأسه إلى الخلف. سمعَ صوت زفرة صغيرة صادرة عن عصمة باشا فنظر إليها ليراها قد اتخذت وضعيةً تشبه وضعيته. أسندت رأسَها إلى البراد. امرأة غريبة. من الواضح تمامًا أنها مفتونة بإيمون. لكن، لا يبدو أن لهذا أيُ أثر على تفانيها تجاه أختها.

قال: «لماذا تدرسين علمَ الاجتماع؟»

ما كان عليه أن يفتح زجاجة النبيذ... لن يؤدي هذا إلا إلى زيادة غضب تيري. لا شيءَ أبدًا يمكن كسبه من التصرف بتفاهة.

«أردت أن أفهمَ السببَ الذي يجعل العالم غير منصف إلى هذا الحد».

«ألا يجب أن يعطيك ربُّك تلك الإجابات؟» قال هذا وفوجئ بنبرة الإغاظة الخفيفة في صوته.

«لقد أعطانا ربُنا هذه الإجابات، على نحو غير مباشر».

قال لها: «وكيف هذا؟».. كانت جميلة عندما يكون وجهها هادئًا خاليًا من القلق.

«لقد خلق كارل ماركس، على سبيل البداية».

«أرى أن لديك حسًا فكاهيًا أيضًا».

«هذا إذا افترضنا أنني قلت نكتة». نظرت إليه نظرةً مباشرة فمرّ شيء بينهما... شيء لا علاقة له بالجنس، لكنه بدا له أكثر خطرًا. كانت مألوفة له، تذكّره بعالم فقده.

حرّك كتفيه محاولًا إرخاءَ التوتر فيهما. ونظر إلى ساعة المايكروويف فعجب كيف مرّ هذا الوقت كله ولم ينته اليوم.

«لا بد أنكِ رأيتِ ما كان يحدث لأخيك. لماذا لم تقولي شيئًا. كيف

أجعل الناس الذين هم مثلك يقولون شيئًا قبل أن يفوت الأوان على الفعل؟»

«رأينا أن شيئًا يحدث له؛ رأينا هذا أنا وأختي. ظننا أنه نوع من علاقة عاطفية لا يريد البوحَ عنها. ظنناه الحب الأول. وقد كان كذلك، بطريقة ما. فما الذي يفسرُ انقلابَ شخص رأسًا على عقب في زمن لم يتجاوز بضعةَ أسابيع؟ هل رأيت ما كان يحدث لابنك؟»

شعر بعضلات وجهه تتقلص: «دعيني أقول لك هذا: إذا اتضح أنك محقة، وأنني مخطئ؛ وإذا كان هنالك إلهٌ حقًا وأرسل ملاكه ليحمل أخيك وأختك معه بين جناحيه فيطيرُ بهما عائدًا إلى لندن على أجنحة من نار، فلن أسمح له بالدخول. هل تفهمين هذا؟ لن أسمح بذلك حتى إن جاء بهما الملاك».

«شخصان عمرهما ثمانية عشر عامًا، وأحدهما ميت!»

كان هذا كل ما قالته.

جعل هدوء نبرة صوتها ما قاله عن الملاك وأجنحته النارية (اللغة التي كان يستخدمها أهله) يبدو شيئًا هستيريًا، مثلما كان تمامًا. مرّ بلسانه على أسنانه ليساعد نفسه في صياغة رد يقضي به على كل من عصمة باشا وهفوته العابرة تلك، لكن اتصالًا أتاه من جيمس فشوَّش ذهنَه. أجاب على الاتصال، وقال: «نعم»، ثم قال: «أشكرك». أغلق الهاتف وسكب محتويات كأس النبيذ في الزجاجة من جديد من غير أن يهدرَ قطرةً واحدة منها. إنه في حاجة إلى صفاء الذهن عندما يأتي الصباح.

قالت له: «هل ستسمح لي بالسفر غدًا؟»

«لن تكون لك أهمية غدًا. افعلي ما تشائين».

خرج من المطبخ، ثم نزلَ إلى القبو. مرّ في طريقه بطاولة صغيرة عليها صورة مبتسمة لإيمون. حمل الصورة وقبّل خد ابنه. يا ولدي الجميل.

لحظة تأخّرٍ واحدة أباح فيها لنفسه رفاهية أن يكون أبًا لديه ابن... ابن كان سائرًا في اتجاه معاكس لاتجاه البيت، وكان يحرق الجسورَ من خلفه، ويسير في درب نارية في السماء.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل التاسع

لم يكن كارامات يتذكر أيّ شيء من أحلامه على الإطلاق. وعندما أيقظه شيءٌ في منتصف الليل، كانت أول فكرة تخطر في ذهنه هي أنه لا بد أن يكون في الغرفة حضور غير مرغوب فيه جعل قلبَه يخفق سريعًا إلى حد أيقظ بقيةَ جسده. لكن غرفةَ النوم الاحتياطية في القبو كانت غارقة في هدوء تام، وكان من الواضح أن ما من شيء عكرَ هذا الهدوء منذ بعض الوقت. كان الباب الزجاجي المنزلق ذو الستارة التي تُرفَعُ إلى الأعلى مشرفًا على فسحة سماوية صغيرة لها سقفٌ زجاجي في الأعلى ومرايا مرتبة بعناية بحيث تعكس الضوءَ البارد المحيّر إلى داخل غرفة النوم. سار في ملابس النوم فخرجَ إلى تلك الفسحة. كان القمر بدرًا تامًا منخفضًا معلقًا فوق رأسه. استلقى على المقعد الخشبيّ الطويل الذي ثبتوه إلى الجدار هناك تحت إلحاح ابنه الذي يحب الدفءَ حيث كان يستخدم هذا المكان بمثابة غرفة للتشمّس. لكن المكانَ كان باردًا الآن. وقف على المقعد ورفع نفسَه على أطراف أصابعه فضغط بكفّه على السقف الزجاجي. كائنٌ من تحت الأرض يمد يدَه محاولًا إمساك القمر. ارتعدَ جسده وأحس وحشة فظيعة. «تيري»، قال اسمها مثلما اعتاد أن يتلو الأدعية عندما كان طفلًا حتى يطرد عنه ظلمة العالم.

بعد وقت قصير، كان يدخل سرير زوجته ويزيح الأغطية حتى يستلقي إلى جانبها مثلما كانت مستلقية. رفع قميص نومها حتى يتمكن من وضع

يده على دفء باطن فخذها، ذلك المكان الذي يحبه خاصة، فسمع تغيرًا في تنفسها أنبأه بأنها اقتربت من لحظة الاستيقاظ إلى حد يجعلها تدرك أنه موجود معها. همس لها: «دعيني أبقى، جان».[1] استجابت له مثلما تفعل دائمًا عندما يستخدم تلك النبرة المعبّرة عن الحاجة فأزاحت نفسها مقتربة منه قليلًا، تعديل بسيط زاد نقاط التَماسّ بينهما. ضغطت بقدمها على قدمه. لا بد له غدًا من إخبارها أن إيمون قد سافر إلى كراتشي حتى يثبت لأبيه أنه شجاع. استنشقَ عطر زوجته، وانزلقت يده صاعدةً إلى منبع حرارتها. بعد هذه الليلة، من يدري متى تسمح له بفعل هذا من جديد؟ مسَّ كتف تيري العاري بفمه، ثم انقلب مبتعدًا عنها وخرج من السرير متجاهلًا صوتَ الاحتجاج المكتوم الذي انبعث عنها. هذا تشتيتٌ أكثر مما يجوز. عليه أن يحافظ على صفاء ذهنه.

* * *

عاد حتى ينام في القبو من جديد. وعندما استيقظَ، كان في الغرفة هذه المرة وجود غير مرغوب فيه. كان ذلك جيمس حاملًا في يده فنجان القهوة. جلس كارامات في فراشه. لم يظهر ضوء النهار في الخارج بعد.

سأله: «هل وصل إيمون؟»

أجاب جيمس وهو يناول كارامات قهوته: «لقد صعد قبل قليل إلى الطائرة الثانية في مسار رحلته. تعرَّف عليه شخصٌ ما عند البوابة فوضعَ صورةً له على تويتر. هذا يعني أن الصحافةَ سوف تحصل على هذه الصورة قريبًا. هل تحدثت مع السفير؟»

«عمَّ أحدثه؟»

«فكرت في أنك قد تطلب من الباكستانيين وضعَه، فور وصوله، على أول طائرة عائدة إلى هنا».

---

(1) يا روحي.

«هل كنت لأفعل هذا لو لم يكن إيمون ابني؟» تساءلَ في نفسه إن كان إيمون معتمدًا على هذا... الأب الذي يرعاه ولا يسمح للأمور بأن تصلَ إلى أبعد مما يجب أن تصل.

«لكنه ابنك، مع احترامي يا سيدي».

«مع احترامي يا جيمس؛ إنه مواطن بريطاني اتخذَ خيارًا وعليه أن يواجهَ عواقبَه، مثلما يواجه أي مواطن بريطاني آخر عواقب أفعاله».

«هنالك شيء آخر سوف تصل إليه وسائل الإعلام قريبًا. لقد ظهر على الإنترنت قبل بضع دقائق فقط».

لم يكن الشيء الذي يحمله جيمس تحت إبطه مصنَّفًا صغيرًا مثلما ظنه كارامات، بل كان جهازًا لَوْحيًا. قدم الجهازَ إلى كارامات الذي هزّ رأسه، ثم خرج من السرير وارتدى ثوبَه المنزلي. لا يجوز للرجل أن يكونَ في بيجامته عندما يحدث شيء هام. تبعه جيمس إلى مكتبه؛ ورغمَ وجود كمبيوتر له شاشة كبيرة، إلا أنه وضع جهازَه اللوحي على حامل على مكتب كارامات.

قال كارامات: «أهو شيءٌ سيء إلى درجة أن من غير المستحسن عرضه على شاشة كبيرة؟» لكن جيمس لم يقابل نظرة عينيه.

بتلك الطريقة التي يحاول فيها الذهن التركيز على تفاصيل ثانوية حتى يتجنب فداحةَ ما هو مرغم على تحمله، أمضى كرامات الثواني القليلة الأولى من مقطع الفيديو في الانزعاج من أن ابنَه لم يختر الجلوس قبالةَ أحد الصحافيين بل قررَ أن يتحدثَ إلى الكاميرا مباشرةً وأن يرفعَ التسجيل كله على أحد مواقع الإنترنت. كان ذلك خيارًا أرادَ به أن يظهر مباشَرًا وصادقًا، لكنه كان في الحقيقة مجرد شخص يحاول فرضَ نفسه... أو مجرد شخص كسول.

قال إيمون، وكان يبدو وسيمًا مرتاحًا؛ ولم تكن اللقطة المقربة تُظهر

شيئًا مما يحيط به غير جدار أبيض من خلفه جعل كتفَيْه عريضَين وجعلَه يبدو شخصًا جديرًا بالثقة في قميص مزرر داكن الزرقة. تحركت عيناه قليلًا... في اتجاه من؟ ثم عادتا إلى عدسة الكاميرا: «كانت هنالك بعض التخمينات بخصوص مكان وجودي خلال هذه الأيام القليلة الماضية. أعترف بأن عجزي عن اتخاذ قرار قد شلَّني خلال تلك الأيام...» جعلَ ذلك يبدو كأنه نوعٌ من مرض فعلي... «هذا لأنني وجدت نفسي ممزَّقًا بين أكثر شخصين أحبهما في العالم: أبي وخطيبتي».

«آه، لا»، قالها جيمس الذي شعرَ أن البشاعةَ المؤذية لكلمة «خطيبتي» قد جعلته عاجزًا عن العثور على أيّ شتيمة مناسبة.

«... كنت آمل أن يغيرَ أبي تفكيرَه في ما يتعلق بهذا الأمر، لكني أدرك الآن أن هذا لن يحدث. دعوني أوضح شيئًا هنا: لم تأت أنيقة باشا باحثةً عني. أنا من ذهب إلى بيتها باحثًا عنها. كنت أحمل هديةً من M&M'S من أختها التي تشرفت بقضاء بعض الوقت معها في أميركا».

كان ذكر هدية M&M'S لمسةً لطيفة، من عساه يكون الشخص الواقف خلف الكاميرا الذي نظر إليه إيمون الآن من جديد؟

«صحيح أنني لم أعرف بأمر أخيها على الفور، لكني كنت أعرف أن والدَها كان جهاديًا وأنه ذهب إلى أفغانستان حتى يقاتل مع طالبان، ثم اعتُقل في باغرام، ومن المحتمل أن يكون قد تعرضَ للتعذيب هناك. وبعد ذلك مات في الطريق إلى غوانتانامو. إنني أمقت الخيارات التي اتخذَها عادل باشا مثلما يمقتها أيُ بريطاني آخر، وأنا أمقتُ طريقةَ موته أيضًا. لكن الحقائقَ التي لا مهربَ منها، حقائق حياته وموته، جعلت أنيقة وأختها عصمة امرأتين استثنائيتين حقًا. ففي مواجهة صعوبات هائلة، بما في ذلك موت أمهما عندما كانتا لا تزالان صغيرتين جدًا...» كم بدا صادقًا، كم بدا جيدًا، عندما واصلَ كلامَه عن المِحَن التي واجهتها الأختان وعن انتصاراتهما عليها. كان الإيمان بالطبيعة البشرية متدفقًا

منه! غباءٌ وسخف... وكأن أحدًا يستطيع في هذا الزمان أن يثقَ بشخص مثالي!

«وقع كلٌّ منا في حب الآخر. يا إلهي... سوف ينال مني أصدقائي كلهم جزاءَ هذا. نحن لا نخرج ونقول أشياءَ من هذا القبيل في العلن، أليس كذلك؟ لكن، ها نحن هنا. إنها حقيقتي».

متى صارت هذه الكلمة شائعة إلى هذا الحد «حقيقتي»؟ تعبيرٌ كريهٌ، فيه شيءٌ متمحور حول الذات نفسها. وفيه أيضًا شيءٌ يسخر من تلك الحقائق المطلقة كلها التي في هذا العالم.

«... لست أعرف ما جعلني محظوظًا إلى حد يجعلها تشعر تجاهي بتلك الطريقة... أبي الذي يعرفني معرفةً تسمح له بأن يعرفَ أنني لا أستحق امرأةً بهذه الروعة، يقول لي إنها تتظاهر وتخدعني بالتأكيد...»

«آخ»... قالها جيمس هامسًا.

«... ولكن، لم يكن هنالك أي تظاهر بيننا. هذا ما جعلَها تخبرني عن أخيها عندما وافقت على أن تمضي حياتَها معي. يصعب عليَّ كثيرًا إخباركم كم كانت بشعة رؤية كيف أن إقرارَها هذا، وهو ما كان يقتضي شجاعةً كبيرة منها كما تبيّن لي ثقتها الكبيرة بي، جعل الناس يصمونها بأنها... حقًا، لا أستطيع قول تلك الكلمات».

محرجٌ. هذا كل ما في الأمر... «كم بقي منه يا جيمس؟»

«لست أدري يا سيدي. لم أجد مناسبًا أن أراه كله قبلك». قال جيمس هذه الكلمات وهو مطرق الرأس محدقٌ في الرسوم التي على السجادة.

«صحيح أنني ذهبت إلى أبي، إلى وزير الداخلية. ذهبت على الفور تقريبًا حتى أحدّثه عن برويز باشا. لم أذهب لأن خطيبتي قد طلبت أيَّ معروف مني، بل ذهبت لأنني، باعتباري ابنه، شعرت بأن الشرفَ يقتضي إخبار أبي بأن حياتي الشخصية وحياتَه المهنية سوف تتصادمان. أترونَ الآن؟ كنت أعرف أن برويز باشا كان يحاول الوصولَ إلى القنصلية

البريطانية في اسطنبول لا من أجل القيام بعمل إرهابي، بل لأنه أرادَ الحصولَ على جواز سفر جديد حتى يستطيع العودة إلى البلاد. لقد قدمت هذه المعلومات إلى ضباط مكافحة الإرهاب. وأنا واثقٌ أن أنيقة قد فعلت الأمر نفسَه لكن من غير الواضح لي ما يجعل الجمهور البريطاني مستمرًا على ظنه أن نيّة القيام بعمل إرهابي هي ما دفعَه إلى التواجد حيث كان موجودًا لحظةَ قتله. وأنا واثقٌ من أنه قُتل على أيدي أولئك الذين كادَ ينجح في الفرار منهم».

أوه، لا تفعل هذا يا بني، لا تجعل منه بطلًا. لن يغفروا لك هذا أبدًا.

«لكن برويز باشا ليس موضع اهتمامي. لم أعرفه قط؛ والحقيقة أنني لا أعرف ما فعله وما الجرائم التي لعله ارتكبَها خلال وجوده في سورية. إلا أنني أعرف أخته جيدًا. إن المرأة التي تشاهدونها الآن على شاشاتكم التلفزيونية هي المرأة التي عانت محَنًا رهيبة... هي المرأة التي أدارت لها بلادها ظهرها، وأدارت لها حكومتها ظهرها، وأدار لها خطيبها ظهره في لحظة مصيبتها الشخصية الكبيرة. لقد أسيئت معاملتها لأنها تجرأت فأحبت رغم أنها تغطي رأسها، وتعرضت لأبشع أنواع المذَمّة لأنها مقتنعة بأن من حقها أن تختار الحياة مع شخص حياته مختلفة تمام الاختلاف عن حياتها. استنكر الجميع رغبتَها في دفن شقيقها إلى جانب أمها، ثم أُهينت وحُقّرت نتيجة احتجاجها القانوني تمامًا على قرار لوزير الداخلية يوحي بوجود عداوة شخصية. هل بريطانيا حقًا أمة تُحوّل الناسَ إلى أشخاص ينصَبّ عليهم الكرهَ كله لأنهم اختاروا أن يحبّوا حبًا غيرَ مشروط؟ غير مشروط، لكنه لا يسكت عن توجيه الانتقاد. عندما كان أخوها لا يزال على قيد الحياة، كان حبها متجهًا إلى إقناعه بالعودة إلى البلاد؛ ثم تحول الآن، بعد أن مات، إلى إقناع الحكومة بالموافقة على إعادة جثمانه إلى الديار. أين الجريمة في هذا؟ أبي، أخبرني من فضلك، أين الجريمة في هذا؟»

إذن، هكذا يكون الشعور بانكسار القلب! أقرّ كارامات بهذا الشعور وسمحَ بأن يداخله، وتدلت ذراعاه إلى جانبيه عديمتَيْ الحول. عداوة شخصية! كان هذا سهمًا مغموسًا في السم، كان سهمًا لا يعرف استخدامه غير أقرب الناس إليه. كائنًا من كان ذلك الشخص الواقف خلف الكاميرا، وكائنًا من كان ذلك الشخص الذي صاغَ كلمات إيمون، وكائنًا من كان ذلك الشخص الذي اختارَ تلك المسحة بعينها من اللون الأزرق التي يؤكد علماء النفس المتخصصون في الألوان أنه يوحي بالقوة والثقة، فلا أهميةَ لهذا كله. إيمون هو الذي أعدَّ هذا السم، وهو الذي أطلقَ السهم. يعرف إيمون أن هذه كذبة؛ ويعرف أنها، من بين كل الأكاذيب الأخرى، ستجرح أباه أكثر من أي شيء آخر. يعرف أيضًا أنه، بمجرد قولها، أعطى الضوء الأخضر لكل واحد من خصوم كارامات لون من السياسيين لكي يكرر هذا الزعم. إن كان الابن لا يستطيع تمييزَ العداوة الشخصية، فمن عساه يستطيع ذلك غيره؟ آباءٌ وأبناء، أبناءٌ وآباء. دراما عائلية آسيوية مجرجرة إلى البرلمان. شدَّ قبضتَيْ يدَيّه، ثم رفعهما فوضعَهما على مسندَّيْ مقعدَه، وتوترت عضلات ظهره وكتفيه. يعرف العقل كيف يتبع الجسدَ، أينما ذهب. تنفّسَ ببطء، وجعلَ أفكارَه تسير على خطى تنفسه... رأى لاعبَ الشطرنج الذي فيه النقلة التي لُعبت فراح يدرس الرقعةَ كلها.

كان جيمس ينتظر صامتًا إلى أن استدارَ وزير الداخلية ونظرَ إليه فسأله: «ما الذي نفعله الآن يا سيدي؟»

«لا نفعلُ شيئًا. إنه، اعذرني على هذا التعبير، يحفر قبرَه بيده...» نظر إلى ساعة يده... «فلنذهب إلى المكتب ولنتابع انتشار الخبر».

«هل ستبقى بضعَ دقائق مع زوجتك قبل ذهابنا؟»

«جيمس... إلى أن ينتهي هذا الأمر، ليس لي ابن وليست لي زوجة. لديّ وظيفتي الحكومية فقط. هل هذا واضح؟»

«أجل يا سيدي. آسف يا سيدي».

استدار كارامات عائدًا إلى غرفته ففتح الخزانةَ ونظر إلى صف ربطات العنق المعلّقة. كان الأزرق موجودًا أكثر من أيّ لون آخر، لكن يدَه امتدت اليوم إلى ربطة عنق حمراء غير لامعة لونٌ قويٌ لكنه رهيف دقيق. ربطة عنق لرجل واثق من سلطته.

* * *

وصل إلى مكتبه في شارع مارشام مع وصول أول صحف الصباح، الصحف التي لا يزال يُفضّل قراءَتها في نسختها الورقية. كان وجهه منكبًّا على الصحيفة المطوية التي هي أقرب الحلفاء إلى حزبه في عالم الصحافة. وجهٌ نصفه في الضوء ونصفه في الظلمة كأنه شخصية الشرير في واحد من كتب الرسوم المصورة. كان العنوان في صيغة سؤال: مصالح وطنية أم عداوةٌ شخصية؟

قال جيمس من غير ضرورة إلى قول ذلك: «لا بد أن هنالك من سرَّب الفيديو إليهم قبل ظهوره على الإنترنت».

«قف خارج الغرفة عند الباب ولا تسمح لأحد بالدخول. لست أبالي حتى إن جاءت الملكة نفسها». كان المبنى خاليًا من الناس، وكان أكثر لندن لا يزال غارق في النوم. وما كان يريد أكثر من أن يظل وحيدًا.

لفتت نظره عبارةً في الفقرة الأولى من تلك المقالة «عضوٌ في الحكومة لم يشأ الكشفَ عن هويته». عندما توضع هذه العبارة إلى جانب اسم الصحفي صاحب المقالة، يصير شبه مؤكد أن عضو الحكومة المشار إليه هو «السرطان» نفسه. كان عضو الحكومة الذي لم يشأ الكشف عن هويته يحلل الضررَ المحتوم الذي سيصيب وزيرَ الداخلية إذا شُوهد ابنُه في جنازة ذلك الإرهابي... «من الطبيعي أنه سيفعل كل ما يستطيع فعله

لمنع حدوث ذلك». جملة هجومية لكنها بسيطة إلى هذا الحد... مثلما هي دائمًا أشد الهجمات أثرًا.

مضت المقالة تفكّك، خطوةً بعد خطوة، رجلَ الأفعال صاحبَ المبادئ الذي كان بالأمس، ثم تُعيد بناءه من جديد: ابنٌ طَموح لأسرة من المهاجرين تزوجَ امرأة ذات مال من علية القوم لها علاقات اجتماعية واسعة حتى يحول نفسه إلى متبرِّع صاحبَ نفوذ في الحزب مما أتاحَ له فرصةَ وقوع الاختيار عليه بدلًا من مرشحينَ أكثرَ منه استحقاقًا للنجاح في أول انتخابات يخوضها. لقد استخدمَ هويتَه، باعتباره مسلمًا، حتى يفوز؛ ثم رماها عنه، عندما بدأت تُلحق به الضرر. إلا أن تمكّنَه من الفوز في انتخابات فرعية والحصول على مقعد آمن في البرلمان بعد تخلي ناخبيه عنه عقب «فضيحة الجامع» يظل سرًا غامضًا؛ وقد أدى ذلك إلى حدوث استقالات في الحزب. بدلًا من المواجهة الكاملة للأسئلة المتعلقة بصلاته مع إرهابيين معروفين في الجامع الذي كان يرتاده، اتخذ ذلك الرجل لنفسه دورًا جديدًا فصار أعلى الأصوات التي تنتقد الجماعةَ التي خذلته انتخابيًا. أهو مليونير أم واحدٌ من أفراد الطبقة العاملة، مسلمٌ أم مسلمٌ سابق، عدو المهاجرينَ أم ابن يفتخر بأبويه المهاجرين، تقليديٌّ أم من أنصار التحديث؟ هل يتفضل كارامات لون الحقيقي فيكشف عن نفسه؟ ثم تأتي الضربة الأخيرة من عضو الحكومة الذي لم يشأ الكشف عن هويته: «هذا رجلٌ مستعدٌ لأن يبيع أي شخص، بما في ذلك ابنه نفسه، إذا ظن أن ذلك يمكن أن يقرّبَه خطوةً إضافية من شغل منصب رئاسة الحكومة».

بدأ الأمر يتطور انطلاقًا من هذه النقطة. استيقظت بريطانيا على جوقة من التغريدات على تويتر ومقالات الإنترنت المكتوبة على عجل والمقابلات التلفزيونية الصباحية، كانت كلها تضع وزيرَ الداخلية موضعَ

الاتهام. كانت «عداوة شخصية» العبارة التي تمسّك بها الجميع وحوّلها أحد الظرفاء إلى # حقن شرجية شخصية».[1]

عملٌ منظمٌ منسَّقٌ احترافيٌ من أوله إلى آخره. لماذا استغرق هذا الوقت كله حتى يدرك من هو الشخص الواقف خلف الكاميرا؟ قال عندما قررت سمكة الهلبوت أن تردَ على الهاتف بعد الرنة الخامسة: «أليس... أنت لم تحبيني في يوم من الأيام، أليس كذلك؟»

قالت بصوت توحي نبرته بعسل دافئ يقطر على حراشف سمكة باردة: «يا سيد لون، لقد استعان ابنك بخدمات شركة العلاقات العامة التي تملكها عائلتي. إنها مسألة عمل فحسب. ما من عداوة شخصية هنا».

أغلق الهاتف ضاحكًا، ثم فك أزرار كمَّيْ قميصه وقال لجيمس: «أمسك أعصابك واجمع قواك».

لم تبلغ الساعة الثامنة صباحًا حتى الآن. لا يزال أمامه نهار طويل ولا تزال سمكة الهلبوت قادرة على فعل أشياء كثيرة.

نقر على مقطع الفيديو الذي في كمبيوتره. شبح رجل راكع على رمل الصحراء، وسيفٌ معقوف كأنه هلال فوق رأسه. سويّة إنتاج استثنائية؛ عملٌ أنجزه أشخاصٌ يعرفون كيف يهتمون بزوايا الكاميرا والإنارة. ضغطَ عدةَ مرات على أحد المفاتيح حتى يرفع صوت التكبيرات... الصوت! هذا آتٍ من الوحدة الإعلامية التي كان برويز باشا يعمل فيها. لم يكن راغبًا في جعل الجمهور البريطاني يرى هذا المقطع: مادةٌ بربرية تستدعي الكوابيس. وما كان ينبغي أن يجدَ نفسه مضطرًا إلى هذا. إن كان قد قيّم الوضع تقييمًا صائبًا (كان واثقًا من أنه فعل ذلك)، فسوف تكون

---

(1) هنالك تشابه لفظي شديد بين «حقن شرجية = Enemas» و«عداوة = animus».

كافية تمامًا رؤية إيمون داخلًا ذلك المشهد اللابريطاني على الإطلاق في الحديقة لكي ينتقل الكلام كله من العداوة الشخصية إلى افتقار إيمون لون الواضح إلى حُسن التقدير. لكن من المفيد، تحسبًا لاحتمال ألّا ينجح هذا، أن تكون لديه خطة بديلة لتذكير الناس بأن القصةَ الوحيدة هنا هي قصة مواطن بريطاني أدار ظهرَه لبلاده مفضلًا عليها مكانًا فيه صلبٌ وقطع رؤوس وجَلدٌ وأطفالٌ مجنَّدون ورؤوسٌ مرفوعة على الحراب وعبوديةٌ واغتصابٌ؛ فهل يأخذ كارامات لون هذا كله على محمل شخصي. بحق الرب، نعم، إنه يأخذه على محمل شخصي! ضرب الطاولة بقبضة يده كأنه يتدرب على الملاكمة وتساءل إن كان ذكر «الرب» فكرة جيدة حين رأى رأسًا يتدحرج على رمل الصحراء.

ظل عاجزًا عن أكل اللحم طيلةَ الأسبوع عندما شاهد هذا المقطع أول مرة. وصار شبه عاجز عن حلاقة ذقنه من غير أن يتذكرَ ذلك النصل الهاوي على لحم بشريّ. لكن هذا المقطع صار سلاحه الآن. رفعَ رأسَه من شاشة الكمبيوتر إلى التلفزيون الذي كان قد شغّلَه لحظةَ دخوله مكتبه. كانت الفتاة جالسة متربعة إلى جانب التابوت الجليدي. لا يزال شعرها ملطخًا بالطين، وقد اتسخت ملابسها التي كانت بيضاء وصار كل شيء فيها أكبر عمرًا وأكثرَ إرهاقًا. سألها مخاطبًا نفسه: هل تعرفين أصلًا هذا الرجل الذي تقيمين عليه الحداد؟

اهتزّ هاتفه عندما أتته رسالة نصية من تيري: عد إلى البيت الآن وإلا فسوف يظهر اسمك في العنوان التالي في الأخبار ومن تحته قصة زوجتك التي تركت البيت ذاهبةً إلى أحد الفنادق.

مر بأصابع يديه في شعره، ولم يعرف إن كان معجَبًا أم جَزِعًا لأنها كتبت تخاطب السياسي لا الأب أو الزوج. لن يفلح شيء، حتى فيديو قطع الرؤوس هذا، في تحويل القصة بعيدًا عن «دراما العائلة الآسيوية» إذا ما قررت تيري لون، خبيرة التصميم الشهيرة، أيقونة الأسلوب الأنيق،

الزوجة التي هي محط إعجاب أكثر من زوجات رجال ويستمنستر جميعًا بحسب واحد من آخر استطلاعات الرأي، أن تؤيد قصة «العداوة الشخصية» التي رواها ابنها.

كتب يجيبها: «شاه مات يا تيريزا.[1] إنني في طريقي إلى البيت».

كان توقيع تيري الجمالي، الألوان الهادئة وخطوط الأثاث الانسيابية الناعمة والأرضيات الخشبية، ظاهرًا في كل غرفة من غرف البيت إلا في عرين زوجها وفي غرفة جلوس الأسرة بجدرانها الحمراء وسجادتها العميقة وأرائكها الوثيرة، والرفوف البيضاء التي اصطفت عليها الكتب المفضلة لدى ساكني هذا البيت. عندما اقترب كارامات من هذه الغرفة، سمع صوتًا لم يتوقعه يقول له إن وقع خطواته قد أصبح أكثر رزانة بعد أن صار وزيرًا للداخلية.

اجتاز المسافة الباقية بخطوات واسعة سريعة ثم فتح ذراعيه لمولودته الثانية، إيميلي البسيطة المباشرة، الابن الذي لم يحظ به أبدًا.

«إنني هنا حتى أعرف إن كان أيٌّ من ذلك الهراء العنصري المحجَّب الكاره للنساء آتيًا من مكتبك، وحتى أطلق النار على من هو مسؤول عنه، كائنًا من كان». قالت هذا وهي تتخلص من عناق أبيها وتبتسم له ابتسامة عريضة. إيميلي الجميلة الشبيهة بأمها من الناحية الجسدية بشعرها البنيّ الفاتح وعينيها الكستنائيتين ويديها الناعمتين بإيماءاتهما السريعة.

قال وهو يشدها من أنفها: «أوه، لقد ظننتك آتية لمساندة أبيك».

«أبي سيكون بخير. إنه بخير دائمًا. لكن أخي قد صار أحمق سخيفًا بعض الشيء، أليس هذا صحيحًا؟» ألقت بنفسها على الأريكة وتابعت هجومها على ما بقي من قطعة كرواسان... «لكنه أخي، رغم ذلك. وهو

(1) اسم زوجته «تيري» تصغير لاسم تيريزا.

ابنك. فكرت في المجيء لتذكيرك بمشاعر الأبوة. وبعد ذلك، يمكنني أن آخذه معي إلى نيويورك إلى أن تنجلي الأمور هنا».

كان منتبهًا إلى وجود تيري في ثوبها المنزلي وقد أدارت ظهرَها لهما وراحت أصابعها تتحرك على كعوب كتب الأطفال على الرف كما لو أنها مفاتيح بيانو. كان جبنًا منه أن يحدثَها من خلال إيميلي، لكن الأمرَ أكثرَ سهولة هكذا! جلس إلى جوار ابنته وأخذ رشفةً من فنجان الشاي الذي تشرب منه وكشَّر قليلًا لأنه من غير سكّر.

«تعرفين ما فعله، أليس كذلك؟»

«لقد جعلتني أمي أرى الفيديو قبل قليل. إنها حماقة منه. كيف ستعالج الموقف؟»

من المدهش أن قصةَ ذهاب إيمون إلى كراتشي لم تنتشر بين الناس بعد. وأما من نشر صورته عند بوابة المغادرين في المطار فقد أزالها... مهما يكن الجهاز الأمني المسؤول عن ذلك، فقد كان كارامات ممتنًا له. عليه أن يتذكر تقديم الشكر إلى جيمس، الشخص الوحيد الذي لاحظ تلك الصورة لأنه كان وحده من فكّر في إدراج صيغة خاطئة لكتابة اسم إيمون ضمن إشعارات غوغل التي تأتيه. لا يعني هذا أن الأمر كبير الأهمية، فهو سيصير معروفًا للجميع في وقت قريب. لكن هذا سمح له، على الأقل، بأن يكونَ أول من يخبر زوجتَه التي استدارت أخيرًا فرأى بوضوح في تعبير وجهها كم كانت سيئة فكرة خروجه هذا الصباح قبل أن يوقظَها. قالت لابنتها: «اذهبي وارتاحي قليلًا فأنا أريد الحديثَ مع أبيك».

جلست إيميلي منتصبةَ الجذع وراحت تنقل عينيها بين أبيها وأمها، ثم قالت: «آسفة»، وقبّلت أباها على خده.

بعد خروجها من الغرفة، مضت تيري إلى أبواب الشرفة ففتحتها. إنه

هوسها بالهواء النظيف؛ هوسٌ لا يستطيع برد الصباح الباكر ردعَه. إن في الزواج منغّصات تتبدد مع الزمن، وأخرى تتراكم!

قالت له: «أنسى أحيانًا كم تشبهك ابنتنا».

«فقط إذا ما قورنت بأخيها الذي لا يشبه أيًا منّا».

«هذا غير صحيح. إنه مثلما كنت. مثلما كنت قبلك. قبل أن أجعل حياتي كلها تتركز على جعل نفسي جيدة بالقدر الكافي من أجلك».

كان لا بد له أن يضحكَ عندما سمع هذا: «أظنك تعكسين الأمر تمامًا يا عزيزتي ابنة الساحل الشرقي الوارثة ذات الدم الأزرق. هل تذكرين أول مرة دعوتك فيها إلى العشاء؟»

لكنها هزت رأسها... أرادت أن تظلَ وحدها ضمن تلك النسخة المعوجّة من حياتهما معًا. أفرغ الشاي الباقي في فنجان إيميلي في أصيص نبتة زينة، ثم سكب لنفسه فنجانًا آخر. لم يجد سكرًا من حوله فوضع في الشاي ملعقة مربّى وحرّكها بقوة. حتى هذا الفعل الفاضح لم يفلح في تليينها. ظلت واقفة في الطرف الآخر من الغرفة تقضم ما بقي من ظفر إبهامها.

قالت له: «كنت تسألني عن رأيي... كل حملة انتخابية، وكل مشروع قانون، وكل خطاب». أهذا، من جديد! كلما أثارت هذا الأمر كلما منعَ نفسَه من الإشارة إلى أنه لم يكن لديه غيرها في أول أيامه. كان ذلك الفتى الآتي من برادفورد الذي جنى ملايينَه واشترى بها طريقه في حزب ما كان أحدٌ يتوقع أن ينضمَّ إليه شخص مثله. «أهو فظيع إلى هذا الحد أن أريد بيتي ملاذًا بعيدًا عن ضجيج ويستمنستر؟»

«لا تحدثني كما لو أني ربة منزل عملها أن تأتي إليك بالشبشب عندما ينتهي يوم عملك. هلا توقفتَ لحظة وتساءلت عما قد يكونه رأيي في مسألة هذا الصبي؟»

نظر إلى قِطع المربّى الصغيرة السابحة في فنجان الشاي فشعر بشيء من التقزز، لكنه لم يعترف بتقززه هذا، بل شرب جرعة من الفنجان: «أنت تريدين حماية ابنك. طبيعي أنك تريدين حمايته. هذا عملك. لكنه لا يمكن أن يكون عملي، ليس في هذه الظروف».

«لست أكلمك عن إيمون أيها الأحمق الذي يرى نفسَه شّديدَ الأهمية. أحدثك عن الصبي ذي التسعة عشر عامًا الذي يتفسخ تحت الشمس وأخته جالسة تنظر إليه بعد أن فقدت عقلَها لشدة حزنها. إنه ميت؛ ألا تستطيع تركه وشأنه؟»

أسرته. هذه أسرته... لكنهم أقل الناس قدرة على فهمه: «ليس الأمر متعلقًا به. وليس متعلقًا بها. وليس متعلقًا بإيمون أيضًا. لعلي لم أعد أسألك النصح لأن عقلك السياسي لم يعد حادًا مثلما كان. ثم، أغلقي هذه الأبواب فقد صار الشاي جليدًا». إنها طريقة للكفّ عن شرب هذا السائل بالمربّى مع جعلها تشعر بأنها هي المذنبة في ذلك. أمر مُرضٍ، لكنها بدت غير منتبهة إلى ذلك كله.

«لا يزال عقلي السياسي حادًا إلى الحد الكافي لرؤية ما لا تستطيع رؤيته. إن لك في الحزب أعداء، لا منافسين؛ وأناس يطعنونك في ظهرك بدلًا من أن يساندوك. هذا الجلد الأسمر ليس مصنوعًا من التيفلون! ما السبب الحقيقي الذي تظنه كان خلف قراري بالتنحي؟»

كان هذا السؤال مفاجئًا له فعادَ بذهنه واستعرض الحديث كله حتى يفهم منطق السؤال بدلًا من الاعتراف بأنه فاجأه. أوه، ها هي!... «حتى تنفقي طاقتَك في أن تصيري من منا صاحب هذه العبارة؟ الحرير المسدل على عضلاتي شديدة السمرة التي تكوَّنت عبر مشاجرات الشوارع. أي مثلما فعلتِ في البداية». مد يده إليها مستعدًا لأن يكون عطوفًا مسامحًا... «صحيح أنني ما كنت لأبلغ ما بلغته لولاك. لا أنسى هذا أبدًا».

أغلقت أبوابَ الشرفة أخيرًا؛ لكنها أغلقتها بقوة بدا معها أنها لم تفعل ذلك إلا حتى تضربَ شيئًا ما: «أيها الغبيّ المغرور. لقد بلغت سفح الجبل فصوَّر لك عقلك أنك بلغت قمتَه. أنت الشخص الوحيد الذي لا يدرك أن تلك المقالة هذا الصباح لم تكن إلا بداية طوفان فات أوان فعل أي شيء لإيقافه». أتت إليه أخيرًا، لكنها أتت لكي تأخذ جهاز التحكم وتوجّهه إلى التلفزيون. وهناك كانت، تلك الفتاة، لا تزال جالسة متربعة. لم يطرأ عليها أي تغير منذ أن غادرَ مكتبَه. نظرَ إلى الساعة الموضوعة على رف الموقد. إن طائرةَ إيمون تحط الآن.

«قبل عدة أسابيع فقط، كان منافسك الأكبر رجلًا وُلد وفي فمه ملعقة من ماس، لا من ذهب. كان عضوًا من الحلقة الداخلية في الحزب منذ سنين. أما الآن، فقد صارت هذه الطالبة اليتيمة عدوّك الأول، تلك التي لا تريد لأخيها أكثر مما أرادت لأبيها: قبر يمكنها أن تجلسَ إلى جانبه لتبكي المصيبة الفظيعة التي ألمّت بحياة أسرتها. أنظر إليها يا كارامات: انظر إلى هذه الطفلة الحزينة التي رفعتها إلى مستوى عدوّ لك، وانظر كم قللت من نفسك عندما فعلت هذا».

كان التابوت الجليديُ مغلقًا الآن وقد وُضعت ألواح الجليد فوق الجثة وما عاد الوجه مكشوفًا. كم بلغَ التفسخ بالجثة حتى سمحت الفتاة بذلك؟ وحيث كان الناس واقفين قريبين منها، ما عاد في ذلك المكان الآن إلا هي والجثة وسط العشب المحترق، تحت شجرة التين الهندي، وأما بتلات الورد فصارت جافة من حولها. لا بد أن الرائحة هي ما أبعد الناس. لقد دفعت الجميع بعيدًا. سرعان ما يصل ابنه ويدخل هذه الحديقة، يدخل رائحةَ الموت الفائحة التي تقف المرأة التي أحبها في مركزها.

«آه، يا ربي»... قالها وهو يرى ذلك المشهد... ابنه محاطًا بالرعب المغمَّس بالموت.

قالت تيري: «لقد خسرت ابنَك أيضًا». وضعت كفّها على عينيه فجعلت لمستها شيئًا يتوقف في داخله، وجعلت شيئًا آخر يبدأ. مال برأسه إلى الأمام مسندًا ثقلَ جبينه المثقل كثيرًا على كفّ زوجته. ذات يوم، عندما كان المطر يصفع النوافذَ وقت العصر، كان جالسًا هنا وقد أحاط كتفَيْ ابنه بذراعَيْه. كان يواسيه بعد أول انكسار يتذوّقه قلبه. كان في الثالثة عشر فقط، في ذلك العمر الذي كفَّ فيه عن السماح لأبيه باحتضانه إلا في لحظة الألم هذه. كانت عناصر الطبيعة تصطخب في الخارج، وكان كارامات عاجزًا عن فعل شيء غير إظهار حبه للصبي الذي تتساقط دموعه على قميصه. كان يعرف أن عليه أن يقولَ له أشياء من قبيل كن رجلًا وارفع رأسَك، لكنه شده إليه أكثر ممتنًا من غير حد لأن إيمون لم يذهب إلى أمه أو أخته أو أعز أصدقائه، بل جاء إليه، إلى أبيه، الذي يحبه أكثرَ من الناس جميعًا، وسوف يحبه أكثر من الناس جميعًا.

رفعت تيري يدها: «كن إنسانًا. أصلِح الأمر».

استدارت في ثوبها الحريري ومضت. ما عاد هنا الآن غيره مع الفتاة التي مدت يدَها لتلمسَ الجليد. ضم كفيه معًا ونفخَ على أطراف أصابعه الباردة. ليلة ماتت أمه، ظل ساهرًا عند جسدها حتى الصباح، وكان يقرأ لها القرآن بصوت مرتفع لأن هذا ما أرادت منه فعله رغم أنه لم يمسّ شيئًا في قلبه. كم بدا له عظيمًا أن يفعل كل شيء بإخلاص لا ينثني... لا لأنه كان مؤمنًا بأنه قد بقي منها شيء حتى يعرف إن كان قد قرأ القرآن لها أو لم يقرأه، بل لأن ذلك كان آخر شيء يستطيع فعلَه لها، آخر شيء يستطيعه ابنها.

شعر أنه يبذل جهدًا كبيرًا عندما مدّ يدَه إلى جيب سترته فأخرج هاتفه ليتصل بجيمس.

قال له: «أشكرك على سحب تلك الصورة لإيمون على تويتر. وأريد أن تعطيني رقم المفوض البريطاني في كراتشي».

«لسنا من أزال تلك الصورة يا سيدي. وسوف أرسل لك رقم الهاتف بعد لحظات». أغلق الهاتف وفكرَ في الذهاب إلى زوجته. لا، سوف يُصلِح الأمر أولًا، من أجل ابنه، ومن أجل الفتاة، ثم يخبر تيري. تمدد على الأريكة وشبك ذراعيه فوق صدره مغمضًا عينيه. من عساه يسهر على جسده عندما يموت؟ ومن عساه يمسك يدَه في لحظاته الأخيرة؟

* * *

أصوات رعود في البيت، على السلم، وفي الصالة. لم يكد ينهض ليرى ما الأمر حتى اندفع إلى الغرفة ثلاثة رجال من حرّاسه الأمنيين فصاروا جدارًا منتصبًا من حوله؛ صاروا جدارًا متحركًا يجري به نازلًا السلم، يرفعه عن الأرض ويحمله كأنه تمثال عندما حاول أن يتفلتَ منهم ليعثرَ على زوجته وابنته. نادى باسمَيْهما «تيري، إيميلي»... الشخصان الوحيدان في العالم اللذان لهما أهمية الآن. سمع صوت زوجته «نحن خلفك»، وسمع صوت خطوات سريعة تجري نازلة من خلفه. «لقد أتينا بهما يا سيدي». ما أحسنك يا شواريز! صفارات إنذار في الخارج، والجدار البشري يتحرك مبتعدًا عن باب البيت نازلًا إلى القبو. أصوات إطلاق نار في الخارج، وأصواتٌ تأتي عبر أجهزة الووكي توكي، وشواريز يقول له: «أغلق الباب من الداخل ولا تسمح لأحد بالدخول إلى أن أعطيكَ إشارةَ الأمان». دخل الغرفةَ الآمنة وفي أعقابه زوجته وابنته، ثم أُغلق البابُ من خلفهما وأدارت تيري القفلَ ذا الألسنة المتعددة.

قالت إيميلي: «لماذا نحن في الحمام؟»

كان لا بد لكارامات من لحظة من الزمن حتى يتذكر أن ابنتَه لم تعد إلى البيت منذ أن صارَ وزيرًا للداخلية. لقد كانت زائرة من الماضي، تذكرةً بالحياة مثلما كانت من قبل.

«إنها الغرفة الآمنة الآن».

«أوه، يا إلهي... سوف نموت».

لم يكن قادرًا على تحمل النظر في وجه ابنته في تلك اللحظة فشغل نفسه بتمرير كفيه على إطار الباب كما لو أنه الأب القادر على العثور على نقاط الضعف فيه وإصلاحها. ضرب على الباب، ثم صاح: «شواريز، ما الذي يجري هنا؟»

أجابه صوتٌ من خلف الباب لعله صوت جونز: «سوف نخرجك في أقرب وقت ممكن»، فبدا الأمر كأن وزير الداخلية وزوجته وابنته عالقون في مصعد معطل. هكذا هم الإنكليز، أحيانًا؛ حتى عندما يكونون ويلزيين! وضع يده في جيبه لكنه لم يجد الهاتف. لا يزال على الطاولة منتظرًا رسالة جيمس. وأيضًا، لم يكن هاتفا إيميلي وتيري معهما.

ضرب على الباب من جديد: «سوف أحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك».

«لقد التقطنا مكالمة يا سيدي. مكالمةً عن هجوم وشيك».

قالت تيري: «هذا ليس مفيدًا». كانت محتضنة ابنتَها بين ذراعيها. عليه أن يذهب وينضَمّ إليهما وأن يفكر في قول شيء يريحهما، لكنه جلس بدلًا من ذلك واستندَ بظهره إلى الجدار الأملس. ماذا يمكن أن يقول؟ هل يقول إن كل شيء سيكون على ما يرام؟»

قال: «إنني آسف». ثم انتظر إلى أن تقول له واحدة منهن إنها ليست غلطته.

أشاحت تيري عنه بوجهها وبدأت تُحدث ابنتَها بنبرة عملية واضحة وتشرح لها الإجراءات الأمنية والخصائص الأمنية لتلك الغرفة المحصَّنة؛ وتقول لها أيضًا إن هنالك احتمالًا كبيرًا لأن يعني التقاط ذلك الكلام أن لا شيء موشكًا على الحدوث، فلماذا يتحدث شخص ما في مكالمة عن خطط للهجوم إن كان يعتزم تنفيذ ذلك الهجوم حقًا؟

غرفة مقاوِمة للانفجارات... مقاوِمة للرصاص... مزوَّدة بإمكانية الإمداد الجوي. هذه هي الكلمات التي كانت تطمئن ابنتها بها.

كم كانتا جميلتين، كلتاهما، زوجته وابنته! بينما كان أعداؤه هناك يلعبون ألعابًا سياسية لتحطيمه (تسريبات ودسائس وتلطيخ بالوحل، الأشياء التي منحت ويستمنستر تلك السمعة السيئة)، كان جالسًا في علبة مسلحة بالفولاذ مع زوجته وابنته في حين يحاول إرهابيون قتله. فتح كفَّيه كأنه رجل يريد الدعاء أو أبٌ يحمل طفله الرضيع... أو كأنه سياسيّ يدرس خطوط كفيه. ما كان مؤمنًا بأي شيء من هذا الهراء كله، لكن أحدَهم قال له ذات يوم إنَّ «علم خطوط الكفَّيْن» يقول إنَّ خطوطَ الكف اليسرى تمثل ما كان مقدَّرًا لك عند ولادتك، بينما تمثل خطوطَ اليد اليمنى القدرَ الذي تصنعه لنفسك. وقد سرَّته منذ ذلك الحين ملاحظة الاختلاف الكبير بين خطوط الكفَّين: خط القلب، وخط الرأس، وخط القدَر، وخط الحياة. متى كانت تلك اللحظة التي جعل فيها من نفسه رجلًا يفكر في إنقاذ مستقبله السياسي عندما تكون ابنتَه في حاجة إلى من يهدّئ من روعها؟ ربّت بيده على الأرض إلى جانبه، ثم أمسكَ بيدها عندما أتت وجلست إلى جواره واضعةً رأسَها على كتفه. أحصى عددَ أصابعها مثلما فعل عند ولادتها رغم أنه ظل، حتى ولادة إيمون، يظن دائمًا أن تلك أسطورة من أساطير الأبوّة... شيءٌ لا يفعله أحدٌ في حقيقة الأمر. قال لها: «أمك محقة. من يستطيعون فعل ذلك يفعلونه. وأما من لا يستطيعون فيثرثرون على الإنترنت». جعلها هذا تضحك ضحكةً صغيرة، بينما أكمل: «وحتى أكون صادقًا معك، أقول لك إن شواريز يتظاهر بأن الأمرَ أكبر من حقيقته حتى يجعل المناسبة نوعًا من التدريب. هكذا هو شواريز. يحب أن يكون متأكدًا تمامًا من كل واحد من رجاله ومن نسائه قبل أن تعترضي يحب أن يعرف كيف يتصرف كل منهم عندما يكون واقعًا تحت الضغط».

«ألست تقول هذا حتى تجعلني أشعر بالاطمئنان؟»

«إنني الذئب المتوحّد. وأنا لا أقول أشياء حتى أجعل الناس يشعرون بالاطمئنان». كشّرَ عن أسنانه فابتسمت له ابتسامة واثقة.

هذا الجيل!!... لا يزالون أطفالًا، في العشرينيات! في سن إيميلي، كان قد واجه الكثير الكثير من بشاعات العالم. وقد استمتعَ بمواجهتها أيضًا، بعض الأحيان. وعلى الرغم من كل ما كان في «عصبة مناهضة النازية» من جنون سياسي، فقد فازوا. ألم يكن نجاحه برهانًا على ذلك؟ من عساه كان يمكن أن يظنَ في تلك الأيام عندما كان يسير هنا وهناك حاملًا شارةَ «العنصريون سيئون في الفراش»، مستعدًا في كل وقت لعراك بالقبضات أو لمضاجعة... سواء أتت هذه أو تلك... من كان يظن أن شخصًا مثلَه يمكن أن ينتهي إلى حيث هو الآن؟ حتى لو أنه فكرَ في الأمر، هو نفسه، أو لو قال له أحدٌ إنه سيصير وزيرًا للداخلية في غرفة آمنة بينما يجوس المكانَ في الخارج رجالٌ يريدون قتله، لعرف من غير أن يسأل أن أولئك الرجال ليسوا إلا من النازيين الجدد، حليقي الرؤوس. لكن، كيف يجرؤون... كيف يجرؤون أن يكونوا من ناسه وأهله؟ أبعَد كل ما فعله جيله لجعل هذا البلد مكانًا أفضل لهم؟... كيف يجرؤون؟ عداوة شخصية!... إلى الجحيم، نعم!

قالت له إيميلي: «أبي؟» فأرخى ضغط كَفّه على كفّها.

«كيف عساهم كانوا يخططون لفعل ذلك؟ شاحنةٌ محشوّة بالديناميت في شارع مجاور، انفجارٌ يدمّر الحيَّ بأكمله؟ هل كانوا آتين عبر مياه الصرف؟ أم لعلهم أفلحوا في التسلل إلى عناصر حراسته». نظر إلى تيري.

قالت له: «تنفس!» ثم جاءت وجلست إلى جانب ابنتهما، من الجهة الأخرى.

راح يركز على ذلك. راح يركز على التنفس؛ وظل ممسكًا يدَ ابنته. راح يركز على تذكّر أنه ما من علاقة مشتركة بين الشر والكفاءة. راح يركز على التفكير في طريقة تُمكّنه من الخروج من هذا كله بطلًا بحيث تصير قيادة الحزب كلها في قبضته. ثم يعود إلى التنفس، ثم إلى الإمساك بيد ابنته.

بعد ما بدا أنه زمن من الصمت لا نهاية له، قالت إيميلي: «لو كان إيمون هنا لبدأ يحكي لنا نكاتًا».

ألقى كارامات نظرةً سريعة إلى ساعة يده. إن ابنه هناك الآن، في كراتشي.

سعل سعلةً صغيرة، ثم قال: «تيري، هنالك أمر...»

نقراتٌ قوية على الباب؛ إنه شواريز يعطي إشارةَ الأمان. ثم جاء صوته قائلًا إن المكان صار آمنًا لخروجهم. نهض كارامات بسرعة شديدة جعلته يشعر بالدوار لحظة. أدارَ القفلَ وسمع الأقفالَ الفولاذية تنزلق من مواضعها. سمع ابنتَه تنفجر باكيةً... دموع الراحة والانفراج. استدارَ ليمسك بيدها، فرأى تيري تفعل مثله. ظل الثلاثة مترابطِين معًا، ظلّوا كذلك لحظة. وعندما افترقوا كان شواريز واقفًا أمامهم مبتسمًا ابتسامةَ ارتياح.

«كان هذا مجرد خدعة يا سيدي. لكنه تمرين مفيد لنا جميعًا».

«كيف تعرف هذا؟»

«لزعمهم أنهم تمكنوا من النيل منك، ومن الواضح أنهم لم يتمكنوا من ذلك».

صخبٌ صادر عن التوكي ووكي. وصوتٌ على الناحية الأخرى، صوتٌ ملحٌّ، متعجلٌ، مذعور.

* * *

هذا ما كررته القنوات التلفزيونية كلها، من غير نهاية:

رجلٌ في قميص أزرق داكن يسير داخلًا الحديقة. لقد عرف الجميع هويتَه فتسابق الصحفيون في اتجاهه. يرفع يدَه لهم وينادي باسم المرأة التي جاء إليها. تستدير الكاميرات صوبَها. إنها الشخص الوحيد غير المنتبه. وجنتها مستندة إلى الغطاء الجليدي الذي ذابَ حتى كاد يصير شفافًا. يتحرك الصحفيون متراجعين قليلًا مفسحين ممرًا بينه وبينها. وإلى هذا الممر، يخطو رجلان في ملابس تقليدية باكستانية. يقول له أحدهما: «أنت هنا أخيرًا»، ثم يفتح ذراعيه على اتساعهما. يلتفت الرجل صاحب القميص الأزرق الداكن في اتجاه المرأة، لكنه في مكان جديد، ولا يريد أن يجرحَ إحساس أحد. يترك ذلك الرجل يعانقه. في حين يشدّه أحد الرجلين إلى صدره معانقًا مثبتًا ذراعيه إلى جانبيه، يطوّق الآخر خصره. يخطو الرجلان خطوةً إلى الخلف، ثم يستديران، ثم يجريان. يبلغان السياج ويتسلقانه للخروج من الحديقة قبل أن يدركَ الرجل صاحب القميص الأزرق الداكن أنه غير قادر على فك الحزام الذي طوَّقاه به.

يشدُّ الحزامَ، ويصرخ طالبًا سكّينًا أو أي شيء، أي شيء حتى يقطعه به. لكن كل من في المكان يجري مبتعدًا صوب هذا المَخرَج أو ذاك. زعيق وصياح واستنجاد بالله... فمن غير الله يستطيع إنقاذهم الآن؟ يتوقف أحد المصوّرين عن جريه، إنه متمرس في توثيق المذابح؛ يتوقف عند نهاية الحديقة، خارج دائرة تأثير الانفجار، بحسب تقديره، ثم يوجه عدستَه إلى الفراغ الجديد الذي في الحديقة. لقد نهضت المرأة الآن. يرفع الرجل ذو الحزام الناسف على وسطه يديه عاليًا حتى يوقفها، حتى يمنعها من المجيء إليه. اهربي! يصيح بها... ابتعدي عني، اركضي! فتجري المرأة، تجري إليه فتصطدم به. تهتز الكاميرا عندما يتوتر كتفا الرجل الذي يحملها في انتظار الانفجار. يقاومها الرجل ذو القميص الأزرق الداكن،

يقاومها أول الأمر، لكن ذراعاها من حوله الآن، وهي تهمس له بشيء ما فيكفّ عن المقاومة. تضع خدَها على خده فيخفض رأسَه حتى يقبّل كتفها. خلال لحظة كاملة، هما عاشقان في حديقة تحت شجرة عتيقة، عاشقان تنيرهما بقعٌ من أشعة الشمس، عاشقان جميلان هانئان.

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

شكر وتنويه

جاتيندر فارما من مؤسسة «Tara Arts» هو من أعطاني فكرة اقتباس مسرحية آنتيغون ضمن سياق معاصر. أشكرك كثيرًا يا جاتيندر وأعتذر لأنني نفذت اقتراحك في صيغة رواية لا مسرحية.

وإنني سعيدة الحظ بأن تكون «Santa Maddalena Foundation» موجودة في حياتي؛ أشكرك كثيرًا يا بياتريس مونتي لأنك منحتني حيزًا للعمل، وأشكرك على صداقتك، وعلى كلابك أيضًا.

أشكر أيضًا ديرموت أوفلين على طاولة المكتب المشرفة على البحر.

أشكركم يا فيكتوريا هوبز ويا ألكساندرا بيرنغل وبيكي سلطان وأنجيليك تران فان سانغ وجينفر كوستر وفايزة س. خان وكل من يعمل في «Bloomsbury»، وريفيرهيك وأ. م. هيث اللذين كان لهما دور في حياة هذا الكتاب.

أشكر أيضًا ناشرين آخرين كثر، وأشكر مترجمي هذا الكتاب.

أشكركم أيضًا يا مترجمي سوفوكليس: آن تارسون، مترجمة آنتيغون (Oberon Books, 2015)، وسيمون هيني، مترجم 'دفنٌ في طيبة': آنتيغون

لسوفوكليس (Faber & Faber, 2005)، فقد كان هذان العملان رفيقيّ الدائمين خلال فترة كتابة هذه الرواية. والفضل أيضًا لكتاب آلي سميث 'قصة آنتيغون'(Pushkin Children's Books, 2013)، ولآلي نفسها.

أشكرك يا شامي تشاكراBارتي لأنك سمحت لي بأن أستخدم كلماتك التي قلتها عندما كنت مديرة «ليبرتي» (.liberty - human - rights org.uk) فيما يتعلق بالخطط الرامية إلى تجريد مواطنين من جنسيتهم البريطانية.

ولا تزال أليزابيت بورتو قارئتي الموثوقة الأولى كعهدها دائمًا.

إن المقاطع الخاصة ببريستون رود مدينة بالفضل الكبيرة لجيرالدين كوك، الصديقة المرشدة الحريصة على التحقق من المعلومات، فقد منحتني وقتها من غير كلل ومن غير أن تطلب معرفة ما كنت أفعله. أوجه شكري أيضًا إلى أصدقائها ومعارفها الكثر الذين حدثوني عن حيّهم.

لقد صدرت مسرحية جيليان سلوفو التوثيقية[1] «عالم آخر: كيف خسرنا أطفالنا لصالح الدولة الإسلامية» (Oberon Books, 2016) قبل وقت قصير من شروعي في العمل على هذا الكتاب. أبدت جيليان كرمًا وصداقة استثنائيين عندما سمحت لي بالاستفادة من معلوماتها ومصادرها، إضافة إلى تكرمها بقراءة المسودة الأولى لهذا العمل.

---

(1) المسرحية التوثيقية نوع من المسرحيات يتكون النص فيه من مقتطفات وردت على ألسنة أشخاص حقيقيين ضمن سياق أحداث حقيقية.

المؤلفة: كاملة شمسي (Kamila Shamsie)

كاتبة بريطانية من أصل باكستاني ولدت في مدينة كراتشي سنة 1973 وتخرجت في جامعة ماساشوستس.

لها عدة روايات:

- في مدينة عند البحر (1998) - جائزة رئيس الوزراء للأدب الباكستاني
- ملح وزعفران (2000)
- أشعار متكسرة (2005) - جائزة باتراس بخاري التي تمنحها الأكاديمية الباكستانية للآداب
- ظلال محترقة (2009) - جائزة آنيسفيلد وولف للأعمال الأدبية
- إله في كل حجر (2014)
- نار الدار (2017) - جائزة المرأة للأعمال الأدبية (بريطانيا)

المترجم: الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: "سنة 501، الغزو مستمر"
- هوارد زِن: "ماركس في سوهو" - مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: "اختراع التقاليد"
- تشارلز تايلر: "المتخيلات الاجتماعية الحديثة"
- إيفان كليما: "حب وقمامة" - رواية
- جورج أورويل: "1984" - رواية
- جون ستيوارت مِل: "سيرة ذاتية"
- سول بيلو: "مغامرات أوجي مارتش" - رواية
- سينكلير لويس: "بابيت" - رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: "كفاحي" - الجزءان الأول (موت في العائلة) والثاني(رجل عاشق) - رواية/ سيرة ذاتية.

هل يستطيع الحب الانتصار على الخيانة؟

الأخوة عصمة وأنيقة وبرويز دائمًا ما جمعهم حبهم المتبادل، ولكن ظروفًا أقوى منهم، وترتبط بماضي عائلتهم، ستفرّقهم وتبعد برويز عن أختيه وتأخذه إلى مكان بعيد من هذا العالم معتقدًا أنه يكمل المسيرة الجهادية لوالده الذي لم يعرفه أبدًا

تستحق أن تحظى بأعلى أوصاف المديح التي يمكن أن تقال في عمل أدبي، رواية تجعلك تفكر، محفِّزة ومقلقة..
The Times

رواية لا تُنسى، فذّة، تخطف الأنفاس تتصاعد الأحداث فيها لتبلغ الذروة في نهايتها الصادمة.
Publisher's Weekly

هذه الرواية تقع في ثلاثمائة صفحة فقط ولكنها تشعرك بأنها رواية ممتدة، رواية ملحمية مادتها بالغة الحساسية، ألمت فيها كاملة شمسي بأدق التفاصيل، ولم يغب عنها أي شيء.
The Daily Telegraph

t.me/t_pdf

ISBN: 978-9938-941-17-3

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس